فوّضت أمري للنسيان

جمانة ممتاز

دار الحكمة
لندن

فوَضت أمري للنسيان

Telegram: electronic_library

فوّضت أمري للنسيان

جمانة ممتاز

دار الحكمة
لندن

Telegram: electronic_library

• **فوّضت أمري للنسيان**
• **تأليف** : جمانة ممتاز
• **الطبعة** : الأولى ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م
• **الناشر** : دار الحكمة – لندن
• **تصميم الغلاف والكتاب** : علي حجازي

ISBN: 978-1-78481-116-7

© حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution
88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk

Telegram: electronic_library

الإهداء

إِلَيْهِ

Telegram: electronic_library

هنيئا لمن يفهم الأسباب الخفية للأشياء،
أعتقد أني لست منهم

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

كبيرٌ هو والوطن وضيق علينا، مملوء بالأوكسجين وثاني أوكسيده يخنقنا، وفير المال وبخيلٌ معنا، كريم بالحب ومجحفٌ بعطاياه البشرية لنا، مخترق هو وحضنه الأمين لم يعد لنا... وجدنا أنفسنا خارج اسوار مملكته دون ارادتنا وخارج وعينا... انطلقت قوافل العراقيين في رحلة الصيفِ تبحث عن بلدٍ أمين تغفو فيه افئدتهم بالاطمئنان... تزاحمت الحشود الجوية والبرية الى تركيا ولم تعد منافذ الحدود تسيطر على طمغات الخروج من العراق، جوازات، جوازات تهرول بأبناء الوطن بعيدا عن الوطن... آه أيها البالون الكبير الذي اسمه الوطن سأخزك بإبرة.

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

- ١ -

كتبتُ في دفتري الصغير: كنت طفلة حتى نهاية القرن الماضي، مراهقة حتى الاحتلال وحمقاء منذ أن عرفتك.

ترجلتُ من السيارة كالمجنونة، أبحث عن حياتي التي هربتْ مني الى الركود، نعم أضعتُ شيئاً مني هنا في هذا الشارع الذي تسكّعنا فيه مراراً ضاحكينَ على السكارى الغارقين في فضاء اللاشعور وقد اتخذوا شارع ابي نواس ملاذاً خمريّاً لهم، اومأَ لي حارس الموقف ليسلّمني وصل ركن السيارة، نظر الي من شعري حتى قعر قدمي، تذكرتُ كيف تشنّج وجهك ذاتَ مرةٍ ركنّا السيارة هنا حين كان حارس الموقف ذاته يسارقُ لحظهُ الي، وكدت تضربه لولا أني توسلت بك أنْ لا نفسد وقتنا مع التافهين، سرّحتُ نظري بوجه الحارس كأني ارى وجهك في وجهه، نسيتُ، نفسي كما نسيتها مرارا، رأيتُ ذاك العصب الذي يزيّنُ يمين جبهتك! ظن أني ابادله النظرات، أخذت بطاقةَ الموقف وهرعتُ مهرولةً أبحث عن مكاننا! تؤلمني قدماي اللتان تفتقدان إيقاع قدميك على الارض معهما، قدماي الآن اشبه بقدمي راقصة باليه أبهرت الحضور بالرقص الأنيق والحزن العميق، لم نعد نعزف موسيقى المشي كما كنا سابقاً فنمتّع أسفلت الشارع والعواميد والاشجار، اشعر بأنهم يبكون معي بصوتٍ صامت، ويصلّون معي بقلبٍ صامد ... لاعبتُ كل حجرٍ بطريقي وكل قنينة ماءٍ فارغة رماها المتخلّفون، كنتَ تعلّق على لعبتي هذه وتقول لي «طفلتي متى تكبرين؟» كنت اقول لك « من لهذه الحجرات سوى قدمي التي تدفع بهن الى

Telegram: electronic_library

الامام؟»، آه، أكره شعوري بالمسؤولية تجاه كل شيء، وشعوري بالمسؤولية تجاهك، كنتُ أفكر كثيراً.... كيف احافظ عليك من وقتك؟ من عملك؟ من الاخرين؟ من ملابسكَ التي قد لا تتناسب مع الجو حتى؟ أفرطتُ بحرصي عليك، كأمٍّ مهجورة افسدتْ ابنها الوحيد بالدلال فضاع عندما صدمتْهُ وحشية الحياة... تلك هي الدكّة التي جلسنا عليها نترشف الحديث بخجلٍ، ركضتُ إليها وانا أُلملمُ شعري الطويل الذي تحبُّ عن عيني كأنني احاول ان اراك كالمرة الاولى، عندما اتصلتَ بي وقلت:

- انظري الى يمينك، لا، لا، أميلي رأسك قليلاً...

- اين انتَ؟

- إذا كنتِ تحبينني، سيدلّك قلبكِ، ولن تحتاجي لخارطتي

- بربّك، أخبرني اين انت؟ لا أحب عدالتك، تراني ولا اراك

- لأنّني يجب أنْ اراكِ دائما حتى لو لم تكوني معي، لأني اخاف عليك من هذه الخصلة التي تبعدينها عن عينيك الان ...

- إياس، لا أحب الألغاز وانا فاشلة بحلها

- هههههه لماذا انتِ عصبية دائما! اهدئي

- أخبرني اين انت؟ والا تركتك وعدتُ الى البيت

- أمامك.

- إياس، باي.

- فزارة، فزارة، فزارة ... لحظة، تعالي، تعالي لا تزعلي ... انتظري دقيقة واحدة ...

Telegram: electronic_library

جئتَني وفي قلبك شوق الف سنة من الوحدة أردتَ ان تفجرها بوحدة سنيني، نظرتُ اليك كمن ينظر الى الشمس، أبعدتُ عيني فورا من قوة السطوع، انه ليس سوى سطوع العاشق، انها الموجات الكهرومغناطيسية التي بثها قلبانا، طاقة عالية حيث قوة الموجة تتناسب عكسيا مع المسافة، فكلما اقتربنا أكثر اصبحت الطاقة اقوى وأكثر سطوعاً ... نعم، على هذه الدكة اللعينة رسمتَ قلباً صغيراً على حجرها بأصابِعك السمراء الرشيقة ومرّرتَ أصابعك بهدوء حتى غطت اصابعي المرتعشة ... اللعنة عليك يا إياس، سأقولها مراراً، كيف استطعتَ أنْ تسرق سعادتي وتتركها للأتربة على رفّ حياتك، أنا اكرهك، أنا أحبك ... لطالما كنتُ جذعاً يابساً لا يبكي، لا أعلم ما الذي حصل معي منذ فترة طويلة فجفت قنوات دمعي، اظنها القسوة التي أكلتها في سنوات مضت كعسلٍ مر، أكستني مناعة البكاء، تخيل أني أستجدي الدموع كشحاذ يستجدي قرب جامع يكثر فيه المؤمنون والضائعون، ولا مرةً رقت عيوني على حالي وبكت! ولا مرةً أكرمتني بدمعة واحدة! لقد فضتُ بالعَبرات التي لا تترجم ولا تنفذ الى خارج جسدي ...

سأشكوك لهذه الدكة، سأشكوك لكل المارة والعابرين مثلي.

أظنّني تركت عقلي في محفظتك، تلك المحفظة التي كُنت تدفع منها ثمن غدائِنا البسيط، سندويش شاورما دجاج واحد نتقاسمه ولا نشتري سندويش اللحم الذي قد يكون فاسدا هو الاخر في بلد يعج بالفساد، وعلبة كولا سمينة ... لقد خططنا لكل شيء لدرجة أننا محونا الفراق حتى ظهر فجأة وأكلنا كأننا أمامه وجبة طعام فاخر ...

Telegram: electronic_library

حذائي ليس حذاء راقصة الباليه، أنه حذاء رياضي ابيض تكسوه الاتربة. مع هذا فأنه ينقبض على اصابعي الصغيرة بداعي الوحدة! عُدت ادراجي الى الموقف واخذت سيارتي المسكينة ... طريق العودة يعني ان اتلبس افكاري، واتزوجها وأنجب منها طفلَ حرامٍ! لأنها تغتصبني بوحشية حين تذكرني أننا افترقنا دون رغبتنا ... لم يوقظني من افكاري سوى اصواتِ مزامير رتلٍ مستهترٍ من السيارات المصفحة التي اقتحمت شارع ابي نواس، بالتأكيد انه لأحد الشخصيات المصابة بداء العظمة!

مروا وسرت أنا خلفهم ببطءٍ ثم اندمجت بطابور سيارات توقف قبل السيطرة، ما الأمر هذه المرة ؟؟ طال انتظاري في الطابور فطلبتُ من اليسا التي أحب اغانيها دون رغبة مني ان تغني لي، مطيعةٌ هي، لا ترفض لي طلباً مطلقاً، فراحتْ تغني «من كتر حبي فيك خلاص، انا قررت أكرهك، عشان مش عارفة اكتر من اللي عملتوا اعمل ايه». يشدّني هذه الصوت الحنون وهو يعبّر عما في قلبي، أني أكرهها وأحبها في آنٍ واحد، فعلى الرغم من جمال اغانيها التي لا تمل، الا أنها تصيبني بالكآبة والإحباط، انا لا اريد ان اكون فتاةً تعيسةً! اريد ان تملأ السعادة رئتي بغاز الحياة ... لقد طال الانتظار حتى الوصول الى سيطرة التفتيش، يؤلمني كثيرا ان بغداد تحولتْ دون شعور منا الى ثكنة عسكرية، خوفٌ يصيبك كأنك لص غير محترف كلما مررت من نقاط التفتيش، خوفٌ رغم أنك تعلم ان الجهاز الذي سيحفصك ليس سوى لعبة أطفال تكشف روائح العطور وحشوات الاسنان وتغض الشم عن المفخخات، ستضطرّ رغما عنك بكل أدبٍ ان تفتح مصابيح السيارة وتطفئ المسجِّل وتسلم متمنياً ان لا

Telegram: electronic_library

يشكّ بك ولا يطلب منك التفتيش كأنك جندي مدان بالتقصير! احيانا تمر بنقاط تفتيش تسمى «سيطرة مشتركة» اي ان الشرطة والجيش والمرور معا تحت سقيفة لفحصك كأنك مريض يُفحص بجهاز الرنين... جهاز رنين معطل.

كثيرا ما أسأل نفسي لماذا يضحكون علينا بهذه الطريقة المؤلمة؟!

مشى الطابور وبدأت السيارات تتنفس الصعداء، ومشيتُ انا معهم وعندما اقتربت من السيطرة خففت سرعة السيارة نظر اليَّ العنصر الأمني ثم قال « تموّت» وكعادتي، انقبضت نفسي مثل كل المعاكسات التي اتلقاها في الشارع بين حينٍ وآخر، فحتى ان الاجهزة الامنية تشترك في المعاكسة بدلا من ان تهرع الفتاة لهم لحمايتها، اللعنة على هرمون الذكورة الذي لا يهدأ عند الرجال مطلقا!! المرأة بالنسبة لهم ليست سوى انحناءات مدورة مثيرة. على أية حال هذه ليست اول مرة اسمع بها معاكسة مثل كلمة « تموّت» معظم حياتنا مرتبطة بثقافة الموت حتى صرنا الموتى الأحياء، فنحن نحب حدّ الموت ونشتاق حدّ الموت نضحك حدّ الموت ونبكي حدّ الموت، ونتعب حدّ الموت، لم يعد الموت حالة غريبة بيننا! فقد أصبح اعتياديا جدا ان نموت وبأيّةِ لحظة، سأرضى كثيرا اذ دفنُت مع هذه الاعداد الهائلة من الميتين، سأتعرف عليهم وأقضي وقتي بسماع قصص موتهم وأحدثهم عن حياتي، لا اريد الموت في مقابر صغيرة انا التي عشتُ كل حياتي وحيدة اريد ان ادفن في مقبرة كبيرة جدا وجدا فيها الكثير من الموتى مثل مقبرة وادي السلام في النجف علي استطيع ان أكون علاقات مع الباقين في العالم الاخر بعد ان فشلت مع الاحياء الراحلين في هذه

Telegram: electronic_library

الحياة الفانية أ سأقص لهم نبأ موتي لمرتين، مرة عندما أحببت إياس والمرة القاضية عندما انقطع نفسي وتوقف قلبي وطارت روحي من جسدي وتركته جثة هامدة لم يبقَ لها في الحياة شيءٌ سوى الدفن.

استقبلني ابو مريم بوجه عبوس في باب العمارة، لا يستوجب منك الكثير من المجهود لاستفزاز هذا الرجل المزعج السكّير، فهو شارب خمر محترف منذ سنين، يجيد الترنح في الشوارع مستعرضا بطولاته، ويُحسن ضرب زوجته وابنتيه مريم وسهى حتى يتكالب الجيران على شقته لفض الاشتباك بينهم، انا لا افهم كيف تطيقه ام مريم وتتحمل ضرباً واهاناتٍ شخصية تافهة منه او كيف تتحمل رائحة الخمر التي تفوح منه ليل نهار، واشعر بغصة قلب مريم التي تستحي من أبيها كلما خرجت من منزلها وهي تخبئ عيونها من الناس.... مرة اخبرتني انها قالت لحبيبها الذي اراد ان يخطبها ان يؤجل هذا الموضوع لأن أباها مسافر.

- مرحبا، فزارة

- مرحبا عمو أبو مريم

- لقد أتى صاحب العمارة اليوم مع محاميه مرة اخرى وهذه المرة معه أمر من المحكمة بأخلاء العمارة

- حقا

- نعم، أين سنذهب الان، الإيجارات غالية جدا، أفكر بنصب خيمة في قطعة أبي رزاق لتصليح السيارات، أفضل من ان يطردني ابو العمارة كل يوم مع محاميه الحقير، هل فكر ابوكِ بحلٍ ما؟

Telegram: electronic_library

-ابي؟ «انه يذكرني بالسكير الآخر ... لقد سكر كثيرا في حياته حتى توقف بعد ان أنفق كل اموالنا على انواع الخمور»

- الحقيقة لا، لا نعلم اين نذهب نحن ايضا، انت تعلم أني قد خسرتُ عملي ايضا...... اراك لاحقا.

صمتُّ فجأة وتوقفت عن سرد اخباري له، لماذا أخبره بما يحصل معي؟ .... لابد أنْ ادفع أقساط سيارتي واساعد أمي بدفع ايجار الشقة، قد خسرت عملي مؤخراً في شركة حجوزات الطيران لأن الهرمون مرتفع جداً عند مدير الشركة الذي حاول اغرائي وإكرامي بالهدايا التي رفضتها مقابلَ أنْ أقدم له منحنيات جسدي على طبق من قماش سريري! ثم ظلّ يضغط عليّ للقبول به كحبيب عابر للمسميات! تباً له ولدناءته ولشركته، استقالتي على مكتبه مع نص توبيخ لن يسمع أقسى منه في حياته هذا إذا كان قد فهم كإنسان ما كنتُ اقوله! لقد غضبت كثيرا في ذاك اليوم وتذكرتُ وتمنيتُ في لحظة ضعفٍ ان أتّصلَ بإياس واقول له تباً لكلّ شيءٍ وتباً لكرامتنا التي اهدرتْ وقتَنا دون أنْ نحضنَ بعضنا، تعال الي الآن، أنا أضعف مخلوقٍ منكسرٍ على وجه الكرة الارضية، خلصني من هذه الوحوش البشرية التي تحيطني من كل حدبٍ وصوبٍ، احضنّي بلهبٍ حتى أشعل النهاياتِ المتعرجة من حياتي واتخلص منها ... لكني خُفت من الاتصال، خفتُ ألا تردّ فيردّني قلبي بصفعةٍ تحمّر وجنتي الى الابد، ففضلت ان لا اتصل على أنْ أواجه قسوتك، انا لا أريد أنْ أراك سوى حبيب خطفني من الجميع بقلبه الكبير.

Telegram: electronic_library

أتخيل أنْ الدخول الى العمارة يشبه الى حد كبير الدخول الى سجن الاستخبارات، العتمة وتهالك الاسلاك الكهربائية وتجمعها بصورة عبثية على الحيطان وخرير قطرات المياه كلها تبث الذعر في الروح، احيانا أفكر حتى أن طريقة رصف الكاشي متعمدة لتخويفي! الدرج متكسّر ويشتكي من ضعف قدرته على حمل اقدام الوافدين الى شققهم، واتخذت الجرذان من الطابق الارضي سكناً لها، فهي ترقص وتلعب وتأكل ما تسرقه من الشقق هنا وبكل وقاحة ودون خوف من البشر، لأن البشر ببساطة عجزوا عن مكافحتها، أما أنا فبيني وبين نفسي كنتُ اشعر بالأسى عندما يشنَ البشر حروبهم ضد الجرذان وكنتُ اتمنى ان تنصلح وتعقد هدنة معهم حتى لا يضطروا في النهاية إلى قتلها، تمنيتُ لو كنتُ أستطيع ان اقول للجرذان ببساطة كفي عن السرقة حتى تنعمي بحياتك في الطابق الاول بأمان.

كل مرة امرُّ بمدخل العمارة اشعر أنْ نهايتي قد تكون هنا في حال سمعت صوتاً يجفلني! انها عمارة قديمة جدا يسكنها الفقراء مثلنا، لقد اشترى أبي هذه الشقة بنظام «السرقفلية» بخمسة ملايين عراقي قبل سنوات ويدفع ايجار بقيمة ٢٥٠ ألف شهرياً، وأحيانا لم نكن نستطع ان ندفع الايجار حيث تتراكم علينا الديون، وتحديدا على امي «امي وام مريم وجهان لعملة واحدة اسمها النساء الآيلات للانقراض»! لقد خسر ابي تجارته بالأدوات الصحية وباع بيتنا في العرصات واشترى لنا بيتاً صغيرا في السيدية وفتح كافيه انترنيت صغير في الكرادة، سرقهُ شريكه واضطر ليبيعه هو الآخر مع البيت الصغير، جن جنون امي وأخذت منه الاموال واشترت لنا هذه الشقة التي استطاعت ان تؤمن بها على حياتنا، الان لم اعد اتساءل لماذا لم تنجب امي اخوة او

Telegram: electronic_library

اخوات، بدأت افهم ان هذا الرجل لا يحتمل ولا يطاق، فالعيش مع أبي اشبه بالعيش مع كلب مسعور، الا أني كنت اتساءل دائما لماذا لم تهجره او تتركه وتتزوج رجلاً يُقدّرها! انها جميلة، جميلة جدا كزهرة زنبق وردية متفتحة على الدوام، رقيقة المشاعر، صوتها عذب كأنه انشاد سماوي، لا اعلم كيف استطاع هذا الرجل ان يؤذيها الى هذا الحد؟ امي تعمل سكرتيرة في احدى العيادات الطبية لصالح د. محمد اختصاص امراض القلب والشرايين منذ سنوات وهي التي تصرف على العائلة، تدفع الايجار، تتبضع من السوق، تتابع المعاملات الحكومية الروتينية القاتلة، هي المرأة والرجل معا، اما ابي فهو ثلاجة العشتار الساكنة في مطبخنا، يبتلع الطعام وعندما تفرغ طبقات بطنه يصيح هل من مزيد! اذكر مرة أني كنتُ في الكلية واتصلت أمي:

- فزارة حضري نفسك اليوم، انا ادعوكِ لجلسة عشاء ساحرة في اي مطعم تختارينه في بغداد...

- حقا أمي؟ ما الامر؟

- لقد حصلت اليوم على مكافأة من د. محمد، بعد يوم عمل شاق ...

- «يا بختك يا ستي»!

- فكرتُ ان اشتري لك ملابس جديدة للكلية بدلا من خياطتها، لكن دعينا هذه المرة نستمتع مثل الناس الميسورين بما في بغداد!

- حسنا امي لِمَ لا، سنخرج فور عودتي.

لقد كانت فرحة أمي بمثابة أنصال سهام في قلبي، حنون، بسيطة تفكر كيف تسعدني وكيف أظهر بمظهر حسن أمام الاخرين، أنا أميرتها الوحيدة وفرحة

Telegram: electronic_library

عمرها الوحيدة، فلم تحصل في هذه الحياة على شيءٍ آخر سواي، كان الجميع في كليتي « الإدارة واقتصاد/ جامعة بغداد» يتصور أني ابنة عائلة ذات دخل مادي جيد، لأني كنت ارتدي أجمل الملابس! ولأن محفظتي لم تشتكِ جوعَ النقود يوماً ما، فكانت امي تشتري الاقمشة لي في الصيف وتتابع الموضة وتخزن صور الازياء الجميلة في هاتفها وتخيطها لي كما لو أنها جاهزة من السوق! وكانت تحتفظ بكل البقاشيش التي تحصل عليها من أجل مصرف كليتي ومن أجل أن أدفع ثمن الأجرة الشهرية لسيارة الجامعة! أما أبي فلم يكن يعرف حتى ما الذي أدرسه! فكلما رأى كتبي، انفجر بي غاضباً موبّخاً: إن هذه الكتب ستأخذ عقلي وإن الزواج والاتكال على مصرف رجل آخر أفضل من هذه الترهات التي أقرأها ...

Telegram: electronic_library

- ٢ -

فراشي الحنون يستقبلني كلّ مرةٍ بشوقٍ، أظنه الوحيد الذي يحضنُني بكل وفاءٍ وبراءة يغطيني طاردا البرودة بعيدا عن تضاريس جسدي، اما شاشة تلفوني فهي صديقتي التي تفتح لي نافذة إلكترونية تنقلني الى فضاء مفتوح وللحديث مع الناس بكل سهولة ...

كتبت على الفيس بوك خاطرة « تاريخ أول شتاءٍ لي، تاريخ رحيلك» مؤلمٌ جدا أن يستمتع الآخرون بالعبارات الأدبية التي تكتبها وان تمضغ مرارة واقعها، تحصل على العديد من الاعجاب والتعليقات التي تمجد اجادتك لصياغة أدبية رفيعة والبعض الاخر يكتفي بكلمة « الله « دليل على جمالية المفردة فيما تعرف انت وحدك سر هذه الجملة ... صديقي الفيس بوكي اسمه « ديجيتل آرت» انتزعني من افكاري عندما حدثني على الخاص ...

- فزارة ... يبدو أنكِ ناجية من قصّة حبٍّ عنيفة!

- وهل ينجو العاشق من الحب!

- ينجو إذا نسيَ

- اذن انا لم انسَ وما زلت مصابة

- ستنسين غدا، لقد انهيت قبل ٣ أشهر علاقتي بحبيبتي لأنها أتهمتني بأني مسلم متطرّف! تصوري! وقالت لي ان كلبي « روبي» أفضل من كل المسلمين المتطرفين حول العالم ... مع أني لا افهم ما ربط ديني بالحب!

Telegram: electronic_library

- حبيبتك عراقية مسلمة؟

- نعم انها عراقية مسلمة لكنها اصبحت تمقتُ الوضع لأنها تظن أنّ كل ما وصلنا اليه اليوم من الحروب والصراعات والنزاعات بسبب الإفراط في التدين وبأننا نعيد كل القضايا التي نعجز عن حلها الى الله.

- هل انت مسؤول عن كل الحروب؟

- لا ولكني مسلم معتدل!

- ما معنى مسلم معتدل!

- فزارة، انا لستُ متطرفاً، انا موحد أؤمن بالله ملتزم بصلاتي لكن قد اشرب أحيانا وأسمع أغاني وأتسكع مع اصدقائي وقد أقبّلها إذا استطعت دون زواج ... لا اعلم ما الذي اصاب حبيبتي ... بعد ان قُتل أخوها في ظروف غامضة في منطقة زيونة، اصبحتْ متطرفةً لفكرة الإلحاد وان الله غير موجود لأنه إذا كان موجوداً فلماذا يتفرج على كل القسوة التي نعيشها!

- ما زلت تسميها حبيبتي

ظلت الشاشة تريني نقاطاً ترتفعُ تتهاوى دليلاً على انه يكتب، لكنه استغرق وقتاً في الكتابة ثم جاءني رده.

- ما زلت أحبها...» أظنه كتبها وهو يتألم».

- أخبريني ما بك. انكِ فتاة تشع بالحياة والجمال والمثابرة، انفضي غبار الماضي وتقدمي الى الامام دون التفات.

- ليس الامر بهذه السهولة التي تظن، كل شيء يجبرني على المشي دون عودة،

Telegram: electronic_library

وكل شيء يجبرني على البقاء دون فرار، انا عالقة فيه، محبوسة كقطة في مخزن بيت مهجور. أحبه لأني لا اجيد شيئا سوى ان أحبه وان اضخ هذا العشق في جميع اجزاء جسدي وروحي.

تركتُ دجتل ارت يسألني اما انا فرحتُ اتسكع في ذكرياتي مع إياس مخنوقةً .... لقد افترقنا دون رغبةٍ منا، يبدو اننا ضغطنا على نفسينا كثيرا حتى حصل بيننا انشطار خطير رمى كل واحد منا في متاهةٍ بعيداً عن الاخر.... لقد كشفته يكذب عليّ أكثر من مرة، سرقت هاتفه في احدى المرات فرأيت محادثاته مع فتاة اخرى جن جنوني، وأفرغت جام غضبي في وجهه، كيف استطاع ان يخونني بهذه الطريقة المؤلمة، نعم بعض الخيانات مبررة ... نعم إنها ليستْ سوى فتاة عابرة لكنه شعور يجرح اي امرأة في نهاية المطاف... لماذا يحدثها وانا حبيبته الوحيدة وأنا أعلم انه يحبني كما يحب العراقيون حدَّ الموت!

لقد اجبرته أن يصارح اهله بعلاقتنا حتى نبدأ بالتأسيس لمرحلة انتقالية جديدة في حياتنا، كان يتهزّم ويرفض، وانا اعلم لماذا، لأنه من عائلة دينية متشددة اما انا فقد كنتُ متحررة لا ارتدي الحجاب، شخصيةٌ عنيدةٌ يصعب اقناعها لا اسمح لأي رجل ان يغيّر قناعاتي او أن يغيّرني من أجله، لقد اكتويت من عقدة أبي السكير ومعاملته السيئة مع أمي وارفض ان يدخل ايُّ رجلٍ في حياتي ليغيّرني من أجل قناعاته الفكرية والاجتماعية والمذهبية أو من أجل أن يقبل أهله ويباركوا زواجنا ... زعلتُ منه واطلتُ الزعل وطلبتُ نهايةَ هذه العلاقة مادامت غير متكافئة، جنّ وغضب وصرخ بوجهي وتوسل بي أن أترك هذا الجنون الذي في رأسي لأننا ولدنا

Telegram: electronic_library

حتى نكون معا، ووعدني انه سيخبر أهله في أقرب وقت ممكن ... اتصل بي مساءً في أحدى المرات فرفضته، بعث لي رسالة، اجبيني ضروري، دق قلبي، خشيت انه قد تعرض لحادثٍ او ما شابه، ففتحت الخط وإذا بصوتِ رجلٍ وقورٍ يحدّثني عبر الهاتف « انا والد إياس».

صعقتُ انا وخجلتُ وتلعثمتُ لا اعرف ما الذي اقوله له بعد

- لقد طلبتِ من إياس أن يتحدث معنا عن موضوع علاقتكما... وها أنا ذا أحدّثك... وأنا الآن على علم بهذه العلاقة، لا أستطيع أن أباركها لكن إذا كانت سعادة ابني معكِ فلنْ أقف بطريقه أكثر.

تبادلنا الحديث كثيرا وأخبرته أن أبنه انسان غامض، أتعبني وأجهدني في التفكير رغم أنني واثقة كل الثقة بحبه... إلا أنّ حلقة الغموض هذه تفتت هذا الهيكل العملاق الذي نبنيه معا...

أغلقت الهاتف وأنا مترددة كثيرا ... ثم سألته كيف أخبرتهم؟ لم تكن اجابته بالمستوى المعقول والمقبول لإقناعي ... قلت له « انت تكذب أهذا ليس والدك بل استعنت بشخص يدعي انه والدك» تشاجرنا كثيراً، تشاجرنا حتى تعبنا من عملية تكرير الجمل، انفعلنا، غضبنا، صرخنا، بكى وأنا بقيتُ جامدةً كالحجر الذي ينخره المطر بلا بكاء ، ثم ضحكنا من شدة اللهجة التي تبنيناها ثم استسلمنا مسالمينِ لأمرنا دون أن نصل لتسوية ... لقد كنتُ أشكّ بصدق المكالمة وكان هو يحاول بكل الطرق إقناعي، ظنَّ أني أجرحه في كرامته بتكذيبه وظننتُ أنه يجرحني في كرامتي بتكذيبي، كنت أعلم بيني وبين نفسي أنه سيفعل أي شيءٍ حتى لا يخسرني لكنه في النهاية

Telegram: electronic_library

كان يفعل ما يجعله يخسرني بهذا الكذب فلو واجهني بالحقائق لكنتُ قد وقفت إلى جانبه كما تقف الأشجار لأسناد بعضها ... كل الكلام ذهب أدراج الرياح وعدنا نتحدث مع بعضنا متناسين الحادث وهو يدق في ذاكرتنا بصمت. تشاجرنا بعد مدة من الزمن ... لكنه انفجر بوجهي هذه المرة معترفاً بكل شيء:

- نعم، ذاك الكهل لم يكن أبي، كان أحد أقاربي، ترجّيته أنْ يتصل بكِ ويقول انه أبي حتى تشعري بالاطمئنان معي وتسرّحي هذه الفكرة التعيسة من بالك، دعينا نعيش ولو مرة واحدة دون التفكير بالغد، قتلني تفكيرك بالغد وانتِ تنسين يومنا!

- كيف استطعت أنْ تكذب عليّ بهذه الوقاحة ومراراً قلتُ لك أني لم اقتنعْ بأن من هاتفني والدك؛ لأن إجاباتك لم تكن مقنعة ولا مقبولة.

- استطعت وكفى، إنكِ تدفعينني للكذب، أرجو أنْ ننتهي الآن دون عودة لأني فعلتُ كل ما بوسعي حتى أكون معك لكنك تضغطين عليّ دائما ظناً منكِ أنكِ تحافظينَ عليّ دون ان تعرفي أنكِ تُجهدينني، ولأني أحبكِ وأخاف خسرانك فعلتُ أفعالي.

-إياس، هذا ليس مبرراً، كفاك تستخدم هذه التبريرات السخيفة، لو كنت تحبني لما استخدمت هذا الأسلوب بالحفاظ عليّ ...

- انتهينا فزارة ...

هنا انتهينا كما اخبرني إياس، وشعرتُ أن عجلات حياتي قد توقفتْ، سينهشني الحنينُ وهو يسقط كذكرى على لحظات لنْ أستطيع القبض عليك بها متلبسّة بأشواقي، ستتخمُ رئتي بأوكسجين منتهي الصلاحية وأنا انتظر أنْ تنفخ في صدري أوكسجيناً صحيّاً، كلا، لا أستطيع أن أتقبل أن لا أرصد قمركَ مرة اخرى وهو

Telegram: electronic_library

يتجسس على ليلي، يغازلني كأنني الانثى الوحيدة على الارض، سأفيض بأمواج الحب الخانقة التي لا أعلم أين أُسكنها وانا مطرودةٌ من مقاطعتك ... توسلت بك كما توسلت بي مرة، استخدمتُ كل الجمل التي كنت تستخدمها في إقناعي حتى نظلَّ معا...

Telegram: electronic_library

- ٣ -

قمت من فراشي بتلكّؤ، لا أعلم ما أفعل! آخذ حماماً منعشاً، أم أتناول فطوري أم ماذا؟ «علبة تونة، جبن قديم، أصابع بطاطا قديمة» هذه الثلاجة فقيرة ببقايا لا اكلها مع أني لستُ جائعة، انه ليس سوى الضجر يدفعني الى أنْ أدقّ بابها كل برهة علها تطعم نفسي شيئا يذيب الملل، عُدت منكسة الرأس الى تلك الأريكة المكسورة في غرفتي، حشوت نفسي على يسارها وأنا أقلّب شاشةَ تلفوني، أخبار الفيس بوك، قصائد، انكسارات عاطفية، قصف جبهة الحكومة وتعريتها، تشعرني الأخبار أنها في سباقٍ لا ينتهي وعواجلها لا تهدأ... كتب لي على الخاص «مؤيد»، أووووه، يا إلهي أنا لا أطيق هذا الرجل!! مؤيد زميلي في الشركة قبل أن أَطردَ نفسي منها، ذكي جداً ومتكلم لبق، أشفق عليه حقا، لأنه أضاع حضوره بكثرة مدحه لنفسه، فهو الموظف الاكفأ، والمصلح الاول، والذواق الأرفع، والسائق الأسرع، والطباخ الافضل، والزوج الأوسم، أما الاخيرة فلم أكن اطيقها بالمطلق. مؤيد يُحبني بصمت، يتابع كل تعابير وجهي، ويركز على كل جُملي، ويراقب تحركاتي، انه مهووس بي دون أنْ يتجرّأ وينطق بذلك، وحمداً لله أنه لم يفعل لكنه لّماح جيد وأظن أنها الخصلة الوحيدة الحقيقية فيه، فقد لّمح لي مراراً بأنه يُحبني، أما أنا فكنت التزم الغباء حتى لا أجرحه برفضي...مرة اشترى لي علبة مكياج زيتيّة هدية بمناسبة اللامناسبة! معلّلا ذلك بأنه تذكّرني بها، حينها أيقنت أنه ذواق سيء وكل خصاله باطلة! أخبرت إياس ذلك بعفوية:

Telegram: electronic_library

_ اسمع، أتذكر مؤيد الذي أخبرتك عنه؟

- ما به؟

هههههه، قدم لي هدية-

- أها، وهل اخذتها؟

- أجبته بتلعثم وخوف....

- الحقيقة، نعم

-وداعا فزارة

- إياس... إياس... إياس... انتظر

المجنون أقفل الخط، إياس غيور خطر، عاشق متخم، لا يُحب أنْ يباريه أحد، ولا يحب أنْ يتمشّى أحد بالقرب من ممتلكاته، أنا بالنسبة له عقار مسجل باسمه، يجن جنونه إذا سمع أنْ أحداً حدثني، ويجن جنونه إذا حدثني أحد ولم أخبره؟ هذه المعادلة تتعب أعصابي، فأخاف أن أخبره وأخاف ألا أخبره، في الواقع أنا لا أخاف من إياس، فهو لا يُخيفني مطلقا، فهل يعقل أنْ أخاف من نفسي؟ إلّا أنّني أخاف أنْ أدخل معه في معارك وأنا لا أملك ذخيرة كافية، لقد هلكتْ ترسانتي وانهكتها الحياة ومللتُ الحروب وسعيرها، أنا جندي هزيل يفكر كيف يعود لبيته دون أنْ يفقد أحد أطرافه، أما إياس فهو ضابط متوحش، شرس، ربته الصحارى المفتوحة وجبهاتها وأكسبته أشواكها مناعة ضد الوخز! إياس لا يعرف سوى الانتصار، حتى أنه قهر الموت كثيراً وكان يعود متمنّياً إياه، إنه مقاتل أُسُود ومعلّم قتال، عمل مع إحدى الفرق الخاصة جداً والسرّية التابعة لوزارة الدفاع وبدورها نقلته للعمل في أصعب وأخطر بيئة

Telegram: electronic_library

عراقية وهي الموصل، أيام كانت المدينة بأيادي السلطة وقبل أنْ تضيّعها ضيعة الوداع! أخبرني مرة أنه كان جالسا في وحدته في معسكر الغزلاني يفكر بإصابته الأخيرة- بعد أنْ انفجرت عبوة ناسفة بوجهه إثرَ محاولة اقتحام بيتٍ إرهابي مفخخ- ناداه امر الفوج بشكل سري آمراً إياه أنْ يحضر أحد الإرهابيين الذي جاء ليسلم نفسه بباب المعسكر، اياس الذي لم يكن يهمه شيء بعد أنْ باع روحه خسارة، نفذ دون استفسار أو مناقشة، أخبرهم الإرهابي أنه أحد أمراء تنظيم القاعدة وأنه مطلوب للأمريكان ومكافأته خمسمائة ألف دولار وبعد أنْ كشفوا هويته قرر التنظيم إرساله إلى سوريا حتى يتخفّى ويعود من جديد، في سوريا صعق الأمير عندما رأى الأمراء مثله الذين كانوا يجبرون الناس على دفع الإتاوات، يصرفون أموالهم في النوادي وبين أحضان النساء، لهذا قرر أنْ يعود ويهتك استقرارهم، سيزجهم في السجون حتى لو كلف الامر حياته، قال لآمر الفوج بأنه سيدلهم الليلة فقط على خمسة مطلوبين من التنظيم، من بينهم وزير المالية، كان إياس يشك بصدقه لكن اتضح انه صادق بعد أنْ نفذوا العملية وقبضوا على المطلوبين، في احدى ليالي الموصل الباردة، الحالكة، القاسية، تسلل إياس ومجموعته مع الأمير المرتد عن فكره، إلى منطقة الزنجيلي وهي إحدى أكثر المناطق خطراً وكثافةً سكانيةً وفقراً، ، تمعن إياس بجسد غريب عالق في الاسلاك الكهربائية، لم يعرف من بعيد ماهية هذا الجسد الغريب حتى اقترب أكثر واكتشف أنه انسان، اقترب ليجده على قيد الحياة! مربوطاً بأسلاكٍ كهربائية كافية أنْ تجهض روحه إذا ما سرى فيها التيار الكهربائي! تقدمت الفرقة فوراً صوب الجسد وحاولت إنزاله! الا أنّ صوتاً جهوراً صرخ بهم من خلف باب أحد البيوت، «. دعوه، دعوه وارحلوا» جهز إياس مسدسه

Telegram: electronic_library

فوراً ممسكاً يده بيده الأخرى حتى يضبط الهدف ويركز أكثر ووقف قبالة الباب لكن الرجل خرج إليهم برداء عربي أبيض بسيط، يبدو منزوعاً من أيّةِ مقاومة، إياس تصبب عرقاً لامسَ العصب الأيمن في جبينه، ثم زأر بوجه الرجل....

- من انت؟

- أنا والد هذا الشاب، اتركوه وشأنه ولا تأتوا هنا مرة اخرى، ارحلوا، ارحلوا نحن الان مراقبون وقد نقتل في أية لحظة....

- من يراقبنا؟ من علقه هنا؟

-تنظيم القاعدة

-لماذا؟

-لأنه شرطي...

- لماذا ترفض ان ننزله؟

- لأنهم سيفجرون المنزل إذا عصيتُ أوامرهم وأنزلته، إنه كافر بنظرهم لأنه شرطي ويتعامل ويتقاضى راتبا من حكومة عميلة جاء بها الاحتلال الامريكي...

- ابنك يحتضر، وسيموت إذا جاءت الكهرباء، مما تخاف أكثر، لقد خسرت ابنك، مُت أنت وعائلتك من اجله أفضل من ان تقضي عمرك باكيا عليه...

بكى الرجل بحرقة وغضب...

-لا أستطيع، فهم لن يقتلوا بناتي، بل سيخطفونهن، ارحلوا الآن إذا أردتم حقا أنْ تساعدوني

- سنخرجك من هنا أنت وعائلتك، فقط دّلنا على الفاعل

Telegram: electronic_library

- سيفجرون بيوت أقاربي ويأخذون بناتهم

تهكم وجه إياس وتلوّن بدماء الغضب، ما الذي يحصل؟ ما هذه الوحشية؟ ما هذا المرض العضوي الذي هتك جسد العلاقات الانسانية؟ تباً، بالنهاية هو ليس سوى معلم قتال وحشي يعمل بصورة سرية وليس حتى ضابطاً ليفكر بالإنسانية او يفكر بأن ينادي على رتلٍ عسكري ليدك البيت ومن سيظهر للمقاومة وينزل الشاب.

- هل أنت متأكد أنك تريد رحيلَنا؟

- نعم، ارحلوا ولا....

لقد حفر هذا الحادث خندق مرارة في روح إياس وفكر ان الحل الوحيد لحماية العائلة أنْ يرحل عن هذه الارض الملعونة بلا عودة فور عودته لبغداد وأنْ لا يشترك مجدداً في اي عملية خاصة او عامة ويقلع عن تعليم القتال...

يا ترى هل سيغضب إياس الآن إذا عرف أنّ مؤيد يكتب لي على الخاص بل ان الأبله يرن عليّ إلكترونيا عبر الفيس بوك، اللعنة، أنا في مزاج سيء ولا أطيق أنْ أحدّث أحداً أو أمنحه ثلاث دقائق أدخل فيها في نقاشات مجاملة عابرة، اخترت أنْ لا أردّ عليه وأنْ أعود لوجبات الفطور سيئة الذوق، وبعد جولة أخرى مفرغة في المطبخ، فتحتُ هاتفي مرة أخرى لأتفحص تعليقات الاصدقاء على منشوراتي، فوجدت أنّ مؤيد كتب لي ما يقارب الخمسين رسالة دون يأس.

- فزارة: كيف حالك؟

- هل ما زلت تشربين الكاكاو بالحليب بارداً وتمقتين السمك؟

- فزارة ... متى تعودين للشركة؟

Telegram: electronic_library

- يقولون أنّ المدير يُحبك! الجميع يشك بوجود علاقة بينكما وبأنك قد ابتعدتِ من الشركة حتى تبعدان الشبهات عنكما!

- هل صحيح ما يقولونه عنكِ؟

- لقد رأوك آخر مرة وأنتِ تخرجين منفعلة من غرفة المدير، قالت أسماء أنكِ اكتشفتِ علاقةً له بواحدة اخرى؟

- لقد نسيتِ شالك قرب الكومبيوتر، لم أستطع ان اقاوم نفسي ولا اخذه؟ هل سرقته؟

- عطرك ساحر كما انتِ؟

- لا زلتِ تضعين غمازتيكِ اللتينِ أحب؟

.....

.....

اذهب الى الجحيم، هاتان الغمازتان لإياس وحده، مدى الحياة حتى لو هَجَرَنا وسافر عنا اللقاءُ دون عودة... يؤلمني أنْ اعترف لنفسي منكسرةً كم أنا أحبك، ويؤلمني أكثر أنك اطعمتني عوسج الفراق، تمنيتُ عندما سألتك آخر مرة الم تعد تُحبني؟ ألم تعد تريدني في حياتك؟ تمنيت أنْ تقول لي ما زلت أحبك بالارتباك ذاته الذي أصبتني به أول مرة التقينا، لا أستطيع الاستغناء عنك كما لا أستطيع الاستغناء عن صوتي لأني بصوتي اتواصل مع الحياة والناس، وجودكِ في حياتي يبقيني على قيد التواصل والانتعاش، لو كنتَ قد قلت لي «ما زلت أحبكِ»! لكنتُ قلت لك خذ عيوني قرباناً لهذا الحب، لكنك لم تقل شيئاً ومضيت كأنك تريد ان تلقنني درساً بصياغة الأسئلة، لم

Telegram: electronic_library

أكن اقصد جرحك بسؤالي، قصدتُ التودد ودلع النساء وأفسدتُه معك، بدأت أفسد كل شيء لأن نفسيتك المتقلّبة أصبحت تقلب طاولة الحوار. أتذكر أول مرةٍ التقينا؟ كنتُ خارجة من قمقم العمارة المعتم، يلبسني الخوف والمجهول، شعري القلق مثلي ينسدل على كتفي، فررتُ شاردةَ الذهن من مدخل العمارة راكضةً صوب النور فارتطمتُ بنور قلبك، هي شهقة أخذتها من قاع رئتي حتى أترجم جفلتي ، لامستُ صدرك للمرة الاولى بوضع الدفاع عن جسدي، توقفت كل حركة الكون وبقينا نحن الوحيدين في المشهد، ولجتُ في عينيك الجميلتين فرأيت انعكاس نفسي، رأيتني راقصة باليه تتكور في أحضانك وتنبسط بلحظة دلالٍ فارشةً فستانها زينةً في حياتك، سمعتُ قاعك ينبس من تحت الاكوام، « هي انتِ ، انتِ»، لقد كنت واثقاً جداً بنفسك، تعلو شفتيك ابتسامة مخابراتية، القيت القبض علي، ورميتني بحبسك الانفرادي، مسكتَ يدي وذبتَ في خجلي وسعادتي في محاولةٍ منك لتهدئة روعي، كنتُ أريد أن اقول لك لا تهدّئني، اتركني أمرض بك ارجوك، أريد مرضاً مزمناً سببه أنت، اريد أنْ اكون فايروساً وبائيّاً يجتاح صدرك... خِفتُ كثيرا يا إياس، خِفت أن تنتهي هذه اللحظة وانتهي انا بعدها لأني ايقنت في وقتها أني وجدت ما كان ضائعا مني...

لم أكن اعلم ما الذي تفعله في عمارة منكوبة تحوي منسيين مثلنا؟ خفتُ ألا تأتي مجدداً وأنْ يُعلق هذا الحادث الى إشعار آخر كما تُعلق القوانين المهمة في بلدي، لم أستطع أنْ أكمل مشواري، عُدت الى الشقة، رميت نفسي في فراشي وطلبت منه ان يغطيني، « غطِني أرجوك كما تغطي الطيور صغارها، أشعر بالبرد» ادعمني بشيء من القوة انا ارتجف، أضعف وأذوي في الحنين.

Telegram: electronic_library

نمتُ في خيالي وانا اتذكر عينيك الكبيرتين، وذاك العصب المثير على يمين جبينك، وجدتُ نفسي في مكتبة كبيرة، كبيرة جداً وقد سقطتْ كل الكتب من رفوفها وملأت الارض، كنت أبحث عنك وابحث بين الرفوف والكتب والغبار، أوقفني كريم صديق أبي، رجل يساري كبير توفي قبل خمس سنين، قال لي ، لا تقتربي منه، يُحبك لكن الشقاء قدرك معه... لكنك لم تتوقف، بقيت تتجه نحوي امسكتني من ذراعي بقوة وجذبتني لصدرك، شعرتُ باللسعة ذاتها التي شعرت بها اول مرة في الحقيقة عندما اصطدمتُ بك ولامستُ صدرك، قبلتني بعذوبة وأقسم أنّ طعم القبلة هذه كان الطعم ذاته الذي قبلتني به لأول مرة، أنا لم أكن أرَ حلماً، لقد كان واقعاً في عالمٍ آخر ليس على الارض وليس في الحياة... دقّ أحدهم باب المكتبة بقوة فابتعدت عنك خائفةً كطفلٍ اقترف ذنباً مبرراً، فتحتُ عيني على صوت الطرق ذاته، كان أبي قد خلع الباب المكسور!، لا أعلم لماذا اصبحَ في فترة ما قليلَ الصبر؟!

- ابي ما بك؟! لماذا خلعت الباب؟!

- هي مكسورة اصلاً!

- وان يكن! مازالت بابي، ضمن حدود وطني المتواضع...

- كفي عن الترّهات، مريم في غرفة الجلوس تنتظرك

- مريم؟ مريم جارتنا؟

نعم، هي... -

- ماذا تريد؟

- لا اعلم، تسألينني انا؟ اكيد أحاديث نسائية فارغة...

Telegram: electronic_library

لم يكن بيني وبين مريم أحاديث نسائية خاصة، ولستُ من النوع الذي يحب التكلم كثيرا، أفضل الصمت او ربما لأني تعلمت على الوحدة. ولدتُ دون أخٍ او أختٍ، وعندما كان أبي يضرب أمي ويتشاجر معها، كانت الغصة تسدّ مجرى أنفاسي كنت أنظر اليهما دامعةً وخائفةً ثم أهرب إلى فراشي واغطّي رأسي، هكذا تعلمتُ على الصمت وأصبح جزءاً من سلوكي العام...

عندما رأيت مريم في غرفة الجلوس تلعثمتْ بالسؤال عن احوالي وأشارت إليّ بعينيها أنها تريد التحدث معي على انفراد، بعيداً عن أبي الذي كان منشغلاً بمتابعة قناته المفضلة ويعدّ الدقائق حتى تحينّ نشرة الاخبار لتفريغ شتائمه اللاأخلاقية لهذا اليوم وثناء متابعة ما في جعبة البرامج السياسية من فضائح حكومية جديدة...

دعوتها لغرفتي مخترقة الحدود بعد إذْ خلع أبي بابها وجلسنا على أريكة جدتي الوحيدة التي ظلت لنا من ممتلكات منزلنا القديم في العرصات...

- فزارة

- نعم...

- بمن اصطدمتِ ظهرا عند باب العمارة؟

بهتُ في وجهها، ونظرتْ بعمقٍ في عينيها في محاولة مني لأعرف، هل يعقل أنها تتحدث عن إياس، او هل كان شخصية مهمة لدرجة أني اقحمتُ نفسي في مشكلة دون ان اعلم؟

- اصطدمت بشاب زائر لا أعرفه...

- هذا الشاب صديق مصطفى خطيبي، لقد خطبني مصطفى قبل أسبوع وكان

Telegram: electronic_library

إياس قد جاء ليساعد مصطفى في ترميم سقف مطبخنا الذي انهار من الرطوبة، إنه معجب بكِ جدا لدرجة انه ظل يلح على مصطفى حتى يرسلني اليك لأقول لك... انه يريد ان يتحدث معك...

صدمت من هول المشهد، يرتطم بي في الصباح ويصبح في المساء حبيبي، انا لا اعرف كيف أعرب عن شعوري كثيراً ولا أعرف كيف اترجم انفعالاتي ولم اتمالك نفسي حين اخبرتني مريم، فقمت بحركة لا شعورية مني أصفق وأقفز كراقصة الباليه بخفة متناهية كأنني حققت انتصاراً انتظره على نفسي، أخيراً حظيتُ بشعورٍ آسرٍ متبادل، تفاجأَتْ مريم بردة فعلي! وظلت تنظر إليَّ ضاحكةً...

- لم أكن أعلم أنَّ هذا الخبر سيفجر طاقاتك الطفولية...

- اوه، أنا آسفة... أنتِ لا تعلمين كم يكابد المرء حتى يحظى بشعور متبادل، الحقيقة شعرتُ بتدفق في شراييني... مريم انا أحب هذا الشاب...

- تحبينه!!!!!

- نعم أنا أحبه وأنا واثقة من إحساسي...

Telegram: electronic_library

- ٤ -

عصراً قررت أن استثمر وقتي للترفيه، كنت قرأت أنّ التسوق هو انفلات اقتصادي في سلوك الانسان وهو هوسٌ عادةً يُصيب النساء الباحثات عن كلّ ما هو جديد حتى تبقى جميلة بالمستوى المطلوب منها وأكثر ، كأي امرأة لا أشتري لحاجة ضرورية بل لحاجة إضافية ومستعدة لتجربة الكثير من المنتجات المفتعلة والمبالغ بها كأن أجرب مرطباً مزيلاً لحب الشباب، مزيناً بصورة امرأة ذات بشرة مشرقة وأتفاجأ في اليوم الثاني بأن وجهي قد تحول لقرص بيتزا مقرمش لأمكث في العويل والبكاء والترنح بين أطباء الجلدية والصيدليات لحل مشكلة عرضية كنت في غنى عنها، أنا أيضا لا أتردد بتعريض نفسي للخطر مادام الجمال هو الهدف، لا مانع أن أكون تحت رحمة التخدير العام وأجابه احتمالية الانتقال الى عالم الموت من أجل شفط دهون غير مستحبة! كل هذا لا يهمني، ما يهم هو أنْ أظل افروديت الجميلة الساحرة... أما أنا بشخصي فقد حصلت على بشرة هادئة وجسد متزن وملامح دقيقة ورثتها عن أمي، لقد وفر الله نقودي، فلم أكن بحاجة لعملية تجميلية او مواد اضافية، أما مع إياس فقد كنتُ أستطيع أنْ استغني عن علب المكياج والألوان الإضافية ومسرّحات الشعر، انا معه بدون إضافات، بدون ألوان، بدون خطط على طبيعتي وعفويتي، أشاركه عيوبي دون حياء أو خجل، لقد كان يعرفني كما أعرفني، كنتُ اتصل به احيانا مازحة لأقول له:

Telegram: electronic_library

- الآن أنا أزيل شعر وجهي بالخيط، آخ، أظنه مؤلم!

- مجنونة، من أين لكِ شعر؟

- بلى، بلى موجود، سأرسل لك صورة...

-هههههه إنه أشقر وناعم، لا بأس أرسلي لي صورة، حتى أقبله في المرة القادمة شعرة شعرة ...

- ألا يقرفك الموضوع؟!

- أبداً بالعكس، لكن لمَ لا تجربين إخبارَ أمّك، أو صديقتك، أظنهم سيتفاعلون معكِ في مثل هكذا مواضيع أكثر مني.

- إياس، كلا يجب أنْ تشاركني بكل لحظة.

- هههههه، مجنونة، أحبك.

لمْ أشعر ولا مرة بأني غريبة أمامك، بل إنك مرآتي، متدفقٌ بروحي كالنَفس المحافظ على حياتي... كنتَ تضحك كثيراً على هوسي بالشراء وتقول لي ستفسدين ميزانيتنا الاقتصادية في المستقبل، فكلما حصلتُ على مبلغٍ إضافي تسكعتُ به ووزعته بين محلات الكرادة على الرغم من أنّ أمي كانت تخيط لي أجمل الملابس، لكن كنتُ أحب أنْ أخرج من المحل بأكياس كارتونية واشتري ملابسَ جاهزةً مثل بقية الفتيات، أنا لم أعرف يوماً معنى الدلال المادي إلّا عندما عملتُ بعد التخرج، كنتُ أهرّب راتبي من أبي ولم اخبره بقيمته خوفاً من أنْ يعود للسُكر، ووجدتُ نفسي ملزمةً أخلاقياً بمساعدة أمّي بدفع الإيجار واستطعت أنْ ادّخر مبلغاً بسيطاً كدفعةٍ أولى من ثمن سيارة صغيرة اقتنيتها من شركة سيارات صينية، بأقساط رمزية جداً وجداً... أما بعد

Telegram: electronic_library

أنْ خسرتُ وظيفتي بسبب ذاك الاخرق ذي البطن الممدودة فقد بتُّ قلقةً جداً.... كيف سأدفع الاقساط المتبقية؟ على أيّةِ حال الطقس بين شهري الخامس والسادس في بغداد يصطبغ بالحرارة الغاضبة، لبست جينزاً أخفاني في بطن لونه الغامق وقميصاً أبيضَ طويلاً، حتى أتجنبَ المعاكساتِ المريضة، هناك ضوابط عامة حتى على فاقدات الحجاب مثلي فإذا لبست الفتاة كنزةً قصيرة او بلا أكمام فأنها خرقت كلّ الحدود الاخلاقية وتجاوزتْها وستتحمل ما يحصل لها وحدها، أخبرتُ سيارتي أنّ رحلةً قصيرةً لأقرب موقفٍ بالكرادة لن تتعبها وبأنها تستطيع حمل وزني المعقول.

اليسا هي عقوبة نفسي... تتلوها أغانيها عليَّ، تطعمني فلقةً قلبيةً « تعبت منك عشان مليش غيرك ولا بستغنى عنك وعشان مليش غيرك حبيب» ، تعبتُ من حبٍّ ينمو ولا يزهر، يكبر بلا ارضية آمنة يستقرُّ بها، لا.... أتعبتني قدم الباليه العائمة في فضاء اللا أرض واللا غيمة التي أفرش عليها تقويمي الجديد، ألا اعرفني دونك، والآن، لستُ لك ولا أعودُ إليَّ! نهشتني الأيام كأنني كعكة مجانية من الخذلان، اسفنجيةً هشّةً مناسبةً للمضغ... تعبتُ، تعبتُ جداً، لا قدرَ يلفّني بجناحه بعيداً عنك، ولا قدرَ ينفثني بريحه قريباً منك... اللعنة على اليسا! صفعتُ المسجِّل غاضبة، أجبرته أنْ يتقيأ قرص اليسا البغيض، امسكته بيديّ وأمعنت النظر بوجهها الرومانسي:

- ارحلي عني، ارحلي، لا تذكريني به، لا تتحدثي عنه، لا تغني بدلاً عن قلبي، أكرُهكِ، أكرهه، أكره هذه القصة منذ أنْ بدأت...ارحلي أنتِ وإياس إلى الجحيم...

فتحتُ نافذة سيارتي، وقذفتُ القرص بقوةٍ مضاعفة كأنني اقذف بإياس بعيداً عني، أغلقتُ النافذة طالبة من قلبي أنْ يوقف ماراثون نبضه.

Telegram: electronic_library

الكرادة، قلب بغداد النابض، وشرايينها المتفرقة، الكرادة بلد صغير مفعم بالحياة، شوارعها الضيّقة والعريضة تتناغم مع بعض محلاتها المختلفة' مطرزةٌ بتفنن، مع مقاهيها الشعبية والراقية، تتراقص مع بعض لإمتاع الزائر، المسرح والسينما وعيادات الطب والهندسة والاستشارات القانونية وغيرها من المجالات المختلفة تصدح من الكرادة، أحب الكرادة، أتخيلها امرأة اربعينيةً بكامل اناقتها وجمالها وحبها للحياة.

ضربُ الحجر لعبتي المفضلة أثناء التسكّع، التمعن في اليافطات متعة مكتسبة اذا كنتُ احاول الوصول الى محل ما، في شارع العطار وجدتُ ضالتي الضالة، ألا وهي قتل الإحباط الذي اصابني، توقفت عند إحدى عربات الباعة أسأل عن سعر بروش بشكل ريشةٍ يوضع في الشعر، يبدو أنّ عقلي متعلق بكل ما له علاقة بالطيران، أغلقتُ عينيّ من دون إيعازٍ من أعصابي، وفتحتهما على ضياءٍ هائجٍ، نَور السماء جارّاً وراءهُ صوتاً مدويّاً فتك طبلة أذني صابّاً فيها الطنين، ثار الادرينالين وراح يسرع في دمي ضاغطاً على قلبي الذي بدأ نوبة خفقان جنونية، عدَاد السكر تأرجح قلقاً ثم استقر نحو الهبوط حتى شحّ في جسمي فغِبت عن الوعي، روحٌ نفختْ على عينيّ ففتحتهما لأرى نفسي ملقاةً في بقعة غير البقعة التي كنتُ أقف بها، وجوهٌ وأجسادٌ يجمع بينها لون الدم، ورائحة الشواء تناثرت حولي في محاولة يائسة لمواساتي، لا يعقل أني مررتُ الآن بتجربة انفجار يتحدث عنها الإعلام وتصبح خبراً عاجلاً لمدة خمس دقائق على الفضائيات، لا يمكن أنْ أكون في تجربة سيتحول فيها الأموات إلى أرقام احصائية متناسين قيمتهم الانسانية؟ لا يمكن أنْ اكون أنا الان نموذجا عن عيناتٍ من المصابين، وسأُنقل بسيارات الإسعاف وأصير رهينةً

Telegram: electronic_library

لمرضٍ او دكتورٍ مبتديءٍ في فن الفتق والترتيق! آه ، لا يعقل، لا يعقل، أبعدتُ خدي المخدوش عن الارض بسرعة ضوء واستعنتُ بيدي لأقف، وقفتُ وبقيتُ أصرخ بهستيريا واضعةً يدي على عينيّ من هول المنظر، آه لا أريد أنْ انظر لأي شيء لا أريد أنْ أبقى هنا، أبعدتُ يديّ قليلا فرأيت طفلاً مصاباً بقدمه يبكي وبجانبه جثةٌ هامدةٌ لامرأةٍ يبدو أنها أمه قرب العربة المقلوبة، التي كانت قبل دقائق تعجُّ بالحياة، الأموات والمصابون كانوا قد حجزوا أراضيهم للاسترخاء بينما تصل سيارات الاسعاف لنقلهم، أصواتُ النيران المشتعلة مع أجهزة إنذار السيارات وصراخ الناجين والمسعفين من الناس الذين ركضوا صوبنا كلها كانت تعزف في أُذني بوقت واحد، هذا المشهد أقرب ما يكون لمشهدٍ سينمائيّ متقنٍ، لوحة الطفل ثقبت قلبي، فبات الصراخ بحنجرتي مضاعفاً، اخترق طبقاتِ صوتٍ لم أكن قد اختبرتها مرةً في حياتي، لا أعلم لماذا أصرخ لكني فقدتُ السيطرة على نفسي ولم أستطع ضبط توازني وشعرت أنّ كمية الذعر التي اجتاحتني لن تخرج إلّا بالصراخ، بدأت أتحسس جسدي برعونة، أمسك اجزائي، أتفحصها! أريد أنْ اعرف ما الذي حصل لي، وأنا أواصل صراخي لم أشعر إلّا وذراعٌ طوّقت خصري وحملتني بخفة، ظننتها ذراع إياس، شعرتُ بطمأنينةٍ للحظةٍ ما، تحسّست اليد، إنها ليستْ يدَ إياس، فإياس لا يملك شعراً كثيفاً بأصابعه، فقدتُ أعصابي وعادتْ لي نوبة الصراخ ضربت الجسد الغريب حتى أتخلص منه لكنه همس بأذني « لا تخافي» أنزلني في عمق شارع العطّار حيث تختفي المحلات وتظهر ساحات وقوف السيارات. ابتعدت عنه ونظرت اليه بعمق، عينان زرقاوان كأنهما بحرٌ غامض، اما انا فمصابةٌ فاقدةٌ أعصابي:

Telegram: electronic_library

- الطفل، ذاك الطفل، يا إلهي، الطفل يبكي، أرجوك...

-اهدئي، أرجوكِ، اهدئي...

-هل أنا مصابة، هل أنا أنزف، أخبرني، افحصني لا أشعر بشيء

-كلا، اهدئي، لا تخافي

-المرأة، أمه، لقد ماتت

عُدت الى الصراخ، وركضتُ نحوه ذعراً، حضنته دافعةً جسده الى الوراء من قوة اندفاعي وشدّته إلى صدري كأنني أتغطى به، لقد فقدت عقلي، ولم أعد أدري ما الذي أقوم به، بادلني الحضن وهو يشد شريط أصابعه خلف ظهري... همس في شعري الأشعث:

- اهدئي، سأعيدك الى المنزل...

تدفقتْ دموعي بغزارة، لقد نفثتْ غيمتي مطراً عنيداً صابراً، بكيت بحرقة ووجع وحزن كأني أصرف قرون بكاءٍ من الحرمان، أيعقل أني كنتُ بحاجة لانفجارٍ يُطيح بأسوار دموعي، أصبح قميص الشاب منشفة مبللة... ابتعدت عنه في لحظة وعي.

- من أنتَ؟ وما الذي تريدهُ

- راقبتك بلا تعمد منذ أنْ كنتِ تتمشين هنا وتنظرين إلى اليافطات بتمعن، كنت جالباً هاتفي إلى محل صيانة قريب وحصل الانفجار عندما دخلت إلى المحل، خرجتُ أركض لأرى ما الذي يحصل فرأيتك تصرخين بهستيريا.

-من أنت، لم تجبني.

- أنا يوسف، مهندس نفط مررت من هنا صدفةً.

Telegram: electronic_library

- حسناً، شكراً لك وأعتذر عمّا بدر مني من تصرفات عفوية.

ابتعدتُ عنه فارّةً فأمسك يدي بقوة وثقة...

- اسمعي، لن أدعكِ تذهبين وقدماك ترتجفانِ هكذا... ولا مجال للعناد؛ سنستقل التاكسي للعودة.

صمتُّ بوجههِ باهتةً، لم أستطع معاندتهُ...

- كلا، لديّ سيارةٌ في هذا الموقف.

-إذن، سأوصلك.

سأرحل عن مشهدٍ قاسٍ يعصف بالمدينة مثلهُ بين الحين والآخر، يمزّق رداء الأمن فوق رؤوسنا ويزجّنا في قناني دمائِنا متخمين، سأرحل وأنا شاكرةً ربي آلافَ المرّات لأنني خرجتُ سالمةً وإنّ وجهي ما زال جميلاً لن يتقزز الناس من ندبِ شظاياه، سأرحل وانا لست رقماً بين الموتى او الجرحى في نشرات الاخبار والجرائد، سأرحل بعد أنْ أهداني القدر فيلم أكشن وذعرٍ بنقلٍ مباشرٍ وسأحتفظ به في ذاكرتي حتى أرويَهُ لأهلي ولأصدقائي ليتفاعلوا من هول المشهد معي، سيمزّق قلبي ذاك الطفل الذي ظللتُ عاجزةً عن حملهِ على الأقل لطمأنتهِ مدى الاحلام لا الحياة...

رن هاتفي:

-فزارة: أين أنتِ؟

- أنا قرب البيت يا أمي، دقائق وأكون عندك

-أسرعي من فضلك، حدث انفجار هائل في الكرادة وخِفتُ أنْ تكوني هناك فقد أخبرتِني بأنكِ ستذهبين إلى هناك!

Telegram: electronic_library

-لا تقلقي لم أذهب، أنا قرب البيت

-حسناً حبيبتي، سنغلق العيادة اليوم باكراً لقلّة المراجعين، سأعود بعد ساعة

-أنتظرك

لقد كذبت على أمّي، هل هذا يسمّى كذباً ابيضَ؟ كذب مبرّراً؟ حتى لا تخدش نفسيات الآخرين، حتى تجنبهم القلق عليك، كنتُ بحاجة إلى أنْ اصرخ مرة أخرى وأنتحب أمام أمي، أريد استغلال دموعي العنيدة أبشع استغلال، سأحتفل اليوم على طريقتي بسن قانون البكاء الجديد، سأبتهج لأن مواده أصبحت تتلاءم ووضعي النفسي والصحي...نظرت إلى هذا الغريب الذي يجلس أمامي بعينين تائهتين، عيناه الزرقاوان ثابتتان على الطريق ويده لم تبتعد عن مسنن السيارة ولم ينبس بكلمة واحدة تذيب جليد الخوف الذي اعتراني منه، كيف آمنت به على غفلة! هل يفكر بخطفي؟ ربما يكون عضواً في عصابة بيع الاعضاء البشرية، فيخلع وجهه الملائكي كاشفاً عن وجه شيطاني أسود؟ سأتّكئ على حيطان الغرفة الحقيرة فاقدةً أعصابي وعقلي ورغبتي بالحياة، سيطعمونني جيداً من أجل قصّ أعضائي وإحاطتها بجسد آخر يدفع مبالغَ ماليةً باهظةً لقاء كليتي؟ سيخيط الطبيب كليتي برقعة اخرى متغاضياً عن إنسانيته بل سيلقي بها مع مخلفات العملية الجراحية! عصابات بيع الأعضاء البشرية منتشرة ولأن الفقر يسمح بالتخلي عن إحدى الكليتين لمواجهة خطر كجوع الأطفال وإذلالهم، لنْ اتفاجأ أيضاً إذا ما صِرتُ كخبر تلك الطفلة التي فقدت وعُثر عليها في أحد الشوارع مقتولةً دون كليتينِ وبلا عينينِ؟ فحتى العيون أصبحت تسرق في بلدٍ تقلع فيه بعزم الانفجارات، أما

Telegram: electronic_library

إذا سألت، في المستشفيات العمومية فقد تجد من العاملين فيها من يدلك على أحد الأطباء القادرين على زرع كلية أو غيرها في تربة جسدك! لذا يمكن استعادة العضو المفقود لا تيأس!

أنا في حالة تُرثى لها، نظرت إلى الهاتف متمنية أنْ تضيء شاشته ويهتزّ بيدي لأني أُطفئ موسيقاه دائماً، تمنيت اتصالاً منك يسعفني في هذه اللحظة، يحفز هدوئي ليغمر نفسي، أتعلم كيف يندي الحبُّ القلوبَ اليابسة؟ لماذا أجلس بقرب رجلٍ غريب وأنت لست بقريب وانما تقطن في روحي وكل هذا البعد بيننا...

- كيف تشعرين الآن؟

- أنا أفضل

- لماذا أنتِ وحدك؟

صمتُّ هنا، خوفا أنْ تستخدم إجاباتي ضدي، ويعرف أنّني وحيدة فيستغل ذلك

- تستطيع أنْ تتوقف، فبيتي يبعد أمتاراً من هنا، شكراً لك ولموقفك، أتمنى أنْ يحفظك الله بعيداً عن أيّ مكروه...

- ما اسمك؟

أعدتُ رأسي إلى الوراء متكئةً على مسند المقعد متعبةً أنظر إلى نقطةٍ غير محددة والغواش يملأُ عينيَّ

-انتظار

- عفواً؟

- لا عليك، أرجوك توقّف هنا...

Telegram: electronic_library

أوقف السيارة بإحباط وهو يحاول معرفةَ اسمي...

- آنستي، سأكون سعيداً جداً لو اتصلتِ بي لأي أمرٍ طارئٍ، أنا لا أسكن ببغداد، لكنّي سأزورها مرةً أخرى بالتأكيد...

سلمني بطاقةً أنيقة فيها رقم هاتفه وإيميله واسمه المهندس « يوسف الجبل «... الى هنا ستنتهي حكايتي مع ذي العينين الزرقاوين حيث أزحته من سيارتي واستلمت المقود أنا، كنت أرتجف، والرؤية عبثية ولولا أنني استعنت بذاكرتي بالسياقة في هذا الشارع لما كنتُ قد وصلت الى العمارة العفنة مطلقاً.

Telegram: electronic_library

- ٥ -

دخلتُ الى العمارة شاحبةً فاقدةً صبغةَ الحياة، لأوّل مرةٍ أشعر بأني أُشبه هذه العمارة المريضة، مظلمةٌ ومنكسرةٌ وآلاف الأصوات تصرخ في رأسي مثلما تصرخ أصوات النساء المعنّفات هنا والأشباح، لم يعد يقلقني إذا سقطتُ من الدرج أو تنازعت أسلاك الكهرباء على جسدي، فأنا العائدة من الموت تواً...

بذلتُ جهدي بطرق الباب، فتحه أبي، بهت ثم صرخ بصوتٍ عالٍ «فزارة»، تعرفتُ على ملامح جديدة بوجهه لم أرها سابقاً، خوفٌ وقلقٌ عميقٌ... سقطتُ بين ذراعيه العريضتين، احتضنني وهو يقبل رأسي، لسعتني نسمة حب، تسللتْ عبر مساماتي، نظرت إليه بعينين تقولانِ: أين كنت منذ أكثر من عشرين سنة؟ افتقدتك كثيراً، اشتقتُ إليك، احتجتك وكنت أمامي ولم أشعر بك، لم أرَ هذا الرجل الذي أراه فيك الآن، أيعقل أنّ كل هذه السنين التي انصرمت كنت عاجزاً عن إيصال حبك! بكيتُ، بكيتُ واحتضنته بقوة، كنتُ أبكي من قسوته ومن عطفه الآن، تذكرتُ مرة عندما كنتُ صغيرة كيف أعطيتني مئة دينار، كنا نواجه حصاراً اقتصاديّاً أنهكَ قوانا وتحملنا، الحياة بتقشف مستمر، أدوية ومواد غذائية قليلة، أسواق مفتوحة الأبواب وخالية من بضائع العرض، طلبتَ مني أنْ اشتري لك سجائر مفردةً بخمسة وسبعين دينارا واشتري علكة بخمسة وعشرين دينارا لي، أغرتني كرات العلك الملوّنة، فاشتريت ثلاثة منها وسيجارة واحدة لك، كنتُ أعلم أنك لن تنفثَ ضجرك وخساراتك الاقتصادية المتتالية بسيجارة واحدة، لا أعلم كيف ارتكبتُ هذه الغلطة

Telegram: electronic_library

وأنا فرحة بعلكاتي، اقتربت من البيت وتذكرتُ سجائرك، خفتُ من مصارحتك، رأيتك من بعيد واقفاً صوب باب المطبخ، أخبرتكَ بأني اشتريت سيجارة واحدة لك! غضبتَ وصرخت بوجهي، ارتعشتْ اكتافي الصغيرة وركضت إلى «باب الخطار» وهربتُ من خلاله، صعدتُ السلالم كغزالٍ ملاحَق، خبأتُ نفسي في خزانة «البيتونة»، مع كومة الأغراض، ارتميت في العتمة وكان ضوءٌ بسيط يتسلل من فتحة بابي الخزانة المتلاقين، الظلام والهدوء وانفاسي المضطربة صاروا اصدقائي، بقيتَ أنتَ وأمي تبحثانِ عني بكلّ مكان وصعدتما إلى «البيتونة» عشرات المرات وانتما تناديان ولم أكن لأرد خوفا من رد فعلكما، استعنتم بالجيران واصبحت عملية البحث موسعة جداً، صعد بعد ساعات مصطفى الذي كنت ألعب معه في الروضة وناداني باكياً:

- فزارة، فزارة ... عودي لنلعب « تُكي» كما تحبين، صدقيني سأقلع عن لعبة الشرطة والحرامي إذا عُدت...

اغدقني صوت مصطفى بالطمأنينة، شعرتُ بحبه الذي فشِلتَ أنت بإيصاله، شعرتُ أنّ مصطفى سيحميني من ضربك وسيلعب معي وينسيني خوفي... فتحتُ باب الخزانة وخرجت راكضةً نحو مصطفى... احتضنته بشدة، ربّت على شعري ومسح دموعي بأصابعه الصغيرة...

- أين كنتِ؟

أخبرته وأنا أبكي وأمضغ العلكات التي ملأت حلقي والدبق يسيل مع لعابي

- سيضربني أبي لأني اشتريت بفلوسه علكةً ملوّنةً.

- لا تخافي، سآخذك عند ابي.

Telegram: electronic_library

حسدتُ مصطفى لان أباه رحوم وعطوف ولا يضربه، وتمنيت لو أني أخته وأعيش في منزلهم، لا أحب العيشَ معك لأنّك وحشي وقاسٍ...

حملتني بذراعيك ووضعتني في فراشي، حيث أهدأ وأحب، حررتني من ثيابي الممزقة والمتسخة وغطيتني بشرشفي الأبيض الناعم، بقيت تقبلني كأنك تكفّر عن ذنبِ سنين وطلبت مني أنْ أسكت حتى أشعر أني أريد أنْ أتحدث، أخذني النوم الى دُور عرض الأحلام، دخلتُ إلى شاشته بجنحي فراشة ...كان إياس أمامي بقاعة مظلمة كبيرة، فارغة إلّا من كرسيّ بسيط يجلس عليه بزي معلمي الكوماندوز ينظر إليّ بحدية وهو يملي علي تدريباته القاسية التي يعطيها للمقاتلين، لم يستطيع جسدي الصغير تحمّلها، أمرني ان أقف على رؤوس أصابعي وأنا أحمل قِدرا مملوءة بالماء محكمة الاغلاق لمدة عشر دقائق رغم أني كنت ارتدي حذاء الباليه فسقطت بعد برهة والتوت رجلي، افترشت تنورتي المنفوشة على الأرض ومددت عنقي إلى رجلي انتحب، كنتُ أنظر اليه معاتبةً أنّ هذا التمرين أكبر من طاقتي، لكنه كان كالصخر الجامد لم يتفاعل معي ولم يعرْ سقطتي اهميةً تُذكر، بل أمرني بحمل الإناء مرة أخرى وأقف على رجلي...

رنَّ صوت التقبيل في أذني أعادني إلى الواقع، كانت أمي بقربي تبكي وتنتظر أنْ أستيقظ، أخبرتها أني بخير وقد أعادني مهندسٌ يدعى يوسف الجبل، شعرتُ أنّ أمي سُرّت بهذا الخبر وراحت تسألني عنه أسئلةً أكثر من الحدّ المقبول، صرختُ ضجرةً:

-أمي، ما بكِ! لا يهمني أمره...

- حسنا حبيبتي؟ هل أنتِ جائعة...

- لا

Telegram: electronic_library

درتُ وجهي والدموع تصبّ من عيوني، لا أعرف لماذا ما زلتُ أبكي، شكرت الانفجار في سري لأنه فجّرني، كنتُ أبكي بلا وجع، بلا ألم، بلا شعورٍ، لم يكن سوى نهرٍ مالحٍ جارٍ...

- فزارة! ما بكِ حبيبتي...

- أمي، هل تحبينني؟

- نعم حبيبتي، كيف تسألينني سؤالاً كهذا؟! أنتِ فرحتي الوحيدة...

- حمّميني...

- أحمّمك؟؟؟؟

- نعم، أرجوكِ يا أمي، هل تخجلين مني؟

ترددت أمي قليلا؛ لم تشأ أنْ تخبرني بأنها تخجل أنْ تراني.

- أمي أنا ابنتك، لماذا تخجلين مني؟ لقد كنتُ أسبح ببطنك، والآن سأسبح أمامك، ما الفرق...؟

- حسناً، سأساعدك بالدخول للحمام، انتظريني أجهز لكِ حماماً بارداً منعشاً... سأملأ الحوض بماءٍ باردٍ حتى تنتعشي.

على الرغم من أنّ حمامنا أشبه بغرفة لم يكتمل بناؤها إلّا أنّ أمي اعتنت به، جدرانه أسمنت رمادي ملطخ، وأرضيته كاشي قديم برتقالي وأبيض كان يستخدم في البيوت البغدادية القديمة... فيه مرآة كبيرة جداً يرى المرء فيه نفسه وهو يغتسل، ليس هناك أي مظاهر على مواكبة العصر، هناك قِدر نحاسية كبيرة استعنّا بها بدلاً عن حوض «النايلون» لأنّ أمي تعتقد أنها تحتفظ ببرودتها في الصيف ومن السهل وضعها فوق مدفأة بغية

Telegram: electronic_library

الحصول على ماءٍ حارٍ، أمام القِدر «تختة» دكة حجر صغيرة وثقيلة حتى تتحمل وزن أبي المضاعف... هناك ستارة مطرزة بزهور هادئة على نافذة الحمام التي تطلُّ على منورِ الجار، فرش أسنان وصوابين وشامبو للشعر الدهني لم يكن أبي الأقرع يستخدمها.

دخلتُ الحمام ملفوفةً بمنشفة إياس بلونيّ الأزرق والاسود، تجردتُ من المنشفة التي تكورتْ تحت قدمي، أرى الآن نفسي بوضوح، آثار الكدمات، الخوف والهلع الذي بداخلي، لقد أهداني إياس هذه المنشفة في عيد المرأة كان يزعم أنّ النساء تحب الهدايا التي تلامس روحها بالحب، هدايا تحسسها أنّها أنثى جميلة وتغرز فيها الأمان، وغير ذلك أخبرني أنه كان يتمنى الالتفاف بي إلى الابد.

بادلته الهدية فكنتُ أريده أنْ يحتفظ بقطعةٍ منّي...سرقتُ نفسي وذهبت إلى سوق الكاظمية حيث الصاغة، تعمقت في أزقتها الجميلة المزينة بالنكهة البغدادية العتيقة وأرضياتها التي يشقها المجرى بدلع...توقفت عند صائغ الفضة الذي تبارى كيف يعرض بضاعته أمامي، أراني الخواتم والأحجار وشرح لي معنى كلّ حجر، أعجبني حجر عين الهر الذي يستخدم للسكينة والاطمئنان كنتُ أفكر باقتنائهِ لنفسي عله يبعد القلق المستمر عندي، ثم أراني مجموعة من أوسمة سيف الإمام علي وأخبرني بأن النسوة عادة ما يشترينَه لأزواجهن! وهناك مجموعة من الأدعية والآيات القرآنية للحفظ، طلبتْ أنْ أجلس وأفكر قليلاً حتى أعرف ما الذي اختاره... ثم أخبرته بأني أريد شيئاً مختلفاً، أريد أنْ أرى السبائك الصغيرة، ففرش لي مجموعة سبائكَ رشيقة، سألته إنْ أمكن أنْ ينقش لي عليها؟ أجاب مسرعاً: نعم... فطلبت منه أنْ يكتب «تفرق كثيرا أنْ أحبك إلى الأبد أو إلى آخر يومٍ في حياتي» نظر إليّ مندهشاً:

Telegram: electronic_library

- هل انتِ شاعرة؟

- لا، انا عاشقة

- عادة ما يكتب الشعراء ابياتهم على السبائك ...لكنّ هذه الومضة أثارتْ إعجابي.

- إنها ليست سوى المشاعر الصادقة

-انتظري ربع ساعة وستكون جاهزة

اتصلتُ بك بعد أنْ عدتُ وافتعلتُ مشكلة، كنتُ أتمرد عليك وأروّج للدلع بتعمد، طلبتُ منك أنْ نلتقي فوراً إذا كنت تريد أنْ أسامحك، في مكاننا الوحيد، قرب تلك الدكة التي شهدت انفعالاتنا وضحكنا وحزننا ومعاناتنا، تعذرتَ بعملك وكنتُ مصرّة فأتيتَ راكضاً خوفاً من الزعل، أما أنا فقد ذهبت قبلك أتبارك بمكانك وأحسن من تغذية روحي، جلستُ انتظرك وأتأمل حياتي معك ظهرتَ لي بوجهك الأسمر السمح وبعينيك اشتياق معتاد متزايد... أطلقت عليك أمري:

- أجلس

- جلست

- قبّل يدي...

مددتُ يدي اليك وضحكت، خجلت منك، سحبتها فسحبتها مني وقبلتها برقة... اعترت قلبي غصة سعادة فوضعت رأسي على كتفك، أغمضت عيني ورحت أرسم على باطن كفّك بأصابعي، أخذت نفساً عميقاً ثم زفرتُ غصتي:

- أحبكَ

Telegram: electronic_library

- أحبكِ

- توعدني؟

- بكلّ شيء....

- أغمض عينيك حتى أطلب أن تفتحهما.

- حاضر

أخرجتُ السلسال وسبيكته... ووضعته في كفك وأغلقتها...

- افتح عينيك...

تفحّصتَ السبيكة ورحت تقرأ ما مكتوب بها أغمضت عينيك وفتحتها وانت تنظر إليّ، تلألأتْ عيناك واحمرّتا...صمتَ وصمتَ كثيراً، كنتُ انتظر أنْ تقولَ لي شيئاً، لكنك جابهتني بصمتٍ بلاغي وأخذت تنظر إلى عيني، أنفي، شعري، شفتيّ عاجزاً عن الإفصاح

- لا أعرف ماذا أقول، خائفٌ جداً

-خائف؟

- أنتِ امرأة لن تتكرر في حياتي... أحب عفويتك الممزوجة بالطفولة وعنادك الممزوج بقوة شخصيتك، أحبك عندما تهربين إليّ كمجرمة بريئة وعندما تهربين مني كعاشقة منهكة.

- لماذا تخاف؟

- أخاف من ظرفٍ يفرّقنا، حينها فقط، ستقتلني الأيام.

- لماذا تقول هكذا؟ نحن معا إلى الأبد ولن نفترق ولا أقبل بهذه الفكرة مطلقاً

Telegram: electronic_library

-فزارة أنا معكِ أخاف على حياتي، اصبحت أخشى من الواجبات الحربية التي أُرسل في تغطيتها، أريد العيش معك وأخاف أنْ يخطفني الموت، عندما دخلتُ مدرسة الكوماندوز قبل سنين مارستُ تدريباً لأسبوعٍ واحد، مكثف اسمه «سيلكشن» أي اختيار، حصلتُ على ميدالية كهذه واستبدل اسمي برقم واحد وثلاثين، كان تدريباً صعباً جداً يعمل على قتل النفسية، فهو جملة مكثفة من الإهانات والتمارين الجسدية العنيفة، كنتُ أستطيع الاستسلام بأيّةِ لحظة وأخلع الرقم وأعود إلى البيت، لكني شعرتُ بالضياع في بداية عمري لا اعرف ما الذي اريده بالتحديد، احيانا كنت أحب ان اصيرَ رجل دين يتبعني الناس، امكث في البيت بين الكتب والسجادة، واحيانا كنت اريد ان اصير عازفا يرتدي اساورَ سوداء يجوب الارض بأنغامه، لم أكن اعرف ما الذي اريده، اريد ان ارضي الله، واريد ان ارضي حبي للموسيقى، أقلعت عنهما وهرعت الى العسكرية التي كان ستضع حدا لهذا الصراع داخلي، أذكر أول مرة جربت تدريب الإنزال من الطائرة بارتفاع ما يقارب السبع أمتار، كنتُ ثاني رقم، لابُد أنْ ينفذ، نظرتُ إلى الأسفل وشعرتُ بالرهبة والدوران ابتعدت وقلتُ لا أستطيع ثم أني فكرت بينما كانت الأرقام الأخرى تنزل، أنا ضائع بلا هدف ولا مستقبل، لا يخيفني الموت، أنا تكملة عدد سكاني... اقتربت من الباب وأمسكتُ بالحبل بثقة ونزلتُ بهدوء... ومرة فقدت أعصابي لأني كنتُ مستيقظاً عندما رعدَ صوتٌ في القاعة « انهض» فجاءني المدرب وسكب ماءً بارداً بوجهي! شعرتُ أنها إهانة كبيرة بحقي! وللحظة ما قررتُ أنْ أخلع رقمي لكني تراجعت وأصرت على إكمال التدريب تحت أي ظرف آخر...

Telegram: electronic_library

الآن يراودني شعور يناقض ذاك الشعور، أنا متمسك جداً بالحياة، من مقاتل متخفٍ إلى صحفيٍّ حربيٍّ، مللتُ الحروب وأسلحتها، أبحث عن راية بيضاء وهدنة مفتوحة، بيت ومدفأة وسرير مريح وأنتِ...

-إياس هل تؤمن بي؟

-أؤمن بك....

- هل تتبعني إذا اقترحت لك تعاليم جديدة؟

- بلا تردّد

- احفظ هذه الآية التي على الميدالية فهي مقدسة لأني كتبتها بصدق، ستحفظك من كل مكروه وستطوف روحي حولك حيثما حللت لتحميك من أي شرٍّ يتربّص بك... إنه حرزي وأنا الآن أضعه حول رقبتك.

Telegram: electronic_library

- ٦ -

دخلت امي الى الحمام بعدي وجلست أنا على «التختة»... سكبتْ ماءً بارداً على شعري الطويل وراحت تغلغل الماء في شعري عابثة بأصابعها، احتضنتُ قدمي ووضعت رأسي بينهما شعرتُ بأني أتطهر من الخطايا بطقس دينيّ خاص صارت أمي فيه المرء المقدس، كانت كل أحزاني ومتاعبي وذنوبي تنسكب مع الماء وتجري بعيداً عني، لم أُوقف البكاء، أنا الصائمة عن دموعي دهراً، انغمرت مع المياه المتدفقة من أعلى رأسي، لم تعرف أمي أني كنتُ أبكي ولأنها خجولة حاولت جهد الإمكان أن لا تنظر إليَّ، ظلّلت رغوة الصابون جسدي بالبياض فشعرتُ أنّ الله في هذه اللحظة تقبل تطهيري، فاحت رائحة الشامبو من شعري، كانت مكانات الكدمات تؤلمني عندما تضع أمي يديها عليها لكنها تهدأ أكثر عندما ينزلق الماء عليها بانسيابية... عُدت إلى المنشفة التي امتصّت كل قطرات الماء المتناثرة على جلدي، شعرتُ بقوة إياس تحتضنني، كأنه أزال عني قلقي، همست في قلبي « اشتقتُ اليك » عدتُ إلى فراشي وقرّرت أنْ أنام بمنشفتنا فقط...

مرّت عدة أيام وانا حبيسة البيت والاحلام، أترنح بين شرشف فراشي وأريكة جدّتي الخشبية العتيقة التي هرّبتها من بيتنا القديم، أحيانا أفتح الستائر صباحاً وأجلس على الارض أراقب كيف ينساب الضوء إلى الغرفة وتتراقص فيه الذرات، وأحيانا أتأمل المرآة وأتحدث مع نفسي، سجنتُ نفسي بقميص أبيض يصل حتى ركبتي، أقلعتُ عن تمشيط شعري وعن ارتداء أيَّ شيء يقبض على قدمي، كنت أريد

Telegram: electronic_library

أنْ أتحرر وأتحرر وأطير في الفضاء وأبتعد عن هذه البقعة الملعونة بعبث الانفجارات والحروب والانفلات القانوني، أنْ أهرب من ألوان الأزياء العسكرية، الأخضر والصحراوي والنيلي والأزرق، أبحث عن «بابيونة» وردية تزين عنقي بالحب.

أقفلت هاتفي وقطنتُ غرفتي وصِمت عن الطعام والحديث، أحيانا كنتُ أُبلّل ريقي بقطرات الماء حتى لا يجفَّ حلقي، كلما اقتربت من الطعام تذكرت الأشلاء المشوية أمامي في الانفجار وغناء الطفل باكيا بأذني...

الغرق في النوم لا يميت لأنه ممتلئ بالأوكسجين على عكس الغرق في الماء، أحيانا أشعر أني أعيش في عالمين ولا أعلم أيهما الحقيقي؟ لأنّ الحياة قصة متسلسلة الأحداث بالشخوص أنفسهم وما يقارب نصف الساعات حسب مدة الاستيقاظ واما العالم الآخر فهو عالم الأحلام، بقصص مختلفة وبالشخوص ذاتهم، تماما مثل مسلسلين، أحدهما مسلسل بقصة واحدة وحلقات متواصلة واسمه « الحياة» واخر مسلسل متواصل بقصص مختلفة في كل حلقة اسمه « الاحلام» ...

هذه المرة صوت ملائكي هادئ ناداني، كأنه صوت مريم العذراء هو الذي فتح النافذة وألبسني جناحَي ملاك أرسلهما لي، لم أعرف بدايةً كيف أحلق بهما، وقفت على النافذة ورميت نفسي فسحبتني قوة الأجنحة عالياً إلى السماء وبدأت تحلق بي لا أعلم أين، وصلت إلى صحراء... لقد كانت صحراء الأنبار الممتدة على طول البصر، هذه البيئة المحتقنة بالحروب التي لا تهدأ، رأيت إياس نائما في عجلة عسكرية مرتديا درعاً خاكيّاً وإحدى رجليه متدلية من باب العجلة، وقفتُ صوبه ونفخت بوجهه على مهل، فتح عينيه غير مصدق:

Telegram: electronic_library

-فزارة، كيف أتيتِ هنا؟

- مريم العذراء أرسلتني.

- ما هذه الأجنحة؟

-انها لأحدى الملائكة أرسلها لي، أين الجيش؟ أين الصحفيون؟ أين المعركة؟ لماذا أنتَ وحدك مع هذه العجلات؟

- موجودون.

- لا يوجد أحد....

مشينا أنا وإياس وتأكد أنه لا يوجد أحد، كأنه تفاجأ عندما علم أنه متروكٌ لوحده، خفتُ عليه وكعادتي أردت أنْ أحضنه لكني لم أفعل، تلبّدت السماء بالغيم واللون الأزرق وبدأت مريم العذراء ترنّم برقة...

-فزارة يا نصف ملاك، نصف إنسان عودي الآن إلى ذاك الزمان.

- اين اعود يا سيدة العالمين؟

- إلى حيث تعيشين.

- أريد أنْ آخذ إياس معي

- لا يمكن عزيزتي

- لماذا؟

- لأن هذه العجلة بيته...

استيقظت من حلمي حزينة، حاولت أنْ اقرأ ما بين سطور الحلم وخشيت أنْ يكون تفسيره أنْ لا أعود لإياس مرة أخرى.

Telegram: electronic_library

أنا المتورّطة الوحيدة بغسيل قلبي، ضخخت لسوق حياتي عُملة حب لا يتداولها سواي، صدقاً انا الراعي الذهبي لخيبتي، وأنا المواسي الالماسي لمأساتي، لا فرار من قصاص الحب عندما يتحول لقضية جنائية في محكمة الحياة.

لم يكن خلقك سهلاً في حياتي وأنا لا أملك عجينة بشرية كعجينة الله في خلقه! جاهدتُ كثيراً بالحصول عليك، وقفت صوب الأبواب والنوافذ أتأمل إمكانية نفادك كنجمٍ هارب،، فتشتُ عنك في الشوارع وفوق المسطحات المائية المزينة ببقايا الشجر وعلى الطاولات الجافة والندية والمملوءة بالضجر في المطاعم المهجورة والمكتظة بأجناس البشر، بكل مكان فتشت عنك وتركت لك رسالة موقعة بالانتظار، كنتُ أبحث عن صورة نادرة لرجل شتاء بقلبٍ دافئ، بقبعة اليوشنكا الروسية ورداء عربي بارد، كنتُ أنتظر رجلاً يدخل كما العاصفة في حياتي، فأصير منطقة مطيعة، يهزّ كل الثوابت، يُحدث فوضى في ممتلكاتي ويعيد ترتيبها وفق جدول عبثي، يقلعني من هدوئي، من اتزاني.

كنتَ كرجلٍ رمزيّ، مقيم شرعي في الكتب، لم تكن سوى خيال! لم أصدق أني سأجدك يوما ما وستلجأ الي بلدي المنكوب مهاجراً خارقاً للحدود الدولية.

قررتُ اليوم أنْ أخرج من قوقعتي، أنا مشتاقة لأنا، وافتقدني، أفتقد إطلالاتي الأنثوية الممزوجة ببراءة الاطفال، لابُد أنْ أخرج من كهف نياندرتال هذا، وآخذ أجازة من أريكة جدتي المحتفظة بها، لابُد أنْ أعتذر لرطوبة السقف وشخابيطي على الجدران وأخرج إلى فضاءٍ يلعب به نفَسي مرحا... يصادف اليوم بحسب الفيس بوك تجمع مدني كبير على أبي نواس كنتُ قد دُعيت اليه من أحد الأصدقاء، تُقدم فيه مجموعة أنشطة شبابية.

Telegram: electronic_library

عادت الأنشطة الشبابية بعد صراع طويل مع الخوف والذعر اللذين تخللتهما كمية مكثفة من القتل في بغداد التي انطفأ عبيرها قبل سنوات، وأصاب التوحد أسواقها ونواديها وحدائقها وشوارعها، موجة حنين وتعب اجتاحت الناس، غضب من الرفض أصاب الشباب على غفلة أعادهم لنفخ الحياة من جديد، تحدّوا الخوف وبدأوا بعمل مناسبات صغيرة بسيطة للغناء والرسم والنحت والموسيقى....وغيرها، استقطبت هذه المناسبات مواطنا منهكا مثلي من معزوفة الانفجارات، مللا من رؤية الحواجز الكونكريتية وسقوف السيطرات وأجهزتها البلاستيكية، يائسا من بكاء الأخبار وعويلها على الجثث المجهولة والمغدورة والمتفسخة، كانت هذه المناسبات الصغيرة، التي اصبحت كبيرة وكثيرة لاحقا، بمثابة قبلة الحياة التي أعادت النبض لأحياء العاصمة وجعلتها تستفرغ محتويات الموت.

قررت نفض كآبتي، خلعتُ ردائي الأبيض وارتديت فستاناً قمحيّاً بناتيّاً، يضيق عند الصدر وينبسط بقماشه الناعم عند الخصر، يصل خجولا إلى ركبتي، لبستُ حذاءً ورديّاً تيمناً بأحذية الباليه، ضربات من لون الخوخ وحمرة رقيقة تعيد لوجهي اشراقهُ، أحببت أنْ أرتدي طوقاً من الأزهار وهو عمل يدوي بهذه المناسبة لصديقتي تارة النشيطة التي تشترك بأعمالها اليدوية عادة في البازارات النسوية الموسمية والسنوية، وضعته على رأسي، فردت شعري وتركته للهواء خليلاً... خرجت من غرفتي المغمومة كأنني ابنة الاربعةِ عشرَ ربيعاً، رآني ابي، تفتحت عيناه، سُرَّ لمنظري وشعر بالارتياح لأني قررت استئناف حياتي، بادلته الاحساس

Telegram: electronic_library

خصوصاً وأنه بعد الحادث الذي تعرضت له اصبح ودوداً أكثر، هادئاً أكثر، لم يعد يشتم كثيراً أو اصبحت شتائمهُ أخلاقية أكثر...خرجت من الشقة وأغلقت الباب الذي دوّى صوته في العمارة، مررت من شقة مريم، كان والدها يصرخ بشدة ويتشاجر مع أم مريم، تنفست الصعداء أمام بابهم، ولم أستطع تحريك قدمي، سيضربها هذا المسخ المتوحش، تسلُخ جلد قلبي هذه الأحداث لأني أتذكر كيف كان أبي ينقض على أمي مفترساً وهي كطائر «الهوبش» مسالمة، يجرّها من شعرها الاسود الطويل بيديه البدينتين المتسختين ويقربها من وجهه ثم يتقيأ زفرة شتائمهِ، «أبي لا يُجيد شيئاً سوى الشتائم» يهددها بالخنق ويعمد على كتم أنفاسها لثواني ثم يدفع جسدها الواهن على الارض ويركلها بقدمه الثقيلة، لم يحصل، أنْ ضربها على وجهها لأنه يخاف أنْ تشتكي عليه عند الشرطة، ويعلم أنّ أمي الخجولة لن تخلع ملابسها لتُري أحداً كدماتها.

مرة كان عمري بين الثمانية والتسعة سنوات شعرتُ أنّ دمائي تغلي بكل جسدي لأنه كان يضرب أمي، هجمتُ عليه، عضَضْته من رقبته فانتشلني من فستاني وقذفني بقوة على الثلاجة، بكيت بشدة من ألم القذفة، وأكثر لأن أبي من قذفني، جُنت أمي وهي تحاول أنْ تقترب مني وتحملني وتتفقد ما الذي حصل لي، فركض وراءها وأوقعها على الأرض وركلها على ظهرها حتى لا تتحرك، قُمت من مكاني مواجهةً مرةً اخرى أنا الفأرة أمام غوريلا متوحش ثأرا لأمي، لكنها رفعت رأسها ومدت يدها لي تأمرني أنْ أبقى مكاني، كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها أمي تصرخ بكبرياء وهستيريا معاً أنْ لا أقترب

Telegram: electronic_library

منها وأنْ لا أدافع عنها، أعلم أنها خافت عليَّ من ضربة أخرى وفي الوقت نفسه يخدشها أنْ أدافع عنها وهي في وضعٍ مستضعف جداً، كانت أمي تتحمل من أجلي، لا أحد سيتعاطف مع أمي المطلقة التي أكلت أطناناً من الضرب الموجِع حينها، سيقولون إنها امرأة سيئة لأنها تركت بغلاً همجيّاً، لن يروا كم هم عديمو الشرف عندما ينافقون على أيّةِ امرأة ويتهمونها بأبشع اتهامات عندما تريد التحرر من بطش رجلٍ حيواني!

لن أسمح لهذا البغل أبو مريم أنْ يفسد يومي، لا أتحمل المزيد من ضغط الحزن على أعصابي، أنا مُجهدة نفسياً... عُدت إلى المنزل، سألني أبي ما الخطب؟ أخبرته بأني نسيت أغراضي، فتشت بين عدة أبي الكهربائية، التي لا يستخدمها، تناثر صوت تقليب العدة في الهواء فوجدت مقصّاً عريضاً، أظنه يفي بالغرض، خطوتُ مسرعةً أعبر الممر العابس ونزلت عبر السلالم المتكسرة إلى مدخل العمارة المعتم، كان صوت قطرات الماء يثير الذعر في قلبي، كلما وقفت هنا شعرتُ أنّ شبحاً يتربّص بي، على أيّةِ حال اقتربت من اللوح الكهربائي الذي يجمع قوابس الشقق ويوزع التيار لها، على كلّ قابس مكتوب اسم صاحب الشقة، أصابني القلق وأنا أبحث عن قابس شقة أبي مريم خوفًا من أنْ يراني أحد، اللعنة على قطرات الماء والرطوبة.

الطابق الاول...أبو هاني...أبو فزارة...، أبو مريم» ها هو، وجدته، حسناً أيها البغل، أظنك ستنشغل اليوم بعمل شاق تدر عليه أموالك أفضل من زجاجات العرق التي ملأتكَ قرفاً...

Telegram: electronic_library

قطعت أسلاك الكهرباء الموصلة لشقته، لا أعرف هل كانت التي تخص المولد أم الكهرباء الوطنية! واصلت قطع كل الأسلاك المتصلة بقابسه بسرعة، ثم ركضتُ مسرعةً نحو باب العمارة فارّةً بجريمتي، عدلتُ شعري وأنزلت فستاني قليلاً ومشيتُ على مهلٍ، خبأتُ المقصّ بحقيبتي وأخرجت مفتاح السيارة، نظرت إلى بالكون شقتهم وعلى وجهي ابتسامة ماكرة ...

أوّل ما وضعت قدمي في السيارة شعرتُ بارتجافة بسيطة، لكنّي تأقلمت فوراً، وضعتُ حزام الأمان، أخرجت مجموعة الأقراص وظهر أمامي ألبوم إليسا مرة أخرى! تباً! كم قرصاً اشتريتُ لها دون أنْ أعدّهم! هذه المرأة عرابة حبي لإياس فلتذهب للجحيم وتجر إياس معها بسلاسل جهنم، ليحترقوا بودٍّ معاً ... قذفت بالقرص مرة أخرى تشديداً على موقفي الحازم منها ومن دناءة رومنسيتها التي تبدد القسوة وتعيد الحنين بقلبي، اخترت مجموعة أغانٍ فرنسية لداليدا التي انتحرت لفراق حبيبها وجنينها، نعم أفضل هذا الخيار، السماع للغة لا أفهمها، أغانٍ لا أعرف عما تتحدث، انطلقت بهذا اليوم الصيفي الحار مع سيارتي وعلبة بيبسي منعشة تبكي من البرودة، اليوم سأبدأ من جديد وأُضيء هذه العتمة بالألوان، تبجحتُ بالشوارع، قدتُ كمستهترة بريئة، خالفت كل إشارات المرور وقوانينهم، تجاوزت إشارات التقاطع طوال الطريق وتمنيت أنْ يصير الأحمر ورديّاً، الأخضر أزرقَ، الأصفر أبيضَ...فجأة أصغيت إلى الموسيقى التي خطفتني، إنها مألوفة، رفعتُ صوت المسجل، شعرت أني أغرق من جديد، أو أنني حورية هاربة من البحر، عادت إلى قعرها، آه،، آه، أنا أذوب كالشمعة في حضرة احتراقي... اندمجَ صوتي بصوتها...

Telegram: electronic_library

أذكر أني اجتهدت في فترة ما بأن أتعلم اللغة الفرنسية، التحقت بالمعهد الفرنسي لبضعة أيام واخترت مجموعة أغانٍ أتعلم منها كانت «جي سوي ملاد» إحداها ثم أني تعلقت بالأغنية وجدانياً فرحتُ أبحث عن معناها، كانت تعني في هذا المقطع» أنا مريضة، مريضة كليّاً، هذا الحب سيقلتني، أما إذا استمر فأني سأموت وحدي مع نفسي قرب الراديو كطفلٍ أبله وانا استمع لصوتي وهو يغني»، أجهدتني هذه الأغنية، لا أريد أنْ أعود لهذا الاستنزاف ، أدمر فؤادي، أيعقل أنْ أموت لوحدي قرب المرآة إذا استمرّ هذا الحب، داليدا ارجوكِ الحقي بإليسا وإياس إلى الجحيم.

Telegram: electronic_library

- ٧ -

وصلت إلى حدائق أبي نواس التي يفضلها الشباب عادة لإقامة نشاطاتهم لأنها مفتوحة وكبيرة وتتنفس اخضرار الطبيعة وزرقتها، يبدو أني وصلت بعد الموعد، كعادتي متأخرة دوماً، فأنا ولدت بعد أنْ توقفتْ الحرب العراقية بعامين، لم أذق لذة انتهاء الحروب وفرحتها، ولم أشاهد عيد « الرشاش» الذي يتحدث عنه الأكبر مني كلما اجتمعوا، وهو احتفالية رشق الناس لبعضهم بالماء تيمناً بالخير والسلام، تقول أمي: عندما أُعلن عن توقف الحرب ، في ذاك الوقت خرج العراقيون من أغلفة الارتقاب وروتين الدمار في أخبار الحرب لمدة ثماني سنوات إلى الشوارع محتفلين، تزاحمت الدنيا بصوت الأعيرة النارية ابتهالاً وبالألعاب المائية، ذاقت الكرادة والمنصور ألذ طبق سعادة لم تذقه من قبل، وتضيف أمي التي رقصت مع أبي إلى الصباح فرحاً إنها شعرت في هذه اللحظة فقط أنّ روح أخيها الشهيد ابتسمت بانتهاء الحرب رغم طول قامة الاشتياق ...هكذا أنا متأخرة عن الحرب، متأخرة بالانبثاق برحم أمي التي انتظرتني اربع سنين، متأخرة عن الدراسة سنةً لأن أبي طرد أمي وعادت إلى منزل أهلها، متأخرة الوصول إلى محاضرات الكلية، الى عيادات الأسنان، إلى المواعيد المهمة، حتى الحب جاءني متأخرا بعد ان أقفلت باب قلبي لأني لم احظَ بحبيبٍ في الكلية فشعرت بخيبة كبيرة.

أنْ تأتي متأخراً خيرٌ من أنْ لا تأتي، وقفت في آخر الزحام البشري الذي بدأ باستهلاك الأوكسجين المتوفر في هذه البقعة، جلس البعض ووقف الآخر مثلي

Telegram: electronic_library

ينصت لمجموعة شباب عازفين كوّنوا فرقة للعزف الصوفي اسمها «فرقة حلم»، العزف الصوفي عزف كلاسيكي مختلف لا يدعو للطرب والسلطنة بل لتحفيز حالة الإنسان الوجدانية والروحانية حيث يتجلى العازف من خلال آلته الموسيقية بإحساس صادق يتدفق على الأوتار فتخرج المقطوعات من الروح، أنا مدمنة على سماعهم لأنهم ينقلونني وأنا واعية من عالم الحياة إلى عالم الأحلام الذي لطالما ظننته حقيقيا، أنا لا اشعر سوى أني معهم في فرقتهم، أنا راقصة باليه صوفية بحذاء وردي أرقص عكس التيار الدموي، متى ما أضرمت موسيقاهم النار بروحي رقصت رقصة الشمس حيث ادور وحدي حول نفسي...انسابت مقطوعة « ائتلاف» « ليت لي منك ائتلاف ... كائتلاف النغمات»، راحت الموسيقى تملأُ الحيز بالألم والأمل والحب، لم أستطع منع نفسي من الرقص، أغمضت عينيّ وغبت في حالة وجدانية نقية تبحث عن السلام والحب وتتقرب الى الله عبر انفصال النفس عن الجسد، بدأت أدور ويدور معي فستاني القمحي، شعرت أن رئتيّ كبيرتان جداً وممتلئتان بالهواء والأمان، خطفتني ذراع صلبة من هذياني أعادتني إلى الواقع، كأنها جذبتني من السماء وأسقطتني على الأرض! استدرت وفتحت عيني، اتسع بؤبؤاي! تصلبت شراييني وعصفت درجات حرارية مفاجئة تحت السالب بدمي أحالته أنهاراً متجمدة رغم اشتعال الصيف البغدادي! دق قلبي مسرعا كأن جيشا إغريقيّاً يلاحقني! لا يمكن، لا يمكن!!! إنه إياس! توقف الكون والعزف ودخلنا بتوقيت استثنائي معطل، صمتَ عاث بالكلام خراباً، شوقٌ قتل الكبرياء بسكين الحب، عطشٌ هتك بحيرات الارتواء، تذكرت « ولتعلم أن العشق صامت تماماً...

Telegram: electronic_library

وأنه لا يوجد كلمات يمكنها وصفه»، اقترب من أذني، سلبني من عقلي ككل مرة برائحة جلده التي أحب، كنت أقول له دائما» لا تضع عطراً، أحب رائحة جلدك خالصة لأنها تبحر بي في محيط جسدك « نطق بصوتٍ مبحوح وأخيراً:

- ما الذي تفعلينه؟

أجبت بعفوية الأطفال:

- أرقص

سرتْ طاقة من الغضب والاشتياق في جسده، فكشفت عن العصب القابع على يمين جبينه، تنفس الصعداء وجذبني بقوة من يدي، كانت قبضة يده محكمة على كفي الرقيق، أوجعتني شراييني التي كانت تريد القفز من ألم، الناس منشغلون بالإنصات الى صدق الموسيقى وهي تحمّم الأرواح من دنس الدنيا وذنوبها، أما أنا فكنت أريد أنْ أصرخ من الضغط على رسغي وأحاول تحرير نفسي من قبضة إياس وهو يجرّني...

- توقف ما بك، اين تأخذني، اتركني وشأني...

لكنه كان قاسيَ الملامح، حادّاً، غامضاً كعادته اللعينة، حارس الصمت الشخصي... أخذني إلى الشارع العام، وظل يجرّني، بدأت قدماي ترقصان باليه مرة اخرى، الآن عادت الهرمونية بالمشي، أقدامنا معا تكوّن فرقة من العزف والرقص على أيّ إسفلت نمر عليه، دخلت في طقسٍ صوفيّ معه، هذه المرة، رقصٌ ثنائي، يسمى الرقص حول الكوكب، شعرتُ أني أرقص حوله وأنّ حذائي يطبع قُبلاً شفافةً على الأرض ويدخل معها باندماج تعبيري، حاولت

Telegram: electronic_library

أنْ أحتفظ بروحي في جسدي لكنها بدأت تهرب مني لمعانقة روح إياس، كنتُ أنظر إليه بينما كان يجرّني، ملامحه متّجهة صوب منطقة يعرفها وثابتة على مكانٍ واحد، وشى إليَّ احساسي أنّنا ذاهبانِ إلى تلك الدكة، هناك سنقيم طقوس عزاء على الأيام التي ماتت في غيابنا عاد نبض قلبي يهرول وأعصابي تُشحن بالتوتر....

-إياس، ابتعد عني

بدأ بالصراخ كأنه هارب من مستشفى الأمراض العقلية...

-ابتعد! ابتعدت، وماذا الآن ماذا؟ ابتعدتُ وابتعدتْ عن حياتي، أنا دونك رجلٌ بلا أيام، بلا عداد زمني أخرق، نضبت بطارية ساعتي، لم يعد الوقت يجري، أنا معطل منذ أنْ تلاشينا آخر مرة.

-أنتَ اخترت

-اخترت الانهيار على أنْ أبقى متصدّعاً تحت رحمتك

- ولماذا كان عليك أنْ تنتظر حتى تراني اليوم

- لأني اخترت الصمت، قتيل واحد أفضل من قتيلين

- قتيل واحد والثاني يتعذب لأنه لم يمت هو الآخر

- عيشي أنتِ ودعيني لبؤسي

نظرت إليه بحقد هذه المرة كيف يتجرّأ على طلب الابتعاد عنه مرة أخرى، بكل قسوة، انفجرت بوجهه:

- أنا أكرهك يا إياس، أكرهك، لابُد لهذه القصة أنْ تنتهي

Telegram: electronic_library

قمتُ من الدكة وكلّي انكسار وغضب قررتُ أنْ أتركه إلى الأبد وأمزّق صورة العاشق الذي أمامي، لن يتغير، سيبقى غامضاً، يفكّر لوحده، يقرر لوحده، ينفذ لوحده... مشيتُ نحو مخرج الحديقة مسرعةً جذبني مرة أخرى بكلّ قوته، ضمّني إليه بكل حرقة، تفاجأت من هول وصدق اللحظة، دفن رأسه في شعري كأنّه يبحث عن عتمة يختبئ بها، لفحتني رائحة جلده، شربت الحنين كأنه خمر مطيع، ثملته على الفور واتكأتُ على صدره متعبة، المسافة بيننا الآن صفر المسافة بيننا الآن الف مرة من الذهاب والإياب الى الشمس لأن البعد الذي حصل بيننا لا يمكن تجاهله... لا أذكر، ربما غفوت بين ذراعه لقد كانت لحظات مرت بسرعةٍ خاطفةٍ، ثم أني ابتعدت عنه كأنني صحوت

- لا يمكن أنْ تتلاعب بي هكذا؟ ليس لك الحق بأن تميتني ثم تحييني، ليس لك الحق بأنْ ترميني للنسيان فأظلّ كالسمكة المتخبّطة على رمل البحر ثم تعيدني للذاكرة فأصير كالفراشة الملوّنة، لا يحقّ لك أنْ تُطعمني ثم تتركني كطير جائع تنتظر البواشق موته حتى تأكله، لا يحق لك إلّا أنْ تتعامل معي كإنسان، لا يحق لك مطلقاً أنْ تتلاعب بعقارب ساعتي وعداداتها، إنْ كانت ساعتك قد نفدت بطاريتها فاعلم أنها ضاعت مني.

-اهدئي فزارة، اهدئي.

- هدأت، وصمتّ، وابتعدت، وفعلت كلما أردته مني ما الذي تريده بعد؟!

- أريدك انتِ.

-خذلتني.

- خذلني ظرفي

Telegram: electronic_library

-إياس كفاك نكراناً...أنا أعلم لماذا تركتني، أعلم تماماً أنكَ تحبّني، لكنك عاشق جبان، الحب للشجعاء.

-هذه هي مشكلتكِ، أنتِ لحوحة، نكدية، خيالية متأثرة بسخافات الروايات والكتب، أنا لستُ شخصية روائية تشكلينني على وفق أهوائك...

- أحقاً؟ هل سيقبل أهلك انْ تتزوج امرأةً متحررة؟ تحب رقص الباليه بتنانير الصوفية! غير محجبة؟ من طائفة أخرى؟ امرأة تعمل وتحدث زملاءها في العمل؟ هل تتنازل عن العيش مع أهلك من أجلي، هل ستترك حيّكم المتحفظ الذي لا تمشي فيه امرأة برأسها.

- أنتِ هكذا تسألين ثم تجيبين بدلاً عني

- أجبني حتى لا أكون الناطق عنك....

- أستطيع أنْ أترك الحي، أستطيع أنْ أتزوج دون رغبة أهلي، لا أستطيع أنْ أكذب عليكِ، أهلي أناس متحفظون لن يتغيروا ولا أستطيع الضغط عليهم... ولا أعلم إلى أيّ حدّ قد يؤلم الموضوع أمي التي تنتظر متدينة مثلها ومن طائفتها؟

-هذه سخافة

- هذه قناعة لابد أنْ تحترميها مثلما تطالبينني باحترام تحررك

- ما معنى متدينة؟

- عفوا؟

- أجبني ما معنى متدينة؟

- أن تواظب على عبادة الله، أنْ تصلّي وتصوم وتقرأ القرآن وتلبس الحجاب.

Telegram: electronic_library

- الله يمكث في القلوب الطاهرة، فإن أردت قربه ورضاه واظب على تنقية قلبك، لا تكذب، لا تغش، لا تأكل مال أحد، لا تقتل، لا تغتب، لا تقف بطريق أحد... وأمك تقف بطريقي وتعتم عليّ مستقبلي برضاها، فهل أمك متدينة؟

- فزارة، فلندع الموضوع الآن؟

- هل تعلم أمك أنّ دين الله دينُ المحبة؟ وأنّ الله ليس له طائفة لأنه يملك الكرة الأرضية ومن عليها، فكيف تظن أنّ الله يفضل فئة على فئة هو خلقها؟ إنّ أمك تناقض مفهوم الله الرحيم العادل وتتهمه دون أنْ تدري بأنه متحيّز ومفرّق لأنه لا يرى إلّا الأحقية بطائفتكم فهل أمك كافرة أم متدينة؟

-تبّاً.... كفى

- وأعود إليكَ، وتفرّ مني بعد حين لأنك ستجد نفسك أعدتني للتوقيف، لا تطلق سراحي ولا تحكمني بالفراق الابدي.

- لا أعرف شيئاً، أنا ضالٌّ مثلك، أريدك وآلاف الكيلومصدّات بيننا.

- أتدري، أنا أشفق عليك، على ضلالك الذي أضلك وأضلني، أشعر أنك ابني، حبلتُ بك بكل اشتياق، بثقتْك الصدفةُ في رحم قلبي، غذيتك بأحاسيسي، كبرت مع نبضي، لفظتك إلى حياتي بكل براءة، لم تكن حملاً سهلاً، قاسيتُ كثيراً، انتظرت كثيراً، تحملتُ غموضك، كذبك، غيابك، وضعتُ شيئاً واحداً أمامي وهو عيناك لحظة الولادة وصدق مشاعرك، أما الآن فقد بدأت أشفق على صدق مشاعري لأن خصمها ضعيف، وأنت تعرف يا إياس كيف يجرح المقاتل في ساحة القتال، أنْ يكون امام خصم ضعيف.

Telegram: electronic_library

- ما الذي تريدينه!

- اهدني النسيان نعمة كاملة... لا أريد أنْ اظلّ فراشةً ترقص في كفن.

ارتفع منسوب الاحتقان في قلبي ففاضت عيوني بالمياه المالحة، أنا أبكي على ابني الكبير وأتألم لتعاسته، رميتُ نفسي كزهر النرد في طاولته

أتدافع مع أقراص مشاكلنا...

لم يكن إياس طويلاً لكنه بالنسبة لي يبدو شاهقاً، شجرة برتقال عطوفة، وارفة الظلّ أما أنا فقد كنت شجرة الليمون الحساسة التي لا تنمو إلّا تحت ظلال البرتقال.

عدت الى غرفتي أنا رهينة الاحتباسين: الحراري والطائفي

Telegram: electronic_library

- ٨ -

طلب مني إياس أنْ أعيده إلى منزل أحمد وتارة، أنا المتمرّدة بهدوء وشقاوة لم استطع يوماً أنْ أرفض لإياس طلباً سوى فكرة إجباري على لبس الحجاب حتى يتقبلني أهله نوعاً ما زوجةً له، لقد كنتُ معه دائماً كطائر الفنجس الأبيض الناعم بمنقارٍ برتقالي رهيف، مسالمة وجميلة بهدوء ومطيعة، على الرغم من قرار انفصالنا وقطع هذه العلاقة لأنها فاقدة الأطراف إلّا إنه مازال يستطيع أن يأمرني بكل عفوية وفوقيّة كأيّ ضابط متمرس وما زلت أنا جنديّاً مسكيناً لا يملك إلّا أنْ يطيع بقلبٍ مكسورٍ، لا أريد توصيله، لا اريد ان تُملأ سيارتي مرة أخرى بضجيج أنفاسه ثم ينزل ولا يبقى لي سوى عطر هذه الأنفاس، خشيت انتهاء هذا اللقاء الذي بيننا، وإنْ كان لابد أن ينتهي، أخاف أنْ تقول مع السلامة وتغلق الباب فتركض وراءك روحي وأبقى جسداً فارغاً في السيارة، كلما كنا نلتقي ويفرض علينا التوقيت إنهاء الجلسة الروحانية التي بيننا، كنت أُعيد عليك مقطعاً لفيروز « كلما تلاقينا كأنا تلاقينا لأول مرة حبيبي، كلما تودعنا كأنا تودعنا لأخر مرة حبيبي» كلما كانت صفارة التوقيت تزعق الانتهاء كنت أحضنك بشدّة كأنني أحاول اقتحامك، أدس وجهي في رقبتك خائفة من مواجهة الوداع، أبحث عندك عن أيّة حماية تخلصني بها من غيابك...هل يحق لي الآن أنْ أحتضنك وأزفر الوداع وقرار انفصالنا؟

كنت أريد التخلص من إياس كما تخلصت من أقراص اليسا، هل أستطيع قذف إياس مثلها؟ نظرت إليه بعينين عاشقتين، مرغمتين وأشرت له فلنذهب.

Telegram: electronic_library

المشي مع الحبيب طقس رياضي منعش يعيد الأجهزة البشرية لوضعها الصحي الطبيعي، وصلنا إلى لهذا الموقف الذي أودعنا به السيارة مراراً حتى يعطينا هو رخصة المشي، عندما اقتربنا عبّأت يدي بين فراغات اصابع إياس حتى امتلأت بقبضته، شعرتُ بتيار كهربائي يسري من جسد إياس ويصب في جسدي، كانت قوة هائلة تلك التي تتحول إليّ بكلّ كرم منه، سنرى حارس الموقف الذي يتفحصني متحرشاً كلما رآني، توقف إياس أمامه وبدأ يتمعن به متحدياً، باعد ساقيه قليلا، ضغط على يدي وأعادني إلى الوراء كأنه يحتضنني، كانت ذراع إياس جبلاً فرحتُ أتفرج على المنظر من خلف جبله، بدا الحارس كأنه يفتعل انشغاله بدفتر الوصولات، لم يتحرك إياس وظل ملازما البقعة التي أضيئت بتلاقح أقدامنا، انتظر الحارسَ أنْ يرفع بصره، تلاقت أعينهما، قذف إياس مفتاح السيارة بوجهه، وزأر بثقة» أحضر السيارة»، لم يكن من الحارس المصفر إلّا أنْ يأخذ المفتاح مطيعاً ويفرّ إلى الموقف ويُحضر السيارة إلى الشارع العام مسلّماً إياه المفتاح دون أنْ ينظرَ إليه، أما أنا فقد كنت أشعر بنشوى انتصار خائبة، كنت أتمنى أنْ يحميني إلى الأبد، هذا الأبد الذي أفكر فيه دائماً، كنتُ أتحسر على هذا الموقف بأيّامي الوحيدة المقبلة، أخاف من جلد الوحدة ، تمنيت لو أجره فيلتفت إليّ وأصرخ بوجهه «أحبك، لنبق معا.... البقية تأتي» لكنني لم أفعل، لم أكن سوى صعلوكٍ جبانٍ يخطّط لكلّ شيء ويفشل في كل شيء.

جاءني أمر عسكريّ آخر، « أنا أسوق» أنا الجندي المسكين، لا يملك الا التنفيذ بدون نقاش، سلمته القيادة وانسحبت إلى جانبه وصلنا إلى بيت أحمد وتارة، ترجّل إياس من السيارة، ثم هرع يفتح باب الكراج، لماذا يفتح باب الكراج، أنا لن أدخل

Telegram: electronic_library

لرؤيتهما، لابُد أنْ أعود إلى البيت، صعد مرة أخرى وأدخل السيارة ونزل مرة أخرى وأغلق باب الكراج وأنا أسأله منفعلة:

-إياس ما الذي تفعله؟ لا أريد رؤية أحمد وتارة، أريد أن أعود

- إياس

-إياس

-إياس

لم يجبني بشيء وهو منشغل بغلق باب الكراج، هل اختطفني هذا المجنون؟ طأطأت رأسي حائرةً ماذا أفعل؟ هل أنزل وأفتح باب الكراج؟ هل أصرخ؟ أيعقل أنْ يتجمع الجيران حول الباب! سابقاً كان الناس يهبون للدفاع عن أيّ دخيل أو إنسان بحاجة للمساعدة عندما كان هناك سلطة للقانون.

أنا وحيدة وعائلتي أصابها التوحّد بعد الحرب حيث سجلوا أعلى درجات الهجرة والنزوح وتناثروا مثل قصاصات الأوراق على بلدان العالم ومحافظات العراق، ولم يبقَ سوانا في بغداد وبيت عمتي التي قطعت علاقتها بنا بسبب زوجها المترف المنحدر من عائلة غنية ارستقراطية تخجل من فقرنا ومن حقيقة سكننا في شقة مضطربة قد تسقط في لحظة ما وتدعس جرذان الطابق الارضي! يرفضون أنْ نزورهم لأننا نعيش في بيئة غير صحية ومجتمع فقير وليس لنا ملابس أنيقة نقابل بها الأمير زوج عمتي، فأبي لا يعرف كيف يضع الفوطة على قدميه ويأكل دون ان يُطعم قميصه! ولا يعلم كيف يتلاعب بالشوكة والسكين بخفة، وابي ذاته لا يعرف معنى تلك اللوحة الكبيرة المعلقة في صالة الاستقبال، الممتلئة باللونين الأحمر

والأزرق عنوانها « الانبثاق» أما أمي التي ترتدي الحجاب فليس لها لباس سوى العباءة الإسلامية السوداء! أمي وأبي هجرا الحياة وزهوها عندما حاولا أنْ يتمتعا بها وفشلا بالتعبير السليم فصار أبي ضحية قراراته المخطئة بالانكسارات الاقتصادية التي تعرض لها وصارت أمي الضحية التي يفجر أبي فشله بها، نحن عائلة مرفوضة مهجورة، لم نعد نحاول أنْ نعالج العلاقة ونغذيها، كافأنا عمّتي بالجفاف، هذا إذا كانت تهتم.

إذا صرخت الآن، لن يسعفني أحد، ستخاف الناس أنْ تتورط بعملية إنقاذ أنثى، ترجّلت وحاولت فتحَ الباب، لكن إياس جرني بقوة وأعادني إلى السيارة، كان الوقت قد تبدل، خلعت الدنيا رداءها الابيض وانزلقت في فستان أسود تزيّنه النجوم، بدا المنزل مهجوراً ومظلماً، لا يوجد أحد، وحده ضوء القمر الذي تسلل من نافذة السيارة وجلس في حضنينا يتجسس علينا، همس بأذني وأنا أصرخ «اهدئي» كان صوته عميقا جداً وصل الى قاع قلبي فسكت على الفور مطيعة، استدرت يمينا وأبعدت عيني عنه، أريد أنْ يذوب هذا الموقف الآن كذوبان الثلج على الجبل، ارحمني يا الله، أنا بقرب حبيبي الوحيد، الذي انفصلت عنه مؤخراً، جذب يدي بكل هدوء، استباح شعري ملامحه فخلَد وجهُه بين خصلاتي، همس مرة أخرى بقرب رقبتي « فزارة» فاستدار وجهي بحركة باليه رشيقة متناسبة مع موقع وجهه، البُعد بين شفاهنا سنتمترات معدودة كأن رساماً قد عدها من أجل لوحة سوريالية، تلاحمت عيوننا وهدأت بإعلان هدنة عهدت الى الفشل فوراً، انسكبت شفاهه على شقوق شفاهي وانصهرتا في قُبلة اشتياق طويلة، أظنني لم أكن أقبّل إياس، لقد كُنت

Telegram: electronic_library

أقبّل الحياة، خفت أنْ تنتهي هذه القبلة وتخضع للوداع والانتهاء هي الأخرى، لكني الآن أستطيع أنْ أمدّ هذه القبلة كسفرة كرم وسخاء وتبذير عربية لمدة ثلاثة أيام، بدأت أضعف وأضعف جداً حتى وهنت، شعرتُ بمرض ودوار في رأسي، همستُ في أذن إياس مستسلمة، « احضني» كأنه كان ينتظر أنْ أطلب منه، جذبني إليه بكلّ عنفوان، احتضنني فاشتعلنا وصرنا كشعلة نور بيدِ ضالٍّ في كهف عميق، قفزت إليه وأنا أحمل أشواقي وجرائمي الصغيرة ودموعي...طوقني بذراعيه العريضتين وهو يشمني ويزفر الانتظار كما لو انه بادله عند صيرفة التمني الى عملة الحضور...رحتُ أبكي دون وعيٍ منّي، تفاجأ جداً لأنه يعرفني صلبة المشاعر على الرغم من رقّتي، أطبق ذراعيه عليّ كأنه يحاول تصديق ما يحصل وحتى يطمئن أكثر، ثم ابعدني حتى يتأكد ان كنتُ فعلا ابكي...

- فزارة.... تبكين؟

انتحبت وتصاعد وتير بكائي، بلل الدموع وجنتي ولصقت بعض خصلات شعري على وجهي...

-آه، آه إياس، ابكي، أبكي كعطشانٍ استفرد ببركة حقيقية في الصحراء.

- لا تبكي حبيبتي، أرجوكِ لا تبكي.

أبعدت نفسي وصرخت بوجهه غاضبة وهو مازال ممسكا بيدي.

- اسكت، أرجوك اسكت، دعني أبكي، كفاك تميُت انفعالاتي، غضبي، حزني وتسلمني للكبت جثة مسالمة، البكاء راحة المؤمن، راحة المتطهرين، الي بشيء من بريستول عشقك، إلى بمرهم يطرّي تقيّح قلبي.

Telegram: electronic_library

-فزارة

-أحبكَ، سجّل اعترافي الغبي هذا، أضفه لقائمة هفواتي، أنا فنجس مستضعف، لا أملك سوى صوتي، البرد يميت الفناجس، احتلتني البرودة مذ وضعتَ تقويم هجرة جديدا وهاجرتَ إلى بُعدي...

- لن ابتعد مرة أخرى.

- لن أتحمل كذبك مرة أخرى.

- لم أكذب، خبأت، موهت، أخفيت حقائق عنكِ حتى لا أخضع لخسارة مميتة...

- كذبتَ يا إياس، أعلم أنك بين خيارين أحلاهما مر، لا، لن ترتاح ببعدي لن ترتاح بقربي، سنظل طائفين في فضاء اللا انتماء لواقعنا وغارقين في الانتماء لبعضنا... لن يرضى أهلك بنا، وهذا لا يُهمني، لكنه يهُمك لأنك نشأت في بيئة مترابطة، أواصرها قوية لا تستطيع الانفصال عنها، على عكسي أنا، عائلة صغيرة، بيئة مضطربة أواصر مفككة، انتمي لأمي، أمي فقط، كثيرا ما تمنيت أنْ أحمل اسم أمي فيصبح اسمي فزارة أمل، حتى اسمها مدعاة للحياة والتفاؤل والسرور، حاولت الانتماء إليكَ، طردتني من جنتك ثم أشفقت علي ففتحت لي نافذة وسمحت لي بالتفرج عليك، أتفرج عليك وأنت تدرّب الكوماندوز، وتعلّم المتطوعين القتال، تُخضعهم لتجارب قاسية حتى تميتَ أعصابهم، أتظنني لم أتأثر؟ تأثرت... أنا راقصة كوماندوز بأعصاب مستهلكة وقلب مستنزف...أعدني إلى نفسي، إليّ، أشتاقني، أفتقد الباليه...

Telegram: electronic_library

- أنتِ أوجه الجمال النادرة في الكوماندوز، في بيئة قاسية ووحشية وعنيفة قد لا نجد أيَّ مَعلم واحد جميل، لكنك أجمل ما فيّ أنا الكوماندوز

تشبهين شعلة النار المتراقصة بانسيابية وقوة، بطبقات الألوان متوهجة، وحدك في ساحة التدريب، الجميع يهابك ولا يقترب منك ويعلم فطريا ان العبث بالنار يحرق، لكنك احتويتني واحتضنتني بخليطٍ من البرد والدفء، لا يمكن أنْ أصف لكِ كيف غيّرت حياتي، وكيف تركتِ فتيل اشتعالك نوراً في قلبي...

أنا لم أكن أسمعه، ولا أصغي إليه، بل كنتُ أنصت؛ لأن انصاتي هو الاستغناء عن الأذن والاستعانة بسمّاعة القلب... رحتُ أتمعن قسماتِ وجهه الهادئة والمنفعلة وأصابعي تعبث بلحيته الأنيقة، خدّاه قطعتا كعكٍ خرجتا تواً من الفرن.

استرسل في كلماته الحارة ...

Telegram: electronic_library

- ٩ -

- أتدرين كنتُ أخبر رقم ٥٤ أننا علقنا في جهنم، أتظن أننا بعد الموت سنذهب إلى النار؟ هذه هي... تدريب لمدة ٢٢ ساعة متواصلة، رياضة وتدريبات عنيفة مكثفة بعضها يعتمد على عناصر الحياة الأربعة الماء والهواء والنار والتراب، نصف نائم نصف واعٍ لمدة ساعتين أهيم إلى الفراش بملابسي وذاك البوت المتصلب لأننا لابدّ أنْ نجهز خلال عشر ثوانٍ، انهالت عليّ كلُّ أنواع العقوبات كان ٥٤ يقول لي: ابحث عن شيء جميل هنا تتعهد أنْ تجتاز الدورة من أجله، لم يكن يجذبني شيء سوى تلك الشعلة المتوهجة، أصبحتُ زرادتشي الهوى دون أنْ أعي أقدّس النار وأنظر إليها كلما استطعت في محاولة لتطهير روحي من الضعف والخذلان، لم أكن أعرف أنّ ٥٤ عندما حثّني لإيجاد ما أتمسك به للاستمرارية كان يقصد أنْ أجدكِ، أنتِ هذه النار يا فزارة، كلما رأيتك تطهّرينني ببراءتك من هذه الوحشية التي اجتاحت حياتي...

أظننا كنّا نمدّ سُفرة دموعٍ ونأكل من انكساراتنا وتجاربنا ومن فشل محاولات التخلص من بعضنا البعض، يبدو أنّ إياس دعاني لعشاء حبّ في مطعم الذكريات، حائرة أنا، كلّ شيءٍ يدفعني إلى المشي دون أنْ أعود إليه فحياتي معه مستحيلة، وكلّ شيء يدفعني للبقاء دون تركه لأنّ حياتي معه جميلة... لم أكتفِ قط من عبق أنفاسه وهي تتناثر في وجهي، لم أشبع بعد من طعم احتضانه الممتع، أعرف أنّ الوداع يتربص بي لهذا قررت أنْ أتعامل بدناءةٍ معه، صرخت بوجه إياس كطفلٍ خذل بوعدٍ:

Telegram: electronic_library

- إياس!

- حبيبتي ...

- أين تارة واحمد؟ يبدو أنّ المنزل فارغ

- سافرا الى تركيا

- هجرة ؟!!

- لا، سفرة

- كيف دخلت إلى هنا؟

- أعطاني أحمد المفتاح، وأوصاني أنْ أعود لأصرخ وأنفعل كما يحلو لي في بيته، رفضت ثم أخبرني مازحاً ليس حباً بي؛ بل من أجل ان يبقى هناك نفسٌ في البيت...

- طيب، هل تستطيع أنْ تنزل مقعد السيارة إلى الخلف؟

- كيف يعني؟

- ابسطْه كما يبسطه سواق الطرق الخارجية، مستعينين به كفراش «ما فاز الا النوم» يا إياس.

نظر الي بعينين ماكرتين، أعاد المقعد إلى الوراء، بحثت بين الأقراص التي بدأت تنقص منها أقراص إليسا المغمومة، فتشت عن قرص بحيرة البجع رائعة تشايوفسكي، سأرقص باليه في بحيرة إياس، فررتُ من وحشة مقعدي إلى اكتناز مقعده، دخلتُ كفنجس في جيبه العسكري، جثوتُ في حضنه ووضعت رأسي تحت ذقنه، أنا الآن هاربة إلى رائحة جلده وعبقه، لاجئة إلى وطنه، وحدها حدود ذراعيه

Telegram: electronic_library

تحتويني، خبأت نفسي فيه، علّني أحصل على جنسيته قبل الإبعاد من أراضيه وأودع الوداع الواقف منتظراً، وهو يحمل ساعته ويحسب الدقائق والثواني حتى يلقي القبض عليّ ويسلّمني إلى العودة ، همست في أذن إياس:

- أريد أنْ أغفو مدة نصف ساعة فقط، نصف ساعة على باحة صدرك وبعدها فلتقمِ القيامة...

غصتُ في الراحة كأنني رضيع مسالم استفرد بالنوم بعد الشبع، لا أريد أنْ أصحو، تمنيت الآن

أن يضربني شلل دائمي يعيق حركتي فلا أبتعد عنه، تمنيت أنْ تقفَ عصابة على باب بيت أحمد وتارة وتسرق منزلها وتسرقنا معها، أعلم أنّ أبي وأمي سيبكيان عليّ، لكنهما سيبتسمان ويهدآن حين يعرفان أني سُرقت لسعادةٍ أنتظرها وما أقسى الانتظار، أنْ نعيشَ عمراً بارتقاب ما قد لا يأتي... أيقظني إياس بهدوء.

- فزارة... راقصتي الجميلة

نظرت إليه بعينين حزينتين، سيتخلى عني إذن، هذه هي الحقيقة، لن يستطيع الاحتفاظ بي أكثر، ستنتهي هذه السعادة القليلة المختلَسة، لابُد من تسليمي إلى الوداع، لا مفرّ من القانون، الجميع يبحث عني، الحياة والوقت والظروف، كم سيخبئني في باحته؟ ويتستّر على سارق بريء مثلي؟!

- سأعود اذن؟

- ليتك تبقين هذه الليلة معي... لكن لابُد أنْ تعودي

- جملتان، إحداهما لترضيني والأخرى اعتراف بالهزيمة

Telegram: electronic_library

- أيّةُ هزيمة؟

- نعم هزيمة، الوداع يقف منتظراً وقد هزمنا ولابد أنْ أعود الآن

- أريد الاحتفاظ بكِ كل العمر

- لمَ لا؟ ابق مع التمني، واعدني الآن إلى الواقع، إلى البيت، حقاً لا أقوى على السياقة، أشعر بوهنٍ برجليّ ... ارجوك.

Telegram: electronic_library

- ١٠ -

عدت إلى العمارة التي كانت تبدو كعجوزٍ جالسة بانتظاري تحسب ما تبقى من العمر وتقلّب دفتر الذكريات، جدرانها محتفظة بصدى أصوات الناس وبكائهم وضحكهم وصراخهم، ممراتها شاهد على التوابيت التي لفظتها الأبواب، شاهد على الولادات التي ابتلعتها الشقق... شعرت أنّ المدخل المعتم ضاقَ عليّ في محاولة منه لاحتضاني، لمواساتي بفقد إياس مني بهذه الطريقة الرومنسية، أردت الدخول إلى غرفتي وغلق الباب والانفصال عن العالم، ولكن أيّ باب أغلقه بعد إذْ خلعه أبي؟ أريد أنْ أدخل في خلوة أنقطع بها عن الحديث وأذكر اسم إياس بكثرة، حبّ البشر من حبّ الله، وأني قد أحببت احدى عباده فأن لفي ذاك وفاء لحب الخالق.

حملتُ الباب بجهد وتركته متّكأً على الأضلاع التي خُلع منها، هذه الليلة سأدخل في كيس حلمي وأعبئه بعطر، أريد أنْ أُترُكَ للوحدة حتى أفكر وأتخيل وأتقرب إلى نفسي...

تراقص الصباح على أكتاف الغسق ونزل بهدوء على الأرض، فتحت عينيّ وأنا خارجة تواً من حُلمٍ مع إياس، كنا في سيارتي الصغيرة في الكرادة وقد غرقنا لأن مياه الأمطار ارتفعت جداً وغطّت السيارة بارتفاعها ثلاث مرات، سيارتي في الحلم فيها نافذة سطحية فتحها إياس مسرعاً وأخرج رأسي منه كي أتنفس ... فتشت عن هاتفي، رسالة من إياس مفادها « اشتقتُ لك » ورسائل من دجتل آرت على الفيس بوك فيها الكثير من العتب لأني اقلعت منذ مدة عن مراسلته، ورسائل على

Telegram: electronic_library

برنامج التانگو! فتحت الرسائل، بهتُّ متفاجئة وأنا اقرأ اسم المرسل لم يكن غريبا مطلقا «يوسف الجبل» بالإنكليزية!! كيف عرف رقمي؟! دخلت على المعلومات الشخصية للمتصل، لكن لم يظهر رقم هاتفه... بقيتُ في حيرة من أمري...

كان يوسف قد كتب لي:

-أعتقد أني ما زلت انتظر مهاتفتك التي ما أتت، لا أجد نفسي الا سندبادا عائدا لبغداد دوما... هكذا أتردد عليها بين الحين والآخر أبحث في أزقة الكرادة عن ياسمينة، تذكرت الشارع الذي وصلنا إليه في ليلة صيفية مملوءة بالشظايا والخوف، قررت أنْ أقول لكِ: حمداً لله على السلامة.

أمام هذه الرسالة وجدتُ نفسي صامتة متفاجئة، ما زلت أجهل كيف حصل على رقمي هذا اليوسف، ما الذي يريده مني؟ وهل يقصدني بياسمينة، لن أتحمل مضايقة صبيانية في هذه المرحلة من عمري... تجاهلت هاتفي ورميته على أريكة جدتي، في أول فترة تعرفت فيها على إياس كان الهاتف لا يفارق يدي، ولا تنتهي الأخبار التي أنقلها لإياس، بحذافيرها وأصغر تفاصيلها، منذ أنْ افترقنا، أصبح الهاتف ممرضةً دنيئة تعمل في مستشفى ولادة حكومي، يفترض أنها ملاك رحمة، لكنها شيطان فتنة، لا تفكر سوى ببقشيش خدماتها.

لابُد أنْ أتصل بمؤيد الكريه، لا أعرف احداً سواه ليبيع سيارتي، أقساطها بدأت تُشل تفكيري، وتطلق فايروساتها الخبيثة، قدماي أرشق وأغنج، ستزيد متعتي بالمشي الراقص، ثم أني سأتخلص من إليسا تماماً، سأغني ما يحلو لي، فلا أجمل من مشغل الأغاني الذي تصدح به حنجرتي وتطرب له أذني، سأغني مثلا «يا عاقد

Telegram: electronic_library

الحاجبين، على الجبين اللجين» برغم أني من محبي فيروز، إلّا أني أحب سماعها من عفيفة اسكندر، أحب هذه الأغنية بصوتها

بعض الأشخاص على الرغم من مساعيهم لكسبنا إلا انهم لا يتفاعلون مع كيميائية معادلتنا، هكذا هي علاقتي بمؤيد، لا أطيقه، وهو لا يتردد بمساعدتي، أشفق عليه كثيرا وألوم نفسي وأوبخها لأنني لا أستطيع هضمه، إنه طيب لكنه يعجز عن إيصال انسانيته بطرق آمنة، فأجد نفسي مصابةً بحصبة التأفف والتثاؤب والملل وهو يخبرني عن بطولاته التي لا تعد ولا تحصى...

-ألو، كيف حالك؟

- فزارة، هذا يوم السعد، صوت عذب مشتاق لسماعه، كيف حالك، وكيف حال خالتي؟ أتمنى أنْ تكونا بخير...

- الحمد الله...

-أنا أتبضع حاليا، مدعواً على حفل عشاء في بيت أحد الدبلوماسيين، هل اشتري لكِ شيئاً؟

- شكراً لك

- كنا نتحدث عنكِ أمس في الشركة، الجميع يفتقدك، ومازال يتحدث عن جمالك الذي سلب عقل المدير...

- مؤيد أرجوك

- لا عليك، كيف حالك؟ هل وجدتِ عملًا؟ ما رأيك بالعمل في أحد المكاتب التابعة لأحد الدبلوماسيين أو السياسيين، المستثمرين؟

Telegram: electronic_library

-مؤيد أنا أتصل بك لأمرٍ آخر

-قولي قولي عزيزتي أنتِ تعلمين بأني أتمنى أنْ أقدم لك أيّ خدمة، هذا شرف يا فزارة

-الحقيقة أريد بيع سيارتي

-تبيعينها؟ حقا؟! لماذا؟!

- لأني لم أعد قادرة على دفع أقساطها

-فزارة، بربك؟ لا تدفعي أيّ قسط، أنا أؤمن ذلك، هيا انسي وتعالي لعشاء اليوم.

-مصرة على بيع سيارتي لأغراض سفر، إياس، آسفة أقصد مؤيد، أشكر موقفك لكن حقا

- سفر؟ هل ستسافرين يا فزارة؟ لماذا؟ من سيبقى في البلد إذا كانت الأغلبية تفكر في تركه؟

- العراق بلد كبير وسيظل يغذي بيئته بأرواح عراقية من مختلف الأديان والطوائف والأفكار والعقائد، فيه من يعمل بقوة لحفظ الأرواح وفيه من يعمل جاهداً لزهقها ...

- فزارة، لما لا نتغدى معا اليوم، أستطيع أنْ أساعدك كثيرا، اعتمدي عليّ، أعلم أنكِ مستاءة، أستطيع الشعور بذلك من خلال صوتك، هناك يأس لكن لا تيأسي يا عزيزتي ما دمت أنا معك، اتركي السفر واتركي السيارة ودعينا نجد لكِ عملاً تتخلصين به من وقتك الفائض.

Telegram: electronic_library

- شكرا، مؤيد لا أستطيع رؤيتك اليوم، لكنك ما زلت تستطيع مساعدتي بأن تتحدث مع أصدقائك في معارض بيع السيارات حتى تعرض سيارتي

- اتركي هذه الفكرة الآن، سأتصل بكِ لاحقا

يبدو أنْ اتصالي به لم يجدِ نفعاً، كانت فكرة سخيفة أنْ أهاتف مؤيداً فهو لن يساعدني بل سيستعرض عضلاته فقط، أشعر أنّ الحياة تدفع بجدرانها باتجاهي، ليتها تنهي هذه الحرب النفسية وتطبق الجدران وتخنقني وأنتهي...

اهتز هاتفي مرة اخرى، أنا دائما أُخرس أصوات أيّ جهاز هاتف ابتاعه ويصير خليلي، مذ اكتشفت لأول مرة هذه الخاصية وأنا استخدمها بشراهة، يبدو أني أعكس طباعي على هاتفي، أنا صامتة أكثر الأحيان قليلة الكلام كثيرة التفكير، وربما هكذا لابدّ أنْ يكون هاتفي، صامتاً وكثير الأسرار، فتحت الرسالة، إنها رسالة تانكو أخرى من يوسف

- أعتقد بأنكِ استيقظت الآن، والتانكو أعطاني تنبيهاً بأنكِ قرأتِ رسالتي، أرجو أنْ تجيبي... أريد الاطمئنان عليكِ فقط وكيف هي حالتك الصحية بعد الموقف الأخير...

- أهلاً وسهلاً، تفاجأت برسالتكَ، أنا بخير شكراً لك ولسؤالك ... مع السلامة.

- فزارة: دقيقة، أرجوكِ أريد محادثتك قليلاً

- من أين تعرف اسمي؟ وكيف حصلت على رقم هاتفي؟

- لا أعرف رقم هاتفك، جئت أبحث عنكِ هنا في هذا الشارع الذي نزلتِ فيه، واستخدمت خاصية التانكو بالبحث عن الأصدقاء القريبين، الحمد الله أنها

Telegram: electronic_library

لم تخذلني فقد أوصلتني بكِ وأنا سعيد جداً لأني حصلت على رابط يوصلني بك، ثم أني أعرف اسمك لأن صوت هاتفك كان عالياً جداً عندما تحدثتِ مع أمكِ وأخبرتها أنك قرب البيت...

- حسنا أستاذ يوسف، كانت مناسبة سعيدة أنْ ألتقي بك، أعتقد أنّ حديثنا انتهى الى هنا...

- فزارة، أنا يوسف ولست أستاذا، أرجو انْ تقبليني صديقاً، لن أزعجكِ بشيء وسأكون صديقاً مهذباً ومطيعاً جداً.

- مع السلامة.

كان آخر همي أنْ أفكر بيوسف الجبل الآن، لا تزال الحماقة تنير دربي لذا كتبت على الفيس بوك « لا تدمر المعبر فقد تحتاجه للعودة »

رسالة من إياس هي محور تفكيري وأنا أدور حولها مثل فراشة هائمة على الضوء، فتحت الرسالة ...أكثر من مرة وأنا أعيد قراءة حروفها حرفاً حرفاً، ا ش ت ق ت ل ك ...

ثم « أنا كهتلر لا أدخن ولا أحتسي الخمر ومثله أحب امرأة واحدة »

« أنت هتلر وفرانكو والحجاج أيضا »

وحده إياس قادر على إسعادي وإشعاري بأني من أهل هذه الأرض لأنّ لي هويةً وهويتي هي الانتماء إليه... احترتُ كثيراً هل اراسله وأقر بجُنحتي بأني اشتقت إليه أيضاً، أم أسكت مثلما أفعل دائما؟ رنّ هاتفي مرة أخرى، إنه مؤيد، أوه، كم هو لجوج...

Telegram: electronic_library

- نعم مؤيد

- فزارة اتصلت بأحد أصدقائي، وأبدى استعداده لاستقبال سيارتك في المعرض... متى أمرّ حتى آخذها.

- تستطيع اليوم.

- حسنٌ، سأنهي تسوّقي وأمرّ لأخذها... باي

- باي.

كانت صرخة أمي مدويّة من المطبخ تصدعت لها جدران الشقة، هرعت إليها والأدرينالين يتطاير من أجزاء جسدي... كانت أمي تحدق في زجاجة خمر قد اكتسحها أبي خلسة وخبأها خلف الفرن، يبدو أنها ليست المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا المخبأ الصغير أيّ إنها ليست المرة الأولى التي ينقض فيها وعده لأمي بأنه أقلع عن الخمر، لم يحدث أنْ وفى أبي لأمي بوعوده، لم يسعدها، لم يحتوها، لم يفتتحا مزرعة أطفال كما كانت أمي تحلم، تقاعس عن مصاريفنا ، خسر أمواله وعمله وانحسر على كرسي صغير في هذه الشقة، ومات الحب بينه وبين أمي بعد أنْ ولد ثائرا على أحد أرصفة بغداد يوم كانت أمي طالبة تتبختر بجمالها عائدة من المدرسة وتحدّث صديقاتها، كانت في السابعة عشرة قمراً والحياة تتلألأ في عينيها، أحبها أبي، وظل يراقبها ويتبعها بجنون، مرة استدارت وصفعته لأنه لا ينفك يلاحقها في كلّ مكان، كأن هذه الصفعة أوعته، جعلته أكثر جدية بأنْ يحمل هذه العلاقة على راحة يديه ويبسطها عند بابها، خطبها، ورفضه والدها لأنه لا يعمل ويعتمد على أملاك أهله واستثماراتهم، خطبها

Telegram: electronic_library

مراراً وتكراراً فاطمأنتْ أمي لعمق حبه وتضحيته من أجلها، فقد اجبر اهله ان يأتوا معه كلما رفُض اهلها، فلم يكن من والدها إلّا أنْ رمى سلاحه واستسلم هو الآخر، تزوّجت سعيدة ونامت الليلة الأولى على فراش من ماء الحب واستيقظت على صراخه وهو يبحث عن جوربه، داعبته مازحةً أنه نسيهُ تحت وسادتها، فتدحرجتْ موجة شتائم من فمه تكسّرت بوجه أمي، ردّته برفضها لهذا الأسلوب فردها بصفعة، لم تصدق أمي أنه أراد أنْ يعيد لها صفعتها بأوّل يومٍ من زواجهما لكن الحقيقة التي تعرفت عليها منذ ذاك اليوم أنها أصبحت امرأة معنّفة ... أهداها أياماً جميلة نعم، وأهداها مع هذه الأيام خساراتٍ وإهاناتٍ وسُكر ينتهي بالضرب، تركتنا قبل عشر سنوات وذهبت للعيش عند أخيها، كنتُ ألوم أبي كلّ يوم على بذاءته وفشله بأن يُسعد هذه العائلة ولأنه السبب بأن تركتْني أمي، هجرتُه أنا الأخرى ومكثتُ في غرفتي لا أحدثه ولا أجلس للأكل معه ولا أقضي أيّةَ حاجة له مهما صرخ، مهما ضربني، مهما انهار امامي، كنتُ أُشفق عليه لكني كنت أحثّه دون أنْ يعي ليقطع عهداً لأمي بأنْ يترك الخمر هذه المرة حقا.

يبدو أنّ أمي تخلّت عني لهذا السبب على الرغم من أنّ تركها لي معه وحيدةً سيؤلمني جداً لأنّنا معاً دائماً، نأكل ونشرب الشاي ونتسوّق معا، ننفض غبار الشقة وأحزانها، حتى التصليحات التي تتطلب جهداً ذكوريا كنا ننجزها معا بعد إن تيقنّا أنّ أبي ليس سوى ثلاجة العشتار ... صالحها أبي، ووفى بوعده حتى نقضه قبل مدة لا نعرفها...

Telegram: electronic_library

- اهدئي أمي، سنتحدث معه...

- لا فائدة من الكلام، تعبت، أكره حياتي، أكره العيش في هذه الشقة البائسة وبين روائح عفونة الرطوبة وبقرب رجل محنط... تباً، أنا حمقاء لأنني ضحيت بشبابي مع بغلٍ كسيح...

- أرجوكِ أمي اهدئي، لا تتلفي أعصابك من أجله، لقد هجرتِهِ فلماذا تهتمين؟

- دعيني وشأني ولا تتدخلي أنتِ

- أمي، توقفي، لا تتشاجري معه أرجوكِ... لسنا بحاجة للمزيد من المشاحنات في حياتنا...

دفعتني أمي بقوة تفاجأت بها، فهي ناعمة، رقيقة جداً صوتها منخفض يخشى المرتفعات... توجهت فوراً الى غرفة الجلوس غاضبةً كمن ضاعت أحلامه واكتشف أن لا شيء يعود...

- كيف تتجرأ أنْ تدخل الخمر إلى بيتي؟ من سمح لك أنْ تعود لتعبث بحياتنا مرة أخرى، إذا كنت غاوياً أو هاوياً أو مدمن شرب، فاخرج من بيتي وتناوله في أحد البارات او على أحد الأرصفة حتى تثمل وتشفق عليك الشرطة وتودعك في سجنها أو المشفى...

تفاجأ أبي بالزجاجة التي تحملها أمي، وتكسّرت التعابير بوجهه كأنه طفل يحاول أنْ يدافع عن خطيئته ويبررها بلا جدوى.

- هذه ليست لي

- لمن إذن؟

Telegram: electronic_library

- إنها لأبي مريم، أعطاني إياها كي أخبئها حتى لا تراها أم مريم

- ولماذا يعطيك إياها وأم مريم تدرك جيداً أنه سكير متبجّح والكل يعلم ذلك

- لأنه أقلع عنها

- وتكذب؟

- أمل، اهدئي من فضلك هذه ليست لي

- كفاك لا تكذب، كذبت علي طوالَ حياتك، وبقيت أنا أركض خلف كذبة واحدة لتصديقها، لكني في كل مرة كنت أسقط وتسقط معي كل محاولاتي وأنت لا تحرك ساكنا، تتفرج عليّ فقط، حاولت جاهدة أنْ أصحح مسارك حتى نحيا بعيشٍ هادئٍ كريمٍ، لكني كنت فاشلة مثلك، أنت فاشل، عديم المسؤولية وحشي... آه.

صرخت أمي بكل جوارحها، لم تكن تصرخ من شدة ضربة أبي الذي حمّر وجنتها، بل من قلبها، من روحها، من رفضها الذي ما تُرجم يوما لواقع آخر...أخذتها بين يدي واحتضنتها كنتُ أحاول أنْ أهديها دموعي، علها تبكي فالبكاء وسادة للراحة،، علها تبكي كل أحزان عمرها فتتخلص من وحش الأتراح القابع في صدرها، لكني وجدتُ نفسي أتدحرج من شلال دموعي واسقط في بحيرة ذكرياتي، يبدو أنْ قنوات دموعي استُحثت حتى اصبح من السهل استدراجها في أي موقف يستدعي... هجم أبي علينا وأدغم شعرينا معاً وهو يصرخ فاقداً أعصابه « دمرتما حياتي، موتا الآن، موتا» هذه هي كلمة الموت، كعصفور أسود دائم على نافذة حياتنا، ليس له عش سوى تعابير أفكارنا... ظلّت تصرخ أمي طردياً معه، وبقيتُ أبكي عكسياً معها... هذه الحياة أصبحت كمغارة نائية في جبلٍ أخرس لا يمكن للسعادة أنْ تسمع أنينها...

Telegram: electronic_library

دفعنا أبي إلى غرفتها وأقفل الباب علينا، تشاجرت أمي مع الباب، لأنه رضخ لأمره، ظلت تضربه كنسناس محتجز وأنا أنظر اليها وأتمعن فورتها المائية، لقد وصلت درجة الغليان وبدأت انفعالاتها تنسكب علينا، حاولت أنْ أهدأها لكنّها ظلت تدفعني وتضربني وتكسر كل التحف الهادئة على مناضد الغرفة، تلعن رتابة الستائر وتشتم عنجهية الترتيب الزمني، ثم فتحت باب الخزانة وجعلتها تستفرغ الملابس ثم راحت كالمجنونة تشق أقمشتها بعنف وتضرب رأسها جاذبة شعرها باتجاهاتٍ عبثية، جلست أمامها أبكي، أتوسل بها أنْ تهدأ وأقبّل قدميها، لكنها ضربتني بقدمها على رأسي، فغشيت على الأرض من هول الضربة فاقدة الوعي، شعرت أني قد أُطفئت كجهاز التلفاز وأصبحت الشاشة سوداء ثم أشغلت مرة ثانية لكن هذه المرة في مكان مختلف، فتحت عينيّ اللتين لطمهما بياض جيب بزة الطبيب أمامي وسماعات متدلية ترتطم بأنفي لأنه كان يحاول أنْ يعلق قنينة المغذي فوق رأسي، صوت جهاز تخطيط القلب يدق بترتيب في أذني... جمهرة من الناس في الردهة، كنت أحاول التدقيق بالوجوه بينما أطرد الغواش من عينيّ وأضبط عدستيهما .

Telegram: electronic_library

- ١١ -

كانت عينان زرقاوان تحدقانِ بي بحرقة، لم أكن أستطع تصديق أنّ يوسف الجبل موجود مع أهلي وعائلة أم مريم والأطباء والممرضين؟ ما الذي يفعله هنا وكيف أتى وماذا يريد ولماذا أنا هنا أصلاً؟ تراجع الطبيب بعد ضبطهِ قنينة المغذي وابتسم لأنه رآني فتحت عينيّ، أصابعه نظيفة ورشيقة سجن بينهما قلماً وراح يسجل معلوماته، سألني عن اسمي وكنت أحاول جاهدةً أنْ أقول « فزارة»، « فزارة أمل» نطقتها بصعوبة، ابتسمت أمي لأني ذكرت اسمها وجهشتْ بالبكاء وهي تقبل أصابعي، طلب مني رفع يدي، رفعتها بعناء، أهدأني ابتسامة اطمئنان بعد إذ فرغ من فحص حيوية الجهاز العصبي وعلق مازحاً:

- هذا دلع بنات، أنتِ قوية وبخير لا تقلقي...

سألته أمي بسرعة

- دكتور، متأكد؟ أتعني أنها بخير.

- نعم هي بخير، يبدو أنها تعرّضت لارتجاج بسيط في المخ أخل توازنها وأفقدها الوعي... تستطيع الخروج بعد ساعة من الآن... لكن أرجوكم غادروا الغرفة، من الممكن أنْ يبقى معها شخص واحد فقط.

تفرقت الجمهرة التي كانت تحيط بي كأني مباراة ساخنة انتهت بالتعادل، بقيت أمي تعزف ببكائها كآلة حزينة متناغمة مع بقية الباكيات في الردهة اللواتي لم يفصلنا عنهن سوى ساتر قماشي أزرق اللون...

Telegram: electronic_library

- أنا آسفة حبيبتي، أنا آسفة فزارة لا أعلم ما الذي حصل لي

- أوف، أمي لا عليكِ، المهم أنتِ بخير

- أحبكِ جداً ليس لأنكِ ابنتي فقط، بل لأنكِ رقيقة وهادئة ومحبة، أصبحتُ أخاف عليكِ جداً، بالكاد خرجتِ من الانفجار ذاك اليوم النحس، واليوم تنقلين للمستشفى بسببي ... قلبي يتفطر عليكِ ولأنني جزء من متاعبك...

- أرجوكِ أمي لا تقولي ذلك...

ابتسمت بوجهي وهي تقول لي مازحة:

- هل تودين ان احمك إذا عدنا الى الشقة؟

بادلتها الابتسامة وأنا متعبة جداً لا أستطيع أنْ أجيب وأتمنى في سري أنْ تكفّ عن محادثتي، أمي المسكينة تشعر بالذنب أمامي وتحاول التكفير عنه، أنا لست غاضبة منها، أنا غاضبة عليها وعلى الحياة التي لم تنصفها وأثقلت كاهلها بأوزان الجبال، هي لم تكن تعرف أنّ لحظة سقوطي وفقداني للوعي لم يكن بسبب ضربتها بل لأني كنتُ مهيأةً جداً لخسارة الوعي من شدة الإفاقة، كنت بحاجة للغياب لبرهة لا أعلم أين، ربما الغياب واللحاق بنفسي في خلوة زمنية مشلولة...

- أتعلمين من هذا الشاب ذو العينين الزرقاوين؟ هذا هو الشاب الذي حدثتكِ عنه، الذي أعادني إلى المنزل يوم الانفجار...

- وهو من نقلكِ هنا اليوم، أظنه ملاكك الحارس...

تشنّجت عضلات وجهي وعدت إلى الوراء، من أين ظهر؟ ولماذا يأتيني في أوقاتي العصيبة، لماذا يصر على الظهور في حياتي، ملامح أمي تبدو فرحة مبطنة تحت

Telegram: electronic_library

جلد وجهها، تحاول أنْ تخفيها لأنها تعلم أنّ الموضوع يضايقني....

- أمي!! كيف نقلني ومن سمح له ومن قال إني اقبل؟

- لقد خرجت أصرخ في العمارة لإنقاذك تجمهر الجيران حولي وهو بينهم، واقترح أنْ ينقلك بسيارته حاولت أنْ أشكره لأني لا أعرفه لكن أبوك وأبو مريم أوكلا اليه المهمة ...

- تباً أمي، أنتم تفتحون له باباً بالتقرّب مني دون أنْ تعلموا ... أين هاتفي.

فتحت الممرضة الستارة بسرعة خاطفة تاركة حركتها توقف احتدامنا

- من فضلك سيدتي هل لكِ أنْ تذهبي إلى الاستعلامات لتوقيع أوراق خروج الآنسة؟!

- الآن؟

- نعم، بينما أفحصها مرة أخرى...

قامت أمي مستغربة، ناديتها مرة أخرى حتى تناولني هاتفي، سلمتني إياه واختفت بين تداخل الستائر الزرقاء، فتحتُ هاتفي بشغف أفتش عن إياس، لابُد أنه شعر بي الآن، أظن أنّ قلبه وخزه لأن أميرته ترقد في المستشفى، بيننا توارد أفكار خطير، منذ ذاك الصدام التاريخي في العمارة شعرت أنّ موجاتً روحومغناطيسية بثقت في نَفسي شفرة أفكاره، وأنّ جزءاً من عقلي طار واستوطن في قلبه فصارت بيننا شبكة معلومات حسية لا مرئية، نفكر معاً، نردد الكلمات ذاتها في الوقت ذاته معاً، نحب ونكره الأشياء ذاتها، نحن لسنا سوى توأم قذفته بطنان متفقتان... فعلاً، كان إياس قد كتب لي رسالة « أينك» ...

Telegram: electronic_library

اقتحم صوتٌ رزينٌ جلستي الروحية مع إياس ونفض ارتباط روحينا في هذه اللحظة... ارتجفت رموشي معبرةً عن اندهاشها:

- كيف صرتِ؟

كان يتقدم نحوي وهو يعزف بقدميه موسيقى الثقة والاتزان والهدوء، شعرت أنه كسفينة تحاول أنْ تفرغ حمولتها، يبدو أخطأ الأبحار وقد رسا في ميناء آخر...

- بخير... شكراً لك

- ابنة المتاعب... أتمنى أنْ أراكِ في المرة الثالثة في وضعٍ هادئ

- ولماذا تراني؟

- لأنك لوحة غامضة، أحاول تفسيرها...

- أستاذ يوسف، أنا أشكر موقفك الثاني معي وأقدره جداً، أتمنى أنْ تقدر أن لا رغبة لي بإدخال الغرباء في حياتي ... وإلى هنا لا بُد أنْ تنتهي هذه الزيارات المفاجئة.

- غرباء؟ كلمة ثقيلة، تستقر في قاع الروح كغصة... على أيّة حال...

- كيف تسللت الى هنا؟

- من الممكن أنْ تقتحمي في العراق أيّ مكان تريدينه ما دمتِ تدفعين جيداً والمرضة استعانت بأمك لاستكمال أوراق خروجك ...

يبتسم ماكراً ومحباً وهو ينظر إليّ منتظراً ردّ فعلي

- ما المطلوب مني الآن؟

- لا شيء يا نمرة ... سوى أنْ تصيري بخير وتعودي للمنزل، ينتظرنا الكثير.

Telegram: electronic_library

شعرتُ أنّ دمائي تصاعدت إلى وجنتيّ كلبوة ثائرة... ولم أستطع مجاملته أكثر وأردّ بلطافة على موقفه الإنساني معي، تناولت هاتفي غاضبةً بينما رمقني هو بنظرة تحدٍ ورضىً

- ليس بيننا شيء، ولن يكون ... أرجو أنْ تتركني وشأني وتغادر الغرفة من فضلك ... ألو، بابا، أشعر بالتعب، تعال إلى الردهة مسرعاً أرجوك...

أحنى رأسه قليلاً حاول الاقتراب من أذني لكنه تراجع خوفاً مني وهمس بفتور.

- فزارة، ستغيرين رأيك تماماً، كوني على ثقة.

اختفى بين أقمشة الستائر تاركاً عطره المتغطرس يسبح مع ذرات الجو المشحون والملوث بفايروسات متنوعة للمريضات ... كنت أصغي لوقع أقدامه وهي تبتعد غاضبةً بعد مواجهة محتدمة مع رفضٍ أنيق دلقته عليه ... ظهر أبي بكامل قلقه واستغرابه، احتضنني على استغراب ثم أخبرته عن نيتي بالعودة إلى غرفتي المتهالكة حالاً...

جثوت في فراشي وأنا أقلب محادثتي إياس ويوسف الجبل، وأخطط مقارنات سريعة ولربما خيانة مني لإياس دون وعي، يوسف يبدو كضال يبحث عن سبب للإيمان فوجدني آية تُفند شكّه... ملامحه الصارمة اليوم دلّت على تمسكه العميق بي لسببٍ أجهله، أنا لا أحبه، لكني أغار من تمسّكه، أتمنى أنْ يتمسّك بي إياس مثله، ويظهر مدافعاً عن وجودي كلّما حاولت الحياة إخافتي بأشباحها، أكره تردّد إياس، أكره خضوعه للواقع، أكره تمرّده العاقل... تمنيته رجلاً متمردا يتعامل مع وضعي بحنكة وحزم كما يتصرف في حروبه، لماذا يراني حديقة مسالمة لابُد أنْ

Telegram: electronic_library

يحافظ على أزهارها؟ إياس... كثرٌ هم من يظنون أنّ قطف الأزهار اعتداءً! ولا يرون أنّ تركها وحيدة للذبول جريمة؟ اهتزّ هاتفي المخبأ في جيب وسادتي.

- فزارة ... أنتِ في البيت؟

- نعم، أنا في البيت

- أنا في مدخل العمارة... ناوليني مفتاح السيارة حتى آخذها إلى المعرض

- انتظرني لثواني

خرجت من الغرفة مسرعة، صاح أبي موبخاً

- ما بكِ يا بنت؟ لقد كنتِ في المستشفى تواً!

- أبي لقد بعتُ السيارة

- بعتِ السيارة !! متى وكيف؟

- بعتها لصديقي

وجدتُ نفسي أكذب على أبي دون رغبتي، فلو كنتُ سأخبره أنّ لي نية بيعها، سيثنيني عن هذه البيعة وهو يؤملني بتسديد أقساطها، وأنا أعلم أنّ أبي لا يملك سوى فتات النقود التي تعطيه إياه أمي التي تصرف مرتبها على الإيجار ومصاريف الحياة ... غير هذا، أنا لم آخذ نقوداً منه منذ مدة طويلة وطويلة جداً لربّما منذ حادث العلك الذي دعا أبي أنْ يعيد النظر بإعطائي نقوداً، الحقيقة التي كان يخبئها عني واعترفت بها أمي أنه لم يعد يملك شيئا سوى الندب والندم على تخطيطاته الفاشلة ... سأشعر بكثير من الخجل إنْ مد يده في جيب قميصه وناولني ما كان قد يشعرني بالسعادة سابقاً، نظر إليّ رافضاً، فبادلته بنظرة « ما الحل؟ « ...

Telegram: electronic_library

استقبلني المدخل معرباً عن قلقه فلن تلمع أرضية العمارة ولن يستنار المدخل خصوصاً وإنّ الوقت هو المغرب الذي بدأ يتداخل مع سواد الليل.

- فزارة، جميلةٌ أنتِ دائماً وفي كلّ حالاتك حتى وإنْ كنتِ بملابس رثة.

- لا أجمل من الأقمشة المتعبة الرافضة لألوانها الأصلية ...

- لقد كنتُ مع ست كريمة مدير مصرف «مشروع» الأهلي وقد تحدثنا كثيراً وتناولنا قهوة لذيذة في مطعم فاخر جداً، وقد كانت مبهورة وسعيدة جداً بعملي وبدأت مندهشة لأن في العراق شباباً مبدعين ونشيطين وحقيقيين مثلي، لقد تذكرتك فوراً فما الذي ستقوله ما إنْ تراكِ، أظنها ستتمسك بكِ جيداً حتى تصيري مساعدتها الشخصية ...

- أنا لست مساعدة نفسي حتى...

- أقصد...

- هذه مفاتيح السيارة، من الممكن أنْ تأخذها الآن وتخلصني منها، هذا بالإضافة إلى أني لا يهمني إنْ قايضوكَ على السعر، اختر السعر المناسب لبيعها، لم تعد لي أيّة نية بأن أبقيها معي من يوم ما تقاطعت الطرق مع قدمي وجمدت نشاطي المهني ...أشعر أننا إلى هنا لابُد أنْ نفترق.

- لا عليكِ يا فزارة، أنتِ اميرة، لا تفكري كثيراً بهذا الموضوع، قلت لكِ بأنك تستطيعين الاعتماد عليّ بدفع أقساطها لكنكِ رفضت، الخير كثير والحمد الله وأستطيع أنْ اشتري لكِ بدلها سيارة أكبر وأجمل وأحدث.

- هذا المفتاح مؤيد، شكرا جزيلاً لمساعدتك لي، عليّ أنْ أصعد الآن، نتحدث لاحقاً...

Telegram: electronic_library

فررتُ هاربةً منه، هذا الكائن الذي لا تحتمل خفته، لا أعلم متى يقلع عن عادته السخيفة باستعراض عضلاته المادية والاجتماعية والمركزية، لا تهمني ولا أريد سماع شيء عنها، بقيتُ أتأمل مع نفسي أنْ لا يوجه لي حديثاً آخر يشل نيتي بالصعود والهروب إلى الشقة...

لم تكن لي أي رغبة بأن أتعلم السياقة يوماً ما، وأستبدل التنورة أحيانا ببنطال عملي، أنا المتطرفة لأنوثتي والوفية لجنسي، أرى السياقة عملاً رجوليّاً يُفقد الأنثى رقتها وهي تأمر المحرك كقائد متفاخر أنْ يفتك الشوارع سرعةً أو وهي تكبح الموقف متراجعة عن قرارٍ أخرق،

تمنيت كثيراً لو أنّ ابي أغرق أمي بحبٍّ أسطوريّ أفاض رحمها بأخٍ لي، أخٌ يسوق السيارة بلا ملل ويتبضع لأمي بتذمر وعندما تعصف أزمة مالية بنا، يهرع للمعارض كئيباً وهو يبيعها، أخٌ يتربص بي ويمسكني بالحب المشهود فيديننني على جريمة وإنْ كنتُ بريئة، أخ يمنعني من الشروع بجنوني ويمنعني عن العشق الذي تورطت فيه... أخ يصير كل الأجهزة الكهربائية وليس ثلاجة عشتار جائعة فقط.

Telegram: electronic_library

- ١٢ -

لا أتذكر الآن من قال « الدواء أسوأ من الألم ذاته» أشاطره هذا الاعتقاد الذي بدأ يتجذر داخلي عقيدةً يصعب التحرر منها، يصعب التحرر من الحب عندما ينفذ كالدم إلى كل بيت في أرض الجسد.

كنتُ أجفف شعري بينما كان هاتفي الصامت يأن تحت وسادتي، هرعت اطمئن عليه، لكنه طمأنني عندما اراني اسم إياس يرقص في الشاشة، ابتسمت بحزن وفتحت الخط فورا

-الو

-حبيبتي ... كيف حالك؟

- بخير

- ما الذي تفعلينه؟

-أجفف شعري

-أرجو ألا تؤذيه، أعرفك مجرمة بإنهاك اطرافه الرقيقة بالتسريح، إنه جميل على طبيعته مثل غيوم المساء الممشطة.

لا اعرف كيف أرد على غزله، أخجل وأصمت فقط أمام هذا الكم الهائل من الجمال الذي يخترق قلبي كلما حدثني ... قلبي يصلي بحبه.

- لا تقلق

-هل تستطيعين أنْ تأخذيني إلى بيت أحمد وتارة اليوم عصراً.

Telegram: electronic_library

-بعتُ السيارة.

-حقا؟

-سأشتري غيرها.

وجدتني أكذب مرة أخرى بشأن سيارتي، يبدو أنّ الكذب على الرجال مستحب أحياناً، إنه منفذ للخروج من النقاشات المفرغة التي يحاول بها الرجل ان يكشف عن لمعة عضلاته ... ربما سيعرض عليّ ان ابقيها، لكن إياس ليس من هذا النوع، لا اظنه سيدفع اقساط سيارتي ولو كان يملك معامل ذهب، ليس سخيا وليس بخيلا ايضا، اظنه يعتز بأمواله كثيرا، لم اجربه ولا مرة، ارفض ان يساعدني ولو بألف دينار عراقي! سيجرحني جدا ان اطلب انقاذا حتى لو لم يكن عاجلا، استصعب الموقف جدا لأنه قد يشعرني أني ذليلة امام حبيبي الذي أحب ان أبدو معه كأميرة ناعمة دائما.

-تستحقين أجمل سيارة.

جواب دبلوماسي بارد، كنت اتوقعه لأني اصبحت اعرف جيدا كيف يفكر إياس وماهي النتيجة التي سيصل اليها فيما بعد وكيف يطرح جوابه.

-شكرا، أذن، برأيك هل نلغي زيارة احمد وتارة؟ خصوصا ان موضوعا مهما سنجتمع من اجله

-يوجد تاكسي ستأتين معي، حللنا الازمة... انتظريني الساعة الرابعة.

- إياس! دقيقة ... لماذا احضر؟

اقفل الخط كعادته التعيسة عندما يهرب من النقاشات التي يريد الانتصار فيها

Telegram: electronic_library

وعندما ينوي ان يفعل ما يريده دون احتجاج نسوي فيه نسبة نق وخوف وتردد عالية ... سيأتي على الموعد وينتظرني تحت العمارة، لا نخرج للاعتراض او الامتعاض، عليّ الان ان اجهز.

انا امام المرآة بكل تجرد، عينان عميقتان ومسحة حزن خفيفة تحولت لملمح الى جانب انفي وفمي، لا أستطيع ان ألاحق خيوط افكاري فهي كثيرة ومتشعبة وأفكر فيها بآنٍ واحد... انا في سجن عسكري مع اهلي، في سجن مدني مع حبيبي... في الحبس الجماعي مع الحياة ... في الحبس الابدي عند الموت ... اقتربت من المرآة واطبقتُ عليها شفاهي، تركتُ زفيري يرسم بالبخار وجوده على انعكاسي ... تمعنت فيه، مسحته كأنني احاول ان امسح هذا القلق المستمر، كفاني اعيش في المستقبل واضيع الحاضر.

معلبات مرطبات مكسرات منبهات مقويات منشطات مطيبات أحباب الروح حولي

تناولت جينزي من الارض وعبأت قدميَ الناعمتين فيه بحركات دقيقة كما تفعل راقصة الباليه، أقفلت على نفسي بقميصٍ وردي خفيف ...استندت بالمرآة محاولة الوقوف على رؤوس اصابعي، سقطت فورا، احتضنتُ قدمي اليمنى من عصف الألم الذي انجبته محاولتي توا ... شعرت ان رعدا حاول النفاذ من خلال صوتي لولا ان الهاتف اهتز مرة أخرى.

- فزارة انا قرب باب العمارة.

- إياس؟؟ لماذا هذه السرعة، اتفقنا عند الأربعة.

- لا يهم، انزلي الان

Telegram: electronic_library

- تبا، لماذا تحرجني هكذا دائما، لم اجهز بعد.

-حقا انا لا اعلم لماذا يجب ان تتأخرن بتزيين انفسكن.

-لماذا تستخدم اسلوب الجمع، هل يوجد في حياتك سواي؟

-انزلي الان، لن انتظر ساعة من اجل فعالية الرسم المباشر على الوجه

-لا فائدة من مناقشتك

اقفل الخط مرة اخرى، نفخت بالونة في حلقي وزفرت غضبي ... لبست حذاءً خفيفاً، آه، أظنني لا أستطيع السير على قدمي اليمنى بصورة طبيعية، لقد اهدرت كرامة صحتها، اوكلت اليسرى مهام جر اليمنى ونزلت.

-ما بك حبيبتي؟ لماذا تعرجين؟

-سقطة خفيفة لا عليك

-كيف سنمشي الى نهاية الشارع وانتِ بهذه الحالة؟ سأحملك.

-إياس، بلا جنون ارجوك، الناس تحيط بنا من كل صوب ولا انوي ان اصير مادة اعلانية جميلة لحملة ترفيهية.

-لما لا؟

فجأة وجدت نفسي كأنني اقترب من حدود السماء ورأسي يعوم في بياض الغيوم ... قدماي ترتطمان بالأرض وتنفصلان عنها وذراعي تستنجد برقبة إياس... فتحت عيني خائفة... لا اعلم لماذا خفت؟ يبدو انني اريد ان تبقى هذه اللحظة فارة من سباق الزمن جالسة على مقاعد التفرج، او لأنني خفت من الناس... لا اعلم، لا اعلم، ولا يهم، لقد حملني الان ونحن نعيش هذه اللحظة ولن اطالبه بأنزالي.

Telegram: electronic_library

-أتدرى؟؟

-ماذا؟

-أحُبكَ.

-أتدرين؟

- ماذا؟

- أحُبكِ.

-لقد اقترفنا الجُنحة ... ما رأيك بإكمال الجريمة؟

-كيف؟

كأن؟ -

أودعت قُبلة سريعة على شفاهه بين عسكر شاربه ولحيته، كساعي شوقٍ مستعجل يسرق من الظروف كسرة خبز لجوع قلبه ... اظن ان الخباز وبائع الخضار وشاوي السمك والقصاب والصيدلي وعامل المولدة وحارس الجامع والنسوة المارقات والرجال المتسكعين كلهم ينظرون الينا باستغراب ودهشة وغيرة وانتقاص لأننا انتهكنا حُرمة الشارع وتجاوزنا على نصوص الاخلاق بتفجير عبوة قُبلة وزنها مائة كيلو عشق.

- مجنونة...

احمد وتارة تزوجا بعد حبٍ مدوي استمر لثلاث سنين، لقد حاربا اهلهما وحرس اقاربهما ووجهاء المنطقة ورؤساء المجتمع، لقد لاموا احمد لأنه تزوج فتاة فسخت خطوبة مدتها سنتان مع شاب قبله لأنها كانت مولعة جدا بالرسم والاعمال اليدوية والغناء، ولأنها اصرت على فعل هذه الفاحشة المغرية التي تطرب لها الاذان

Telegram: electronic_library

وتخشع لها الابدان، من منا لا يسمع الأغاني ولا تؤثر في نفسه مادامت تحاكي واقعه ومشاعره؟ الان ان المجتمع يبتذل هذه الشعيرة ويحرمها وان كان لا يجرمها، فكانت تارة تمارسها كلما سنحت لها الفرصة... فهي موجودة بكل حدث او امسية اجتماعية لتغني بصوتها الملائكي وتشدوا للرقة والطبيعة والجمال ولتجدد عهد الحب الذي قطعته لأحمد.

كنت قد حضرت مرة مهرجانا شعريا ... اطلت علينا عريفة الحفل بابتسامة صادقة منكسرة وهي تقدم تارة معلقة بما معناه ظهر لنا صوت انثوي على الرغم من المغادرة القسرية لأيام الزمن الجميل يوم كانت بغداد تتلألأ ببطن ولود تنجب بين فترة واخرى اصواتاً نسوية جميلة، واذكر أني في طفولتي كنت اجلس على «دولاب» مطبخنا الازرق في العرصات واستمع عبر الراديو مع أمي لمطربة شابة احدثت اغنيتها « ظلمتوه بالوصف لمن وصفتوه حبيبي شكد حلو بس ما نصفتوه» ضجة في افواه العراقيين مطلع التسعينات، فكانت امي تطلب مني ان اغني اغنيتها لتضحك على حروفي المتلكئة، بحثت عن اخبار المطربة في الانترنيت لا شيء جديد عنها ولا خبر سوى اراء بعض النقاد الذين زعموا انها اخر الاصوات النسوية لحقب الزمن الجميل.

اما تارة فقد ألهبت المسرح بأغنية بغدادية « شفته وبعجل حبيته والله «، يبدو ان الغناء انعكاس لبيئة المجتمع وطريقة تفكيره ذاك الوقت... فنرى ببساطة ان الكلمات تعبر عن رد فعل فتاة بسيطة أحبت بكل براءة على عكس صعوبات وتعقيدات وقتنا اليوم الذي يعج بالحروب وإفرازاتها الهمجية الرجعية التي صاحبتها التعصبات

Telegram: electronic_library

الفكرية واطروحات دينية متطرفة عندما أرى الفيديوهات المسربة من ذاك الزمن على مواقع التواصل الاجتماعي أرى المطرب في المسرح بكامل اناقته وهندامه وخلفه فرقة موسيقية مزينة بأربطة بهية دلالة منهم على احترام ما يقدموه للناس واعتزازهم بفنهم...

استقبلتني تارة كعادتها بابتسامة صافية وهمست في اذني « لك عندي هدية» ثم انه القت بدعابتها الشرسة لإياس.

-تبدو فزارة متعبة، هل مازالت تحتفظ بقدرتك على مضايقتها؟

-اتمنى ان يصرن كل النسوة متفقات مثلكن، يومها فقط، سيهدأ العالم وتتوقف الحروب ونجلس نحن في المقاهي بدل ان نجلس القرفصاء في ساحات التدريب ... يومها فقط ستلدنا امهاتنا في امانة تامة لأننا سنكون شباب حياة مدنية لا عسكرية.

- شكرا لخطابك، تستطيع النزول الان من المنصة.

ضحكنا وجلسنا في الحديقة، لقد جهز احمد الحديقة بـ» ثلاث اراكيل ليمونية» اما انا فقد كنت اختليت بقطع الكيك والشكولاتة التي سلبت عقلي لولا ان كلمة « اربيل» نكزت انزوائي.

-اربيل؟؟؟؟؟ لا .... لن اذهب ... لما لا نذهب للحلة ؟؟

. الحلة بهذا الحر... انتِ مجنونة بالطبع -

- أجل إياس، اربيل جميلة وفيها الكثير من السكان والسائحون والمهجرون والنازحون الان، لكن الحلة كحلوى الدهينة شعبية وملكية بالإضافة الى انها لذيذة ... نزور الاثار ونلعق بعض امجاد التاريخ التي افتقدناها.

Telegram: electronic_library

إياس بربك، حبيبتك مجنونة، ارجو الا تشجعها وتفسد سفرتنا الى أربيل.

- لا أستطيع ان أرد لها طلبها، فلنذهب للحلة لم لا! سيارتك وحش مطيع يا احمد.

-انا اوافق فزارة رأيها، فلتكن الحلة قبلتنا ... هذه الرحلة مفيدة للوحاتي.

- انا بين ثلاثة مجانين، عاشق ومجنونة ومغنية !! فلنذهب.

Telegram: electronic_library

- ١٣ -

سلاما على بابل ومن فيها، مستقبلها وحاضرها وماضيها، على النور المنبعث من اراضيها والفرات الغافي بين نهديها، والبيوت المطرزة بين عينيها، سلاما على الاثار وقبابها، على القلاع وابوابها وعلى حنانها وعقابها.

انتشت السيارة وهي تعدو تلك اللافتة الزرقاء المكتوب عليها اهلا بكم في بابل، نثرت عجلاتها تراب الحلة الاشقر وهي تقترب من اقتحام المدينة أكثر، تنفست هواء اخف من الاوكسجين وأكثر انتعاشا، تمنيت لو ان في السيارة نافذة في السقف لكنت هربت رأسي وتركت شعري ينعم بمرطب بابلي طبيعي يضخّه جوها فينبت بسرعة اكبر ويصير اطول من شعر شبعاد

قنَعت بالنافذة الجانبية وفتحتها، أرسيتُ يديّ ونمتُ عليها، تطاير شعري بقوة وافتتان، حرارة متقدة حمرت وجنتي وشوتها، رحت امُعن النظر في هذه الملامح التي بدأت تتكون امامي، ظهرت السيطرة الرئيسية التي ستعطينا الموافقة الأخيرة للدخول للحلة، تمعن بنا الجندي مدققا بعد ان اشار جهاز فحص المتفجرات الغبي على السيارة بهوائي الاتهام، رفع حاجبه منتصرا مطئطئا برأسه» للتفتيش» ، يبدو شاكا بنا، نحن الغرباء عن هذه المدينة؛ القرباء بانتماءاتنا العراقية؛ والمتشاركين مع هذا الجندي واهل الحلة وبقية المحافظات بهوياتنا العراقية؛ لقد جددتُ عهدي عراقيتي قبل مدة قصيرة بعد ان لصق موظف وزارة الداخلية «الفسفورة» اللامعة دليلا دامغا على هويتي.

-هوياتكم.

Telegram: electronic_library

جمع احمد الهويات واعطاها للجندي المسؤول عن تفتيش العجلات... نظر بدوره الى الهويات والى اوجهنا محاولا التأكد من الصور التي يراها هي لولائك الجالسين امامه.

-الى اين تذهبون ومن اين اتيتم؟

يصيبني هذا السؤال بالغثيان، مرت سنوات والمشهد الأمني يعيد نفسه بانفجاراته وهفواته وخروقاته وخططه غير القابلة التطور مع نقاط تفتيش مسكينة وأجهزة كشف غبية واسئلة باهتة يستطيع الانسان من خلالها استخدام الكذب المستحب... كأن نقول اننا قادمون من الشمال وذاهبين لبيت ام علي...!! ام علي؟ من هي ام علي؟ واي شمال هذا الذي جئنا منه! لكن الصدق الذي مازال كامنا فينا يجيب ببساطة؟

-جئنا زيارة من بغداد.

-هل لديك سلاح؟

- لا

- هل تحملون عطورا؟ أحد منكم قد حشى سنه؟

من منا مداوم على نظام تفريش اسنانه بصورة دائمة؟ او من منا لم يأكل حلويات ويشرب ببسي غازيّا ضارا ينخر اسنانه؟ أيعقل ان نقاطع عيادات الاسنان؟ حتما لا، وحتما نعم، انها هذه الاجهزة القاتلة التي عبرت العديد من المتفجرات وقتلت العراقيين فيما تتفحص اسناننا! انفجر احمد ضاحكا هنا مما اصاب الجندي بالغضب... الموقف الذي استدعى إياس لإبراز هويته العسكرية المنتهية النفاذ والقديمة بوجه الجندي قبل ان يتحدث بأي شيء.

ادخلوا -

Telegram: electronic_library

لربما فعلا اوقفونا بغية التفتيش والتأكد من عدم تسلل عابثين ومخربين وارهابيين الى المدينة، رغم ان الارهابيين الحقيقين لا تستطيع ان تقبض عليهم نقطة تفتيش عادية ... ولأن الهويات « الباجات» في هذا البلد قادرة على خرق اي سيطرة واغراء اي رتبة عسكرية بغمزة اهميتها... هكذا ببساطة، من لا باج له لا امان له.

تبدو المدينة نائمة في احضان التعب والهلاك ومشاريع البُنى التحتية المتوقفة، شوارع مهمومة وعواميد حزينة ويافطات مملوءة بأتربة الخذلان واشجار تحاول الحفاظ على اخضرارها، مسكينة هي الحلة مثلي، انا اعلم انها أجمل وأجمل بكثير مما تبدو عليه، فتحت كل شارع مُعبد حضارة عظيمة، وفوق الاراضي الرملية التي لم يتسلل اليها الاسفلت ويلبسها، اثار متناثرة ثمينة، وانا اعلم ايضا ان هذه التجاعيد التي تملؤها الان ليست سوى تجاعيد الاخفاقات السياسية التي تعرضت لها.

لكني على الرغم من نبرة الحزن التي اكتسحت صوتي وروحي وانا اساهم « هل نحن الان في الحلة» شعرت بحنان فظيع ضج به صدري، كأنني وجدت امي من بعد فراق طويل.

اتجهنا صوب منتجع بابل بغية المبيت هناك، قبل ان نرحب بالطرد المؤدب حيث اثار حفيظة أمن المنتجع رؤية شباب من بغداد مع فتاتين لوحدهما، حتى لو كانت تارة زوجة احمد، سأبقى انا المدانة برذيلة الحب والمذنبة بعلاقة مفتوحة لم تباركها اية قرآنية او الصلاة على النبي... كانت نظرات الجنود والشرطة وموظفي الحجز إلي تشعرني بالخجل والارتباك والشعور بالذنب وكنت لا اعلم اين أخبئ عينيّ سوى أني كنتُ اهربهما الى إياس وهو يرسل الي نظرات طمأنة... كنا ننوي

Telegram: electronic_library

المبيت انا وتارة في غرفة واحمد وإياس في غرفة، مع هذا يبدو أن نوايانا الطيبة لم يصدقها أحد، اننا محافظون على العرف والتقليد ولسنا متحررين مفسدين كما يرانا الامنيون.

ضجر إياس بعدد الاسئلة وتعقيدات الحجز التي ابداها الموظفون، وامرنا ان نخرج جميعا الى السيارة، فررت اليه وادخلت يدي في مشط اصابعه لا اعلم هل كنت احاول ان اهدأ من روعه او ان اطيب من خاطري الذي كسر... نظر احمد الى إياس رافعا حاجبه كأنه يسأل اين نذهب؟

- شغل السيارة وتوكل.

-أين؟

-لا عليك.

كان إياس مشغولا بالعبث بهاتفه بكل اتزان ...ثم علت وجهه ابتسامة رقيقة كسرت عضلات وجهه المتشنجة.

-عمتي، كيف حالك؟ كنتِ تعتبين عليّ انكِ لم تريني منذ مدة، ها انا الان في نبض الحلة... حي نادر! نعم، سأكون عندك بعد قليل.

سألته انا بقلق وخجل فورا.

-إياس، هل سنبيت عند عمتك؟

-نعم عند عمتي.

-إياس لا أستطيع.

ولمَ لا؟ -

Telegram: electronic_library

... لا اعرفهم واشعر بالخجل من الغرباء -

... وانتِ لا تعرفين احدا في المنتجع ايضا -

... -الوضع مختلف، انا فعلا اشعر بالخجل والتوتر

فزارة، هذه فكرتك بأن نأتي الى الحلة... هل كنتِ تظنين انه من السهل ان تبيتي في فنادق مدينة محافظة ... اخرجي من رواياتك الرومانسية ارجوكِ وعيشي الواقع... هذا اقتراحك وتحملي نتائجه.

-إياس! لماذا تصرخ بوجهي.

بدأنا، يبدو انه فصل شجار جديد... لن اجيبك

ارجعتُ ظهري الى الوراء وهربت عيناي الى الظلام الذي بدأ يهطل على اكتاف المدينة تاركا مزامير السيارات تزعق والمصابيح وحدها مشعة ... فتحت حقيبتي واخرجت عطر امي ورششت نفسي حتى ازيل قلقي... بعد العديد من الاتصالات بين إياس وعمته وصلنا الى بيتها السحري... كان البيت صغيرا مغلفا بأغصان النباتات المتسلقة الكثيرة؛ حتى ظننت أنى ادخل في قلب شجرة! في الكراج كان التنور الغازي يقف متباهيا بإخلاصه ليدي عمة إياس سنين طوال، يرتدي كعبه سواد احتراقه ...وكأغلب البيوت العراقية، المطبخ هو بداية خارطة المنزل، دخلت انا ورأسي ملتفتين الى اضلاع الجدران والارضية والأغراض، كان المطبخ مزينا بلوحات سور قرآنية وبالقدور والقوارير وأباريق الشاي ... التوت بطني قليلا عندما رأيت ثلاجة عشتار شامخة كأنها تنظر الي ...»ابي» ...هل ابي هنا! تبا...

Telegram: electronic_library

قبلتني عمة إياس بحرارة كأنها تعرفني منذ القدم وراحت تنظر الى ملامحي متمعنة...

-ما اسمك يا حلوة؟

- فزارة.

- عفوا!

- فزارة.

-اسم غريب... ما معناه...؟

- انثى النمر

- يا ويلي! لماذا ظلموكِ بهذا الاسم يا حلوة؟ انتِ زهرة.

شعرت بخجل عارم، اقتربت من إياس كأني أغطيّ نفسي خلف جبله لكنه دفعني بخفية حتى اظل في المقدمة وهمس في أذني ... « ابقي عفوية.»

دخلنا الى غرفة الجلوس، كانت المقاعد معدة لاستقبالنا عليها اقمشة هادئة من مشتقات البيج، التلفاز مسترسلا بسرد قصص الاختلاسات والاموال المنهوبة والصفقات الفاسدة عبر صوت مذيع متحمس يلعلع لاعنا كل السراق والفاسدين في الحكومة ... اقتربت ووقفت صوب صورة قديمة وكبيرة عليها شريط حداد اسود معلقة على الجدار ... شاب وسيم تعلو شفتيه ابتسامة فاترة، حاجباه كثيفان بهدوء.

-من هذا، عمتي؟

نظرت عمة إياس الى الارض بغضب وحزن وعتاب، ثم الى ابنتها التي كانت تجلس امامها مرتدية حجابا اسود ناعما... ثم اخذت تسبح بسبحة الكهرمان

Telegram: electronic_library

بانزعاج ... وعادت تنظر الي متفحصة وضعي، لا اعلم لماذا شحنت بكل هذه النظرات.

-انه زوجي، ابو فرح توفي في حرب إيران.

ابتسمت بمرارة خفيفة:

- الحمد لله انه عاد جثة كاملة، وعرفت مصيره ومصيري، لم يكن مفقودا فأعيش على امل، ولا اسيرا فأبكي من فراقه وعلى تعذيبه، اراحه الموت وجنبه التعذيب لو عاد معوقا ... تركني او خطفته الحرب مني، لا اعلم، الحاصل انه اختفى من حياتي مبكرا جدا، أكثر من ثلاثين سنة موجعةٍ ابكيه واليوم ابكيه وابكي نصيب فرح الذي خطف زوجها هي الاخرى بعد ان استشهدَ في معارك تكريت يقال ان حظ البنت من حظ امها ....

اننا لسنا سوى وقود لديمومة نار الحروب وان اختلفت مسمياتها، حرب إيران، حرب الخليج، حرب الحواسم، حرب الطائفية، اليوم الحرب ضد داعش وما زالت الأمهات يطبخن اولادهن في قدور ارحامهن، وما زالت الزوجات يقدمن التضحية على اطباق من حب.

اوجعني حديثها، تمنيت لو أنني لم أسالها، لم أت الى هنا حتى أقلب المواجع عليها واذكرها بماض لا ينُسى.

- انا اسفة.

-على ماذا يا بنتي؟ انا لم اعد اسفة على شيء ولا حتى على نفسي... هما ماتا ونحن متنا احياء ... لا اعلم لماذا تقام الحروب مادام الجميع يحارب من اجل العيش؟ لا اعلم يا ابنتي... لا عليك.

Telegram: electronic_library

لم أكن أستطيع ان استعين بأي كلمة اخرى، أظن ان لا كلمات كافية ممكن ان تواسي الموقف وترطب الجو... قاطع إياس الحديث:

-عمتي، اخبرتُ اصدقائي ان لا يدين رائعتين في الكون من الممكن ان تصب لنا شايا عراقيا لذيذا كيديك الجميلتين... ما رأيك؟

-حبيب عمتك، اهلا وسهلا بك انت واصدقائك، ملأتم البيت اشعاعا بقدومكم، مشتاقة لك يا ولد، ولأبيك الشقي، انت تشبهه لكنك اخذت من أمك الحيلة، واخذت منها هذا الهدوء الشرس.

بلد حار جدا، متقد المشاعر والاحداث دائما، شمسه نافذة مفتوحة على جهنم تولي سعيرها صوب كل بقاعه بلا رحمة بلا هوادة، تُذوب المعادن الصلبة وتقتُل الحشرات الضارة والمفيدة وتلاحق الحيوانات المسكينة، اما البشر فغالبا ما يفقدون اعصابهم لأي سبب تافه من شدة ضغط الحرارة، المجردة... ولأن الشمس جائرة يلجأ الناس الى القمر الرحوم عادةً فيهرعون اليه ليلا عبر سطوحهم ليناموا تحت ضيائه وبرودته، هكذا دفعت عمة إياس باب السطح حاملة الفرش الخفيفة ... ظلام متفق عليه مع موسيقى المولدات الليلية، اندس الجميع في فرشهم، نكشتُ شعري فوق الوسادة متسللة في كومة البياض القماشية،، أظنني غفيت، كانت أمي جالسة في المطبخ تدخن سجائرها الثقيلة كعامل طابوق متعب، تهز قدمها وتتصل بي ولا أجيب، فجأة ضربت ثلاجة العشتار بقوة فأرتجف الهاتف تحت رأسي، أجبت فورا:

Telegram: electronic_library

-الو، أمي ما بكِ ...؟

انا إياس. -

كنتُ احاول ان استعيد وعيي، هذا صوت رجولي رخيم حقا، انه حبيبي ... مددت يدي على المنضدة التي تجاور فراشي، آه، لا منضدة ... أين انا؟؟؟ وأين السقف المقرمش بالرطوبة؟ تذكرت أنني في الحلة مع إياس في بيت عمته...أجبته بصوت خافت ...

-إياس... ما بك؟

-تبدين جميلة جدا وانتِ نائمة، الاميرة النائمة.

-استرقت النظر الي؟

-كثيرا ... وما زلت

-لص.

-لص حُب.

-أحبكَ.

-أحبكِ... اول مرة اعرف ان الحلة مدينة ساحرة

-أخبرتك.

- كما أني لم أكن يوما حارسا لإلهة.

-كما أني لم أبت ليلة مع حارس قط ... هههههههههه

-شبعاد ... هلا قُمت من فراشك وأتيت الى نهاية السطح من الجهة الأخرى.

-كلا، إياس، لا أستطيع، عمتُك وفرح وتارة واحمد كلهم في السطح معنا، لن أستطيع.

Telegram: electronic_library

-انهم يسبحون في احلامهم الان.

- كلا إياس، عُد لفراشك ونم ارجوك، اخاف ولن أتي ولن اتحرك من فراشي. -

- فَزارة يا جبانة ... تعالي الان.

- وداعا إياس.

هذه المرة أقفلت الخط بوجهه قبل ان يُسمعني صدى صوتي ... غطيت رأسي بالشرشف وانا ابتسم بهذا العشق المجنون وتذكرت « كُن ثملا بالحب ... فالكون كله محبة »، سلمتُ نفسي للأحلام مرة اخرى ...لم يمر الكثير من الوقت حتى سمعتُ همسا بأذني نقيا وصادقا جدا يزيح الشرشف ويخبرني.

-هل تظنين يا مجنونة، ان مؤمنا مثلي قد لا يتعبد في ليلة مقدسة كهذه!

فتحتُ عيني، كانت عيناه الناعستان تلمعان في الظلمة فوق رأسي مباشرة وهي تنثر نظرات حبها على وجهي.

- تارة بجانبي ستفيق، اذهب الان.

وضع اصبعه على شفتي لاصقا السكوت بصوتي... حملني كحمامة ناجية من هجرٍ قسري، والشرشف يتطاير كأجنحة مسالمة، طوقت رقبته التي أحب وبددت قدمي للهواء الطلق... احتضنته كأني احتضن تاريخي بأخطائه بصوابه، بإخفاقاته بإنجازاته، لا يُهمني الى اين سينتهي بي الحال معه، لا اريد معه خطط او جداولا او مواعيد اريده بلا أمان بلا احلام بلا امال بلا اي استراتيجيات سخيفة او مهمة، اريده فقط كما هو الان بكل شفافيته، أحب هذا الكيان لدرجة ان حبه جرح في قلبي لا يستكين ولا يستطيب ... عطره يلعن تعقلي ويتحد مع تمردي كحلفٍ اسطوري.

Telegram: electronic_library

-طوقني الى الابد

-أحبيني الى الابد

-تفرق كثيرا ان أحبك الى الابد، او الى اخر يومٍ في حياتي، وانا أحبك الى الابد... الى الابد يا إياس.

أنزلَني على رؤوس اصابعي المطلية بالأحمر، كأنه يطلق العنان لجسدي ان يشتعل برقة الباليه... النظر الى عينيه الجميلتين يشبه كثيرا لحظة ولوج الطائرة في بياض الغيمة كأن تشعر ان هذا الكون أصبح مفتوحا ولا حدود له.

-انا ورقة كاربون وحبرك يطبعني بكل مكان

-ويطبعكِ في الحلة الان.

-واطبع قبلة على شفتيك.

قبلته مضطربة بلا توازن كزلزال يصدع شفتيه

-انتِ همجية رقيقة، شرقية عفيفة وغربية انسانية، متحفظة ومتحررة ... صادقة ومخبئة جيدة، أميرة وجندي... أجهدتِ قلبي بتناقضاتك، من أين أتيت؟ ... من انتِ؟

-انا حبيبتك

-انتِ لي ... افهمي، أنتِ لي انا وحدي، انتِ ملكي.

-ضعني في قلبك، لأضعك في قلب الدنيا.

-فزارة، اتمنى كثيرا ان اتحرر من جسدي الناضج هذا، واترك هذا الصبي ابن العشر سنوات يخرج الان، وهو يشتم العادة التي تحتقر الرجل الذي يبكي، لا أحب ان تبقى دموعي قطرات مثلجة في مجمدة عيوني، انا معك اتجرد من كل الاقنعة

Telegram: electronic_library

التي ألبسني اياها اهلي والمدرسة والحي والحروب، وكلما اراكِ وانتِ بهذه النعومة والجمال، اريد ان ابكي من هول الخوف الذي خفته في المعارك وكتمته في صدري... كلما رأيتك يمتزج اللون «الخاكي» مع الابيض في لوحة سوريالية امامي ... ضميني يا فَزارة ... انا طفل ألبسوه جسد الرجال.

...

جلسنا على الارض وانا اضيع في حضنه وأُسَبِح بأصابعه بكل قُبلة، تشبعت بعطره وسافرت الى بغداد، دخلت الى العمارة، كانت المصابيح صفوفا منيرة مرصوفة بأناقة في مدخلها والاسلاك متناسقة ومخبئة تحت الطلاء الابيض الجديد، ارضية الدرج مغلفة بسجادٍ بنفسجي مريح، لا يمكن ان اكون في العمارة المريضة ذاتها، طرقت الباب ففتحته امي معاتبة.

- فزارة ... أين كنتِ

- انا مع إياس ماما، تزوجت في الحلة

- دون ان تُخبريني

- أين أريكتي؟ اريد أن اخذها معي للحلة

- لقد كسرت

فتحتُ عيوني فجرا والدموع تنهمر كشلالٍ ثلجي حزين، مسحتها وانا لا اعلم لماذا ابكي...متى اعادني إياس الى الفراش؟ ضممت الوسادة الى صدري وكتمت صوتي وانا ابكي بكل تدفق، كان الديك يسابقني في صياحه، ربتت يد حنونة على شعري وهي تمسده... ثم رنم الصوت فوق رأسي.

Telegram: electronic_library

-فزارة يا حلوة... لماذا تبكين

- عمتي.

- أخبريني حبيبتي... ما بكِ؟

قمتُ من فراشي وجلست قبالتها وانا امُسك بيديها وانظر الى تارة النائمة والتي لا اريد ان تراني هكذا.

- لا شيء عمتي ... وجدتُ نفسي ابكي دون وعيي.

- هاتي يديك الصغيرتين وتعالي معي.

نزلنا انا وهي الى المطبخ، ناولتني حجابا اسود

- البسيه يا بنتي، هذه المدينة مغطاة بالأقمشة الحزينة.

- اريد عباءة ايضا، هل لديكِ عباءة اخرى ارتديها

ابتسمت عمة إياس وناولتني عباءة فرح... ليست كل النسوة هنا تلبس العباءة العراقية الا ان عمة إياس ترتديها وكنت أحب ان اجربها علي... وان اتسكع في ازقة الحلة بها بكل انبهار

- لنذهب في نزهة ونشتري فطورا ونعود ... « قيمر » ولا اشهي ولا ألذ منه، أتعلمين يا بنتي، الناس يأتون من كل مكان ومن بقية المحافظات لشرائه وانتِ اليوم في قلب الحلة فلابُد ان تذوقيه طازجا.

فتحت عمة إياس الباب وهي تجر يدي بكل رقة ثم انها جذبتني صوبها، كان الفجر يهطل علينا بشفافية وجمال.

-تحبينه؟

Telegram: electronic_library

فاجئني سؤالها، ثم لماذا اتفاجأ انها حتما ستدرك من خلال تقربي الشديد منه أني أحبه واعشقه، نظرت اليها من خلف سواد العباءة ونطقت بعيوني « أحبه «

-يبدو مولعا بك... لقد كان ابو فرح مولعا بي ايضا تزوجني صغيرة بالعمر، كنت اراوح الثلاثة عشر من عمري رغم ان أمي اعترضت على تزويجي لأنها تزوجت بسن الثاني عشر وتألمت كثيرا ليلة زفافها وتعرضت لنزف شديد، حتى انها لم تحبل لفترة طويلة ثم انها حبلت وتعرضت للإجهاض، كانت امي تقول ان جسدها الصغير الطفولي لم يقو على حمل طفلٍ اخر في احشائها، وهكذا اعترضت امي الا ان العشيرة لامتها ولم يسمع أبي اعتراضاتها اساسا وزوجني، حمدا لله كان حظي افضل من حظ بنات عمي فقد كان ابو فرح شابا قمحيا وسيما ويحبني رغم انه عصبي احيانا لا يتورع بضربي ربما لأني كنت اخفق امام طلباته انا التي تزوجت وفي داخلي طفلة تبحث عن امها! كنتُ اسامح ضربه في الليل لأنها يصالحني بطريقة بريئة جدا حتى أني أنسى القسوة التي استخدمها صباحا، على اي حال كل هذا أصبح من الماضي بعد ان التحق اخر مرة بغية طلب اجازة لأن موعد ولادة فرح كان قد اقترب، الا انه غاب غيبته الاخيرة هناك وعاد الى بإجازة ابدية من الحياة ... لم ابك وقتها لقد كنت مصدومة بما يقولونه لي ولم اصدق انه استشهد! بكيت بعد اربعين يوما على رحيله عندما وعيت انها « اربعينيته» اه ما أقسى تلك الايام التي يرافقني نحيبها الى الان، الحقيقة انا لا أستطيع ان اخدع نفسي واقول انه استشهد من اجل قضية! فأي قضية لا تستحق ان يموت من أجلها زوجي وحبيبي الوحيد وتيتم ابنتي لم انس ألمي منذ أكثر من ثلاثين سنة وما زلت أتساءل لو كان ابو فرح مازال على قيد الحياة كيف ستبدو ملامحه في الكبر؟

Telegram: electronic_library

احتضنتها انا والشمس التي كانت بدأت تتثاءب فوق رأسينا ... نظرت الي بعينين ملؤها التعب

-لا تتركيه يا بنتي، إياس يُحبك، عينا العاشق تفضحانه.

نعم، كنتُ أفكر كثيرا بأن اترك إياس، الا ان خيوط نباتي تلتف حوله وتتمسك به أكثر، كنت بانتظار مقص من مقصات خياطي شارع الرشيد حتى يبتر خيوطي.

يكاد يكون حي نادر مقسم الى ثلاث اقسام نادر الاولى والثانية والثالثة كما يقولون، الاولى للمترفين والثانية للبسطاء والثالثة للمعدمين المحاذين للحي الصناعي حيث ورش تصليح السيارات، يعمل العديد من الأطفال هناك، يعانون من بطش الفقر ويلوذون برحمة وقسوة وخطورة مكائن التصليح وثقل المواد الاحتياطية.

هرول طفل امامنا، يلاعب علبة ببسي عتيقة مرمية بين كم النفايات المتراكم في ارجاء الحي... يلعب بشغف وقميصه الابيض مبقع ببقايا دهن السيارات، كنت اتمعن رضاه وسعادته الطبيعية رغم أني كنت حزينة على وضعه.

-العراق جميل رغم كل شيء.

- لا عليكِ سآخذك في جولة لسوق الحلة الكبير « سوق المسكَف»، لا اعلم لماذا يعجبني ان تري السوق هنا، ربما لأني أحبه واتمنى ان تحبيه، سترين ان بائعات القيمر قليلات جدا هنا، لم يعدن يبعن، بل يبعنه لأصحاب المحلات الغذائية ... الا ان بعضهن ما زلن يحافظن على حضورهن.

يبدو السوق كبيرا ملونا بالبضائع التي تتجمل فيه سواء المعروضة بتنسيق او بفوضى، بعض الباعة يصرخون بأصوات عالية ملحنة لجذب الزبائن إليهم، فيما

Telegram: electronic_library

يروج الاخرون بطرقهم الخاصة، السوق مغلف بسقوف لحماية الناس من اشعة الشمس والمطر وللمحافظة على البضائع بصورة عامة، كانت المياه الآسنة تتغمد الفسحة الخارجية بمنظرٍ مؤلم ومشوه بينما يحاول الناس العبور بأقل الخسائر الممكنة دون ان تتلطخ ملابسهم او ارجلهم بها.

اشترينا القيمر وتجولنا بالسوق بسرعة واشترت لي عمة إياس شال « بريسم» وهو احد انواع الشالات العراقية الراقية قالت لي انه هدية «حلاوية « حيث انه ينسج مبدئيا في معمل نسيج الحلة ثم يجهز نهائيا في معامل نسيج بغداد... اخبرتني عمة إياس بما اننا اصبحنا بالقرب من الجسر الخشبي فلا بُد ان اراه، ليست الاثار القديمة جدا وحدها الثمينة في هذه المدينة، بل حتى الاثار الحديثة فجسر الحلة الخشبي من اجمل الشواخص في المدينة وهو مصنوع من الخشب ويستند على ركائز كونكريتية حيث يربط صوبي الحلة ويتوسط جسري الفيحاء والهنود لقد شعرت بمحبة كبيرة تسللت من مسامات قدمي اللتين تعانقان خشب الجسر رغم أني حظيت بكمية تدافع كبيرة الا أني استطعت ان ارقص خلسة ودونما ان يراني الاخرون وان كانوا حولي، لا اتصور ان الرقص من الممكن ان يختزل بكم من الحركات الجسدية الخفيفة، اظن أن هناك كما من الحركات الباطنية للمشاعر ايضا ... ها انا ارقص بخفة على جسر الحلة الخشبي... شعرت عمة إياس بسعادتي مسكتني برفق وهي تضمني اليها خوفا من ان يدفعني احد العابرين مرة أخرى.

-هيا يا فزارة لابد ان نعود الان الى البيت ونجهز الفطور لهم، اظنهم جاعوا لم اتخيل اننا سنتأخر هكذا ... مشينا مسرعين والهواء يركض معي في عباءة فرح.

Telegram: electronic_library

- ١٤ -

قاسمت ظلام العمارة هذه المرة بضيائي، لقد بثق إياس بقلبي هذه المرة كل نوره فعدت مشرقة، كنت اريد ان اقبل ابواب العمارة بابا بابا الا باب عائلة ابو مريم لأني لا أحبه ... فتحت لي امي الباب بألوانها الجديدة ، نظرتها الباردة الخالية من اي ملامح، لم تنظر الي بل الى نقطة في فراغ الممر غير محددة، شعرت أني اتأمل اللون البنفسجي والوردي والازرق والاخضر الطفيف الذي يحيط عينها اليمنى، تَركتْ الباب وتلاشتْ في فضاء الشقة، ركضتُ خلفها وانا اعبر الفوضى او لعنة البعثرة التي حلت على الشقة والاغراض، والاثاث المقلوب رأسا على عقب، كان ابي يقف في الشرفة الصغيرة معطيا ظهره لي غير مهتم يدخن سجائر امي، بينما يسمعني وانا اناديها ...اغلقت امي باب المطبخ فورا وبقيتُ اطرق الباب بهستيريا ثم أني استشطت غضبا.

-ماما، ماما، افتحي الباب.

-افتحي الباب والا كسرته، اقسم لكِ أنى سأكسره، ما الذي حصل هنا؟ أخبريني الان؟

تجاهلتُ ابي لأني اخافه ولأني لا احتاج في هذه اللحظة ان استعين به والشكوك في صدري تخبرني انه هو من ضربها، اختلس النظر اليه بطرف عيني وقلبي الذعر جبان حائر غاضب، لا اعرف ماذا افعل وما الذي حصل لعائلتي الصغيرة والوحيدة والتي هي كل ما املك في هذا العالم؟ كنتُ احاول ان افهم ما الذي حصل بأقل الخسائر الممكنة دون اي شجار اخر

Telegram: electronic_library

-افتحي الباب امي سأكسره الان اقسم لكِ؟

دفعت الباب بكل قوتي، كنت هزيلة والباب عفريت قوي اضربه على صدره دون جدوى، دون ان يشعر بأي ألم او اضرار او كسر، كان العفريت وفيا يحمي امي ويحقد علي ويدفعني بعيدا عنها، كل ما في الشقة مضعضع ومريض وممتلئ بالرطوبة التي رققت كل شيء الا الابواب صلدة لا تُفتح امام انكساراتنا وخيباتنا ودموعنا وافراحنا وانتصاراتنا، موقفها « مغلق بأحكام « دائما... يبدو ان امي تعاطفت مع محاولاتي البائسة وفتحت الباب... جذبتني من قميصي وادخلتني الى المطبخ واغلقته مرة اخرى، اعطت ظهرها لثلاجة العشتار بينما اصبحت قبالتها، كنت انظر الى الثلاجة وصور أبي وهو يدخن سجائر امي هادئا تتوارى امامي ... نظرت الى امي المنكسرة الغاضبة، وجهها كوجه مهرج ، يخفي خلف الوانه احزانا عميقة،، احتضنتني وهي تبكي .

- أشبعني ضربا.

كانت كلماتها تسقط عليا كصقيعٍ قاسي لئيم.

- لماذا؟ ما الذي حصل؟

- ليس ضربا فقط، بل انه انهال عليّ بكل انواع السباب والشتم البذيء المقرف.

- لماذا، اخبريني فقط لماذا؟

- لأني سمحتُ لك بالذهاب الى الحلة مع صديقتك، اخبرني أني افسد تربيتك وانني عاهرة ابيع ابنتي فريسة سهلة للمجتمع، تشاجرنا كثيرا وانا اخبره انه كالخنزير بلا غيرة او شرف لأنه تركنا منذ سنوات وتخلى عن مسؤوليتنا، كنتِ صغيرة تبكين في

Telegram: electronic_library

الشتاء من شدة البرودة وانا اتوسل به ان يشتري لكِ الملابس، يومها لم أكن اعمل ولم يكن عندي دينار واحد، كنت اغطيك بالبطانية واضمك الى صدري وانا احاول ان أدفيك، كنتُ احاول ان أدفيكِ من بردٍ اورثتكِ اياه وسيظل يلاحقك مدى الحياة، سمحتُ لكِ بالذهاب للحلة لأني اشعر بالخيبة الكبيرة التي تشعرين بها، وبالانكسار الواسع الذي فطر قلبك، ولأن الظروف التي مررتِ بها الفترة الاخيرة كانت قاسية عليكِ، اردتكِ ان تخرجي قليلا وتري ان الحياة فيها شيء جميل خارج هذه الشقة الملوثة، فيها أمل، لا اريدكِ ان تبقي بائسة حزينة مثلي مرمية للعويل مع الجدران...

- حبيبتي

- تشاجرنا كثيرا، وانصرف كل واحد منا الى مكانه الرتيب، عاد الي ليلا وهو يستعرض اجزاء جسده المترهلة القذرة، محاولا اغوائي، دفعته بكل قوتي، لكنه سقط عليّ كوحش بشع، صفعني بهمجية مرارا وبدأت اتذوق دماء حلقي، مزق ملابسي وانا ابكي واصرخ وادفعه بيأس، ظل يبصق على صدري وهو يهينني ويصرخ « عاهرة»، شعرتُ ان شيطانا يدخل بي يأكل احشائي، بلحظة ما خفت قوته قبل ان يلفظ ماء بشاعته دفعته بقدمي، وهربت، ركض ورائي واشبعني ضربا، شعرت انه قطف كل بويصلات شعري... آه أكرهه، أكرهه، أتعلمين أنى أكرهه؟ أكمل جريمته بأن ضربني بالساعة الجدارية على وجهي... انظري لعيني... أكره هذا المسخ.

لقد صعقت وجننت وتوقفت نبضات قلبي وانا اسمع امي تروي لي جريمة اقترفها ابي! ابي وليس شخصا اخر، كنت اظنه قد أصبح انسانا سويا.

Telegram: electronic_library

- لقد اغتصبني ابوكِ.

ظل صدى جملتها يعيد لحنه في رأسي « لقد اغتصبني ابوكِ» «لقد اغتصبني ابوكِ» ما الذي افعله الان؟ اننا نعيش مع مجرم او مختل عقليا يقف في البالكون بينما نرتجف نحن من جريمته المقرفة التي تقشعر لها الابدان؟ كيف استطاع ابي ان يفعل ذلك بأمي ... ضممتها الي وقبلت رأسها.

- حبيبتي ... امي لابد ان نخرج من الشقة الان ونتصل بالشرطة.

- انتِ خيالية؟ كيف نشتكي على ابيكِ عند الشرطة؟ ما الذي سنقوله في التحقيق؟ أني رفضت ان انام مع زوجي؟ وكيف سينظرون الي؟ سأكون فريسة لذيذة بالنسبة لهم، ما الذي سيقوله الناس عنا في حال اشتكينا عليه؟ اشتكت عليه لأنه اراد منها حقه؟ سيتهمونني بالعهر مثلما يتهمني، لأني رفضت اطاعة اوامر زوجي ... لا أحد سيرى عيني المضروبة او يشعر بجسدي المنتهك ... سيفسرون ويرون ويحللون مثلما يريدون ومثلما هو أسهل دائما، فالحديث بالسوء عن الناس أسهل بكثير من مدحهم وتذكر سلوكهم الجميل.

- فليذهبوا الى الجحيم جميعهم، لا يهمني ما سيقوله الناس.

- بل يهم، ما زلتِ باكرا لم تتزوجي، لن يتقدم أحد لخطبتك وهو يعرف ان اباك مجرم، سأتحسن انا وستزول هذه الاثار مع الأيام.

- لا يهم، لا اريد ان اتزوج ... هذه سخافات امي، هذه التبريرات لا تستطيع ان تكون كافية لردعي الا اشتكي عليه.

- اخرسي فزارة ... تشتكين على أبيك؟

Telegram: electronic_library

- أبي مجرم ... لماذا اتستر عليه؟

- لأنه أبوك مهما حصل.

- لا اريد.

حل الصباح وانا أحبس نفسي هنا في المطبخ، طرق الباب على مهله وهو يعتذر لي بهدوء، كان خائفا من رد فعلي، لكنه واثق بأني لن اشتكي عليه مثلما ظل واثقا مني سنين طويلة.

قالت أمي: انا اشتكي عليه ولن يكون لي اي رد فعل معه مالم تخرجي انتِ من هذا المنزل، انتِ اهم مني لأني متُ منذ ذاك الحين... إذا كنتِ تريدين ان تساعديني بأن اتخلص من هذا الحيوان، فخلصيني من مسؤوليتك اول وتزوجي ارجوكِ ...

انفجرنا بالبكاء انا وهي، جلسنا على الارض ونحن نضع رأسينا في حضني بعضنا، غفونا على هذا الحال، فتحتُ عيني بعد برهة، كانت امي تنشد ادعية حرز فوق رأسي وتقرا آيات قرآنية وتقبلني على مهلها...

- اتذكر اول مرة شعرتُ بنضبك ببطني، كان الصيف يقرع اجراس بغداد، كنتُ نائمة قرب « المبردة» وهي تضرب بهوائها المستعجل شعري، التواءات متتابعة رقيقة في بطني، غصت عيناي بالدمع ووضعت يدي على بطني كأنني احتضنك، تمنيت أني أستطيع ان انحني لأقبلك... اظنكِ كنتِ تبتسمين في رحمي، فرحتُ بك كثيرا، سبحان الله، يضع الحب في الجسد انسانا اخر ... في الجلسات النسوية، كنّ يخفنني من الولادة، يقلن انه ألم ما بعده ألم ولا يحتمل، كنت اسال امي، هل حقا ما يقلنه؟ تخبرني « انسان اخر سيخرج منكِ ما الذي

Telegram: electronic_library

تتوقعينه»؟ كن يخبرنني بأن الممرضة او الداية ستضربني وتصرخ بوجهي اذا ما صرخت او اعربت عن ألمي، او انها ستشق عجاني لتسريع عملية الولادة ، كانت فكرة ان تقترب مني اداة حادة للشق تخيفني وكنت اخاف ان تشقني بينما يخرج رأسك مني، ذهبت الى المستشفى وانا خائفة عليكِ لا علي، توسلت الممرضة ان تتمهل ولا تستعجل وبأني سأكون حاملا مطيعة،، سلمتها نفسي وانا اضغط على نفسي واكتم ألمي ببعض ردائي حتى لا اصرخ وتستفز الممرضة وترتكب خطأً شنيعا يؤذيك... ثم جئتِ انتِ بعينين لامعتين، وضعوكِ على صدري وانتِ تبكين وانا ابكي من فرط ألمي وسعادتي بكِ، تدفق حليبي يبحث عن شفاهك الرقيقة وهي تقتنص حلمتي بكل براءة بحثا عن غذائها، آه، الان اتذكر وجهكِ الصغير ذاك في المستشفى، اشعر بالذنب... ما الذي فعلته بك؟ لماذا جلبتكِ الى الدنيا وهذه معاناتي، كنتُ انانية يا فزارة .... كنتُ انانية واردتُ ان اشعر بالأمومة بأي ثمن...

صُفق باب الشقة، يبدو ان ابي خرج، خرجنا من المطبخ بينما صوت حساس الثلاجة قد فصل، ادخلت امي الى الحمام وهي معارضة وازلت الشرشف الذي كانت تتغطى به... كان جسدها هزيلا ابتلى بترهلات العمر، احتضنتها كأنني احتضنت طفلا حديث الولادة ببشرة حساسة ناعمة، أجلستها على التختة وانا ابتسم لها محاولة تخفيف آلامها... لم تستطع امي ان تخبئ دموعها مع قطرات الماء مثلي، بدأت بالبكاء فور اعطائي امرا لصنبور المياه بالتدفق...

- سأحممكِ انا هذه المرة، ستنتعشين...

Telegram: electronic_library

سكبت الماء على شعرها الطويل، ما أجمل الشيب الذي غزاه والذي كانت امي معتزة به جدا وترفض ان تطليه، اغرقت « الليفة» بالصابون والماء ورحت ادعك جسدها الرقيق بكل هدوء، كنت اتحسس تشققات بطنها التي خرجتُ منها... ابعدتُ الليفة محاولة ان اتفحصها لكن امي دفعت يدي بوحشية فورا، كنتُ منحنية قبالتها وانا احممها فلم يكن من دفعتها الا ان اوقعتني على الارض واصطدمتُ بالأنابيب الرمادية الظاهرية التي خلفي... نظرت الي وراحت تسكب الماء على شعرها بطريقة هستيرية ... اصابني الفضول، اريد ان اعرف هل تزول تشققات الولادة؟

- امي انا اسفة، ما هذه التشققات؟ ... هل هي بسبب الولادة؟ الا تزول مع تقدم العمر؟

واصلت امي سكب الماء بعصبية ثم انها دعكت قدميها بالحجارة السوداء واقفلت الصنبور ... نظرت الي بحاجبين غاضبين

- اخرجي فزارة، اريد ان البس ملابسي...

- الا تحتاجين مساعدة

- اخرجي يا بنتي، وناوليني اي رداء من الخزانة.

- حاضر.

انتظرت امي في غرفتها،، اودعتها في السرير وطلبت مني ان اتركها وحدها، اطفئتُ الانارة ورحتُ اتمعن بالخراب الذي حل بالشقة، احاول ترتيب ما حصل هنا، اعيد الاشياء الى مكاناتها الاصلية، حاولت ان اعيد الساعة التي ضرب أبي بها امي لكنها كانت تقف على الحائط مائلة، بعض الاشياء عندما تخلع من مكانها

Telegram: electronic_library

الاصلي لن تعود كما كانت عليه مطلقا... دخلت الى غرفتي التي اصبحت مدخلا مجانيا عاما للجميع، تفحصت اريكتي كانت على ما يرام، التصقت بسريري وانا اتفحص هاتفي ... لا رسالة من إياس ولا مكالمة، اتصلت به، جاءني صوت انثوي خبيث يخبرني ان الجهاز مغلق او خارج منطقة التغطية، كنت أتساءل لماذا لم يخترعوا خيارا آخر لتغطية ما هو خارج التغطية، جهازا روحانيا مرئيا لا يعترف بالمسافات والحواجز ونقاط التفتيش والاشارات المرورية والزحام وشبكات الاتصال والظروف والعوارض الاجتماعية، جهاز اسمه المستحيل يصلني بك بكبسة قلب ... خائفة يا إياس، خائفة ان اظل عالقة بهذا الحزن والكبت والألم كل عمري، منذ ولادتي وانا لستُ على ما يرام واخاف ان يمضي العمر ويبقى اليرام ليس عليّ... ابي اغتصب امي وانت سرقت ايامي، جريمتان أمامي وان كانت الاولى بشعة، الثانية مؤلمة، ليس ضروريا ان تقتل انسانا برصاص سلاح مدمر، او بطرق ارهابية يكفي ان تقطف قلبه وتقضمه بهدوء فيغدوا شهيدا تصلي عليه الايام ... وانا اتفحص جهازي الايفون الان محاولة ان أهدئ نفسي لأنك لم تتصل، ارى ان شعار الشركة هو تفاحة مقضومة، قالت الشركة « جمال الاشياء ليست في الاكتمال» ...فهل جمالي ان ابقى حبيبة بلا اكتمال يتحد بك؟ بعض ألم تعقبه متعة من نوع خاص، تماما كما نضغط على سنٍ منخور مطولا فنشعر براحة موجعة، اذكر ان القضمة كانت موجعة وممتعة معا، تفاحتي بعهدتك، ارجو ان لا تتركها للتعفن وحيدة، لم يكن ذنبي انك قطفت قلبي في سلة حبك، كنتُ مولعة بحضن السلة، « الجاذبية ليست مسؤولة عن وقوع الناس في الحب»، الجاذبية عميلٌ ماكر يستدرج الناس للحب، هكذا كانت عيناك.

Telegram: electronic_library

كتبتُ على صفحتي في الفيسبوك « اتقِ حب من اشتقت اليه»... ضجت اشعارات الفيسبوك بالاعجابات والتعليقات، اه، ليس هناك أكثر ألما من كون ان الناس تستمع بأوجاعك ...

اقتحم هدوئي دجتل ارت ... ارسل يسألني عن اختفائي.

- فزارة، غائبة كعادتك، تتعبدين لوحدكِ في عزلتك

- العزلة وطن.

- كيف حالك؟ اتمنى ان تكوني بخير.

- انا بخير، شكرا لك، وكيف حالك انت.

- انا مبتهج، لقد رسمتك واخيرا، وجهك ملائكي رقيق، دقيق حد الفتنة.

- كيف خطر ببالك ان ترسمني.

- انا رسام، أتحسس مواطن الجمال وابتلعها بفرشتي ... للأسف ليست لديكِ سوى صورتين... انتِ مقلة بالنشر ..... لكن رغم هذا هيأت لكِ بيئة معبرة ...

- اصابني الفضول هل أستطيع ان ارى اللوحة.

- بالتأكيد، كنتُ انتظرك ... حتى اريكِ إياها لكنكِ غائبة منذ فترة، سأرسلها فورا

كانت لوحة مبهرة، دخانية، غرفة كبيرة مبعثرة، حذاء باليه متدلي الاشرطة معلق قرب الباب، بكرات الخياطة والحياكة متناثرة على الارض، وانا اجلس على الارض واضعة يدي على قدمي وانظر الى الحذاء، لا اعلم ما هو لون الفستان الذي ارتديه، لان اللوحة بالأبيض والاسود، لكن الجزء العلوي اسود والسفلي يبدو مثل كومة التول الابيض... أحببت اللوحة جدا اغدقتني بإحساس رطب بارد لطيف...

Telegram: electronic_library

- واو، انها رائعة ...... شكرا لك حقا، لقد فاجأتني حقا ، كيف استطعت ان ترسمها، أنها مذهلة.

- انه انتِ من رسمها يا فزارة، انا لما أكن افعل شيئا لقد كنتُ احرك اصابعي فقط.

- الحذاء !

- نعم وقد اشتريته لك، أبتعته من برلين، أتدرين، أن صاحبة المحل، رفضت ان تبيعني اياه، قالت ان الفتاة لابُد ان تحضر لقياسه، لأنه احيانا يتطلب الأمر تدخلا فوريا لإصلاحه، فقد تكون قدم اكبر من قدم، او قد يكون الحذاء قاسيا لابد من تليينه، أو قد يكون صغيرا وان كان القياس مضبوطا، اخبرتها ان قدمك ٣٧ لكن مع هذا فأنها قد اعطتني ٣٧ ونصف بالإضافة الى انها قد اضافت « دبانة» واخبرتني في حال انكِ شعرت ان الحذاء صغير ازيلي الدبانة فقط... انه جميل جدا بلون بصلي هادئ وقد وضعته على طاولتي حتى اراه يوميا، انتظر ان ارسله للكِ الى بغداد...

- لا اصدق! اشتريت لي حذاء، اه، شكرا حقا، لكن لماذا كلفت نفسك بكل هذا؟

- لا اعرف يا فزارة، انتِ شفافة جدا، لم نلتق في الحقيقة، لكنني اشعر اتجاهك بشعور غريب، ليس حبا ولا اعتبرك فردا من عائلتي، أنتِ نقية فقط، وأحب ان اقدم لكِ اشياء تجعلك أكثر سعادة ، اعلم انكِ مولعة براقصات الباليه واحذيتهن، واتخيلك وانتِ ترقصين كالفراشة ... اعتني بنفسكِ جيدا، واتمنى ان تتركي العراق وتهاجري، تلك بيئة قاسية عليكِ...

Telegram: electronic_library

- اه لا ليست لي نية بالهجرة، او الحقيقة لم أفكر بالموضوع مسبقا، لا ارى مكانا لي غير بغداد، اتعلم ان شقتنا هنا مهددة بالمصادرة لأن صاحب العمارة يريدها، اين اذهب في دولة غريبة؟ لا اعرف لغتهم ولا اعرف كيف يعيشون؟

- حقا؟ ما هذا ... لا عليكِ، لدينا مشتمل صغير في بغداد متروك في منطقة المنصور، يحتاج تنظيف عميق فقط، لابد ان الغبار قد ابتلعه الان، تستطيعين التواصل مع ابن خالي، هو من يزور البيت بين فترة واخرى لتفقده ... سأرسل لكِ صور المنزل...

- انا اشكرك حقا، لكنك حقا لا تعرفني كيف تعرض عليّ بيتك، معرفتنا فيسبوكية....

- اه، فزارة، الناس اليوم باتت تتزوج عن طريق الانترنيت ... ثم ان البيت سيبقى باسم أبي هههههههه، الا إذا تزوجتني وحولته باسمك... الناس للناس يا فزارة.

- شكرا أرت... اشكرك موقفك النبيل والان انساه حقا، لقد وجدنا سكنا اخر ... لا عليك.

وصلتني صور منزل دجتل ارت ... يبدو انه بيتٌ صغير، فيه اثاث انيق، وهناك درج ممشوق يصل الى الطابق الثاني... الدرج !!!! رحتُ اسبح كالسمك الخائف في عمق الذكريات، تذكرت الدرج الخشبي في بيت احمد وتارة، جلسنا انا وإياس مرة اعلى الدرج، وضعت كلي في حضنه واحتضنت ذراعه، خبئت رأسي في عنقه، خشيت النظر اليه مباشرة، عينياه ساطعتان لا اقوى التجذيف بتجاههما، تركت

Telegram: electronic_library

اصابعي ترسم الحب بين شعيرات لحيته.

- إياس... متى سنتزوج؟

- عندما تتعلمين الطهو.

- ومن قال أني لا اعرف كيف أطهو؟

- ما الذي تعرفينه؟

- انا اعرف يا حبيبي كيف اعمل بيضا بقشوره، رزا برائحة الاحتراق وشايا بنكهة المرارة ... ما الذي تريده أكثر من ذلك؟

- لا تعرفين كيف تصنعين الحلويات...

- حبيبي؟ تكلفة عملها بالبيت أغلى، تستطيع شراء عسل والاكتفاء بذلك ...

- فزارة! من سينظف البيت؟

- انتَ بالتأكيد حبيبي؟ الا تعلم أني أعاني من اعاقة في ظهري منذ الولادة؟ اعلم أنك تخاف عليّ جدا لدرجة ترفض ان اقوم بأي شيء ... ههههههه

- فزارة ... من سيغسل الملابس؟

- انتَ حبيبي بالتأكيد، لدي حساسية من مساحيق الغسيل ... ثم ان العملية ليست متعبة بالمرة إذا ما اشتريت غسالة اوتوماتيكية تخلصك من شرور ملابسي وتعينك على ذلك ...

- فزارة ... من سيحمل الطفل؟

- انا هههههه، هذه قوانين الطبيعة لا نستطيع التغلب عليها سأحمله ٩ شهور وتعتني به انت كل السنين.

Telegram: electronic_library

- ملعونة انتِ هههههههه، أحبك كثيرا، لا تقلقي، ستبقين اميرتي المدللة، لن ولا يهمني فليبق البيت فوضى ونجوع معا، الا أني اريد بنتا تشبهك، لها عينيان كعينيكِ وذقن لطيف كذقنك ...

- وانا اريدها متمردة كوالدها، ومتذمرة كثيرة الشكوى مثله ....

- هههههههه شيطانة، شيطانة ...

- إياس افتح فمك

-لماذا؟

- هيا، افتح فمك، اريد ان اضحك بفمك.

- مجنونة ... كيف تضحكين بفمي؟

كنتُ اضحك من كل قلبي، يا لفرط السعادة التي يغمرني بها ونحن معا، كان سقف فمه يهتز من صدى ضحكي ويعود الي مبطنا بالقُبل، نمت على اوجاعي وخوفي ان يخذلني إياس هذه المرة ويختفي بجدول الغياب والحضور الذي ابتدعناه دون ان نعي بذلك، فتارة اختفي انا وتارة يختفي هو لكن الحب الذي بيننا اقوى وجه في هذه المعركة لا يختفي ولا يتراجع مطلقا.

Telegram: electronic_library

- ١٥ -

ابي غائب منذ يومين وإياس مختف منذ ان عدنا من الحلة، امي معتكفة في غرفتها لا تتحدث الا قليلا، احاول ان اخفف عنها لكنها ترفض الحديث وترفض الطعام ليس لأني طاهية سيئة لا تجيد عمل شيء سوى « الاندومي» لكنها بدأت تفقد الشهية نوعا ما، مستلقية في فراشها كالحمامة المريضة، اظنها تتدثر بذكريات طفولتها بعيدا عن الزواج الذي لم يجلب لها شيئا سوى التحطيم بمطرقة الاستخفاف بمشاعرها، فكرت ان مطالب المرأة من الممكن ان تضغط كما تضغط الملفات الكبيرة في انظمة الحواسيب مادامت تملك برنامج « ون رار» او غيرها من برامج الضغط، من الممكن ان يستخدم الرجل برنامج ضغطه الخاص ببعض الكلام المهدئ وتطييب الخاطر، دون استخدام الالفاظ العنيفة والسوقية والسب، من قال ان هذا الاسلوب قد يجدي نفعا مع المرأة؟ انهم لا يحسنون التصرف على الاغلب ويميلون لاستخدام القسوة، كأنهم جنود حرب حتى في منازلهم، ربما ارادت أمي ان يذهب ابي الى الجبهة دون عودة لهذا لم تسألني عنه مطلقا، احاول الاتصال به لكن هاتفه مغلق، تبا للهواتف المغلقة التي بدأت تستنزف اعصابي وهدوئي، قضيت هاذين اليومين اتنقل بين أريكتي وفراشي ومطالعة نصائح الفيسبوك للمنكسرة قلوبهم مثلي واتذكر سفرة الحلة مع إياس، يبدو انه التاريخ الذي سأحمله بقلبي الى الابد، طرقاتٌ على الباب بغضبٍ شفيف، ظننت ابي قد عاد، هرعت لفتحه... تفاجئت! لم تكن ملامح ابي بل كانت ملامح

Telegram: electronic_library

جامدة لرجلٍ يحمل بين يديه ورقة أمر من محكمة بداءة الكرادة بإخلاء الشقة خلال مدة اقصاها ثلاثة أشهر، كان المُبلغ برفقة شرطي، لا اعرف مما كان يحاول حمايته، مني انا؟ انا الضعيفة، الهشة الفقيرة، التي لا أملك الا ان اعود لأمي الان وأخبرها بأننا لابد ان نخلي هذه الشقة المريضة قبل ان ترمى اغراضنا القديمة والمتراخية في الشارع؟ بت اتخيل شكلي مع عائلتي وكومة الملابس تحيط بنا والناس يتفرجون علينا بأسنان لامعة وهدامة في قطعة ارض ابي رازق التي تعيش فيها المولدة ...

لا اعلم كيف سأخبرها، ستصدم بهذا الخبر، هي ليست على ما يرام، امي ماتزال جميلة ورشيقة الا ان التعب الداخلي الذي تمر به بدأ يأخذ منها بريقها، لا اعلم لماذا لم تستطع ان تحتوي أبي وتغيره، لكن هل تستطيع المرأة حقا ان تغير رجلا؟ لا اظن، ابي غول ومشاعره همجية مثله، اعلم انه يحبني وأمي لكنه يفشل بإيصال هذه المشاعر دائما، مصر على استخدام اساليبه العنيفة .... لن أخبرها الان لدي ثلاثة أشهر أستطيع ان أجد خلالها حلا، اتمنى ان يعالج صاحب العمارة شققه المريضة هذه ويحتفل بأموالها بسعادة.

اتصلت بتارة أسالها عن إياس، كانت مشغولة جدا عند الطبيبة النسائية، اصابها هوس الاطباء عل واحدا من علاجاتهم سيكون قادرا ان يثبت نطفة احمد في رحمها لتنفخ بطنها بطفلٍ جميل، لا أستطيع ان انكر أني احيانا احسدها رغم انها صديقتي، احسدها لأنها تنام الى جوار حبيبها كل ليلة وتتدثر بذراعيه وتمتعض منه اذا ما ايقظها باكرا وتتشاجر معه على الزيتونة الوحيدة بوجبة البيتزا، ترمي بنكاتها التافهة

Telegram: electronic_library

عليه بين الحين والاخر ويستمتعان بها، وها هما يخططان بكل محبة ان يرزقا بطفل يصهر ملامحهما معا في وجهه ... اخبرتني على عجل ان إياس لم يتصل بهما منذ ان عدنا كما ان محاولات الاتصال به تؤشر ان هاتفه مغلق منذ ان دخلنا بغداد وافترقنا على امل اللقاء مرة اخرى ... اغلقت الخط قلقة لم اشُعر تارة بذلك، واعلم بأنها لن تستمع الى شكواي الان بقدر ما تريد ان تسمع الطبيبة شكواها... انا قلقة من هذا الغياب ومخاوفي هي ان يغيب عني هذه المرة الى الابد، لقد اقترفنا ذنب العودة لبعضنا بعد وعود جمة منا حتى ننهي هذه العلاقة الممنوعة اجتماعيا...

رن هاتفي، قفز قلبي، اه انه إياس، لابد انه هو، اظنه ذهب كإعلامي لتغطية احدى البؤر الساخنة وقد اضطر لغلقه... حجم خيبتي لا يوصف عندما رأيت ان المتصل هو مؤيد، تبا، لابد ان اتحمل غلاظته وعجرفته المفرغة ...

- فزارة، كيف حالك ...

- اهلا مؤيد

- مشتاقٌ لك

- كيف حال اهلك؟

- بخير ومشتاقون لكِ ايضا

- ماهي اخبار السيارة

- اتصلت بكِ حتى تعرفي ان مؤيد الذي بين يديكِ ليس قليلا ... لقد بعتُ السيارة وبسعرٍ مناسب جدا واربحتُك بها بالأساس ... ربحتِ بها ألف دولار يا فزارة

- كيف ربحتُ بها؟ ظننت أني سأبيعها تحت قيمتها.

Telegram: electronic_library

- اوووووه، كيف تقولين ذلك يا عزيزتي، انا مؤيد لا يفوتني شيء، كما أني انجح بأي شيء ادخل فيه...

- حسنا جيد، من اشترى السيارة.

- اشتراها رجلٌ من البصرة، يأتي بين فترة واخرى الى بغداد، أخبرني انه ليس مستقرا هنا، لكنه قد يحتاجها عند بقاءه في بغداد.

صُعق قلبي، رجلٌ من البصرة؟ أيعقل ان يكون يوسف من اشتراها؟ أن ما يحصل يبدو كفيلم هندي امامي ...

- طيب، ألم يسأل عن اسعار السيارات بصورة عامة؟ كيف اشترى سيارة بثمن اعلى مما تستحق؟

- لا، انه ليس من النوع الذي يهتم، لديه الكثير من الاموال للبذخ، لن يهتم بألف دولار قد تغنيه عن البحث في المعارض، هذا بالإضافة الى أني يا عزيزتي كنتُ مروجا ممتازا وقد رغبته بها حتى دفع أكثر من المبلغ المطلوب ...

- ما اسم المشتري؟

- اسمه يوسف ...

- حقا!!

- نعم، لماذا؟

- لا عليك مجرد فضول ...طيب مؤيد شكرا لك لن أنسى موقفك هذا معي، انتظرك لإكمال الاجراءات... امي تناديني الان لابد ان اذهب.

- حسنا عزيزتي ... نلتقي قريبا.

Telegram: electronic_library

يوسف اشترى سيارتي؟ أيعقل ان يكون الامر صدفة؟ هل اشتراها دون ان يعلم انها لي؟ وهل اشتراها حقا لأنه بحاجة لسيارة... وهل تفوت هكذا تفاصيل على شخص مثل يوسف؟ انه ملاحق جيد، ومخابراتي حذق يعمل بصمت ويفاجئني بكل ثقة بين فترة واخرى، لا اعرف كيف رماه القدر على كومة حياتي المبعثرة، اخر همي الان هو ان أفكر بشخص مثله، ليس لأنه سيء، اعلم ان اي فتاة قد تحلم بشاب مثله ازرق العينين، صانع مفاجآت جميلة، حنون بما يكفي، ومتمسك بي رغم سيئاتي معه، لكني ببساطة لا أحبه، انه لا يعني لي شيئا بالمطلق ولا أفكر به ولو ثانية لولا انه يظهر كشبح هاملت بين الحين والاخر جالبا معه مفاجأة جديدة وسرا اخر، لكنه لا يدفعني لاكتشاف الحقيقة التي يريد هو ايصالها لي... لا يعنيني حبه، فليكن انه اشتري سيارتي، تبا له لا يهمني هذا، سأعامله كأي غريب اشتراها، وهو غريب فعلا...

فتحتُ الستائر ونفضت الغبار المختبئ في القنفات، اوعزت الى هاتفي ان يسمعني موسيقى أحبها، وطلبت من البجعات ان يرقصن في بحيرتهن... دخلت الى المطبخ، ابريق شاي على الطباخ، علبة سكر خضراء وأكواب مدورة وخبز لذيذ، انا وامي نحب اللبن كثيرا، اظنه مواساتنا البيضاء الطيبة، اعددت الصينية واقتحمت غرفة امي، ضربت الباب بقدمي معلنة عن قدومي المدوي هذه المرة دون الاستماع او الاصغاء لأوامرها البائسة التي حفظتني اياها اليومين المنصرمين ...

- امي ... هيا قومي الان

- اخرجي واتركيني وحدي.

- هيا يا كسولة، قومي الان وكفى دلع أمهات.

Telegram: electronic_library

- ارجو ان لا تمزحي معي ليس لي مزاج الان.

- هيا قومي بسرعة ولا تحاولي تجريبي... انا انصحك يا ام فزارة ان تقومي الان هههه، هيا قومي ايتها الكسولة، لقد هربتِ من الخدمة المنزلية اليومين الفائتين، اقول لكِ أني اسوأ امرأة فيما يتعلق بالتنظيف، وانا اسوأ امرأة بعمل الاندومي، كما ان قنينة الزيت انسكبت من يدي وتسرب الرز في أراضي مطبخك لأني كنت احاول ان أطهو الرز ومرق البامية وهو الطعام الذي تحبينه... لابد ان تعودي لحراسة مطبخكِ مني.

- فزارة، انا لا امزح، اتركيني وشأني الان.

- اظن انه لا ينفع معك اسلوب اللباقة التي تتكلم بها سيادتي، سترين الان ...

وضعت الصينية على الطاولة، وهرعت اركض كالمجنونة افتح الستائر في غرفتها الرتيبة الممتلئة بأنفاس حزينة وضجرة ... قفزتُ على سريرها وهي تصرخ فزعة مما افعل، نزعت الشرشف الباهت الذي تتغطى به منذ يومين، ثم أني جذبت الشرشف الذي تنام عليه ايضا، دفعتني كالمجنونة وحاولت ايقافي، الا أني كنتُ هذه المرة أكثر تهورا منها وأكثر حذرا من ان ادعها توقعني مرة اخرى... حاورتها ممازحة رغم انها مازالت متمسكة باستيائها.

- اسمعي امي، ان لم تقومي الان وتأكلي معي، اقسم أني سأفعل اشياء أكثر جنونا...

- اخرجي، انتِ تضغطين عليّ وانا احاول ان ارتاح.

- لن ترتاحي بهذه الطريقة، سأنزعكِ ملابسك الرثة هذه ... تبا هذه «الدشداشة» توجع قلبي بهذه الألوان التعيسة ... اخلعيها هي، اخلعيها ...

Telegram: electronic_library

- فزارة كفى ...

- كلا، ليس كفى ... كفاكِ تتعبينني أكثر، ارجو ان تعلمي ان ما تقومين به يجعلني أكثر حزنا وأكثر تعاسة، لا املك أحدا غيرك، كنتِ قوية طوال حياتك من أجلي، وانا اطلب منكِ هذه المرة ان تكوني قوية بما يكفي حتى نعبر هذه الازمة معا.

نظرت الي مطولا، بدأت نظراتها تتبدل، تذوب في الحنين أكثر وتعود لطبيعتها، كما تذوب الثلوج اعلى الجبال وتغسلها لتهيئها لفصلِ شتاء قاسٍ اخر، انسابت الدموع من عينيها وقامت من فراشها، اخرجت رداء آخر وهربت الى الحمام، وقفت خلف الباب وانا اسمع نحيبها ترافقه جوقة صدى تغني لحزنها ...اردت ان اطرق الباب لكن شيئا ما منعني عن ذلك، انا اخجل من امي ولا أستطيع الضغط عليها أكثر... اشعر بأنها بحاجة لهذا البكاء ... امي لا تستحي من دموعها وهذا اشجع ما فيها، عكسي انا التي عشتُ دهرا بلا بكاء حتى انهال علي فجأة ويومها تمنيت ان امشي تحت المطر حتى لا يرى احد دموعي كما يقول شارلي شابلن ... عدت الى الغرفة انتظر امي واتمعن بالصينية التي اعددتها، كلانا لا يشعر بالجوع ولا حتى بخاصية الاشتهاء، خرجت من الحمام وهي ترسم ابتسامة مزيفة على شفاهها تنظر الى الارض وتتنفس بقوة من انفها....

- ما هذه الصينية ... أحب اللبن.

- هيا لنأكل اذن ...

- فزارة أظنني بحاجة لدواء من الصيدلية، سأعطيكِ الورقة التي كتبها لي د. محمد قبل فترة ... هل تستطيعين ان تجلبيه؟

Telegram: electronic_library

- بكل تأكيد امي ... اعطيني اياه ...

كان جينزي المعتاد بانتظاري، تعطرت بعطر امي « التيمبس» واخذت محفظتي الصغيرة، اقتربت من المرآة التي قرب الباب لأخذ مفاتيح السيارة، ثم تذكرت أني بعتها، قدماي اجمل وارشق، قدماي قدما راقصة باليه حالمة تتمرجح على الطرق بكل امتنان ومحبة ... هبطت من السلالم وقدماي تعزفان لحن الحب الابدي... في الشارع لطمني هواء صيفي حار... كنت اضع يدي في بنطالي واحمل محفظتي بالأخرى، لم امش منذ مدة، لقد كنتُ اختبئ في السيارة من عيون الناس وهي تطالعني بكل فضول وتعجب واشتهاء وازدراء احيانا لأني لا اضع حجابا في هذه المدينة التي بدأت تتحجب تدريجيا، قطعتُ مسافة لا يستهان بها حتى وصلت الى الصيدلية التي كانت تجلس بها امرأة محجبة بعينين خضراوين جامدتين ونظارات انيقة اخذت مني الورقة دون ان تنطق بكلمة وراحت تَصُفُ الادوية بدقة واحدا جنب الاخر وهي تشطب بالقلم الماجك الازرق عليها كم مرة لابُد ان يؤخذ منها ثم انها ضربت المبالغ على آلة الحاسبة التي امامها وناولتني الفاتورة والكيس دون ان تقول لي الكلفة... على اي حال لا يهمني امرها اخذت الكيس وانطلقت عائدة، شعرت ان احدا ما يلاحقني بخطى مسرعة، للحظة ما ظننت انه يوسف، ألتفت كان شابٌ غر بين السادسة والثامنة عشر، شعره اشقر مجعد، لحيته مأكولة وتملأ الحبوب الحمراء وجهه الابيض الذي تعتريه ابتسامة خبيثة، اقترب مني، حاول ان يلمس جسدي ودفعني بكتفه واخذ يركض، اه! يا لله، لقد تحرش بي هذا السافل الذي يفوح منه هرمون التستوستيرون ما هذا؟ رجف قلبي وتلاشى الدم في عروقي،

Telegram: electronic_library

اصاب جسدي بلل الغضب والخجل، التفت الي كاشفا عن ضحكةٍ صفراء، لقد نال مبتغاه! لقد تحرش بأنثى ضمن جدوله اليومي... يا لبشاعة الموقف، كتمت صراخي، خشيت من الناس حولي ان يعرفوا ان هذا المسخ قد مس جسدي! بلعت ريقي وفضيحتي وخوفي ونظرت الى المحال حولي، حركة السيارات، خطى الاقدام الطبيعية، ثم الى عيون من شهدوا ما حصل، عيون صامتة، عيون شامتة، عيون مبتهجة، عيون آسفة، عيون تمنت ان تصير تلك اليد! عرض المشهد امام الحاضرين بصمت كأنه عرض تراجيدي مجاني اه، اه، شعرت بالدوار وان الغيوم فوقي تعوم مثل « شدة يا ورد»، فقدتُ توازني، استندت الى السيارة التي كانت بظهري وامسكت بالمرآة الجانبية حتى لا أسقط، رفعتُ رأسي، اغمضت عيني وتنفست بعمق...

لم يوقفه او يحاسبه او يقتص منه أحد، من يفزع لامرأة تنتهك حرمتها في الشارع؟

مشيت ويدي في بنطالي مرتجفةً، أحس ان بطني التصقت بظهري، لطمني هواء حار جدا، السعير دوما يرمز للعقاب، هل كان الجو يعاقبني ايضا لأن سافلا تحرش بي؟ هكذا هي المرأة ضحية مدانة في الغالب، وصلت الى المنزل وانا اعزف بقدمي كناي حزين وحيد في براري الظلم ...

Telegram: electronic_library

- ١٦ -

انا تعيسة بما يكفي لمواجهة اي فرح يطرق بابي...

بدت امي افضل بتفردها في المنزل، ظلت ملتزمة بحيادية الألوان الا انها صبغت شعرها بالأشقر الفاتح المتوسط وطلت اظافرها بلون زهري شفاف واظبت على ارتداء «دشاديش» قصيرة وشبشب شتائي لا علاقة له بالصيف، حذفت قناة أبي المفضلة من الستلايت وكثفت جبهة القنوات المصرية التي تعرض مسلسلاتٍ قديمة مثل «رأفت الهجان « و «لن اعيش في جلباب ابي»، تتفرج لساعات طوال، حب «الشمسي قمر» صبغ شفتيها ببياض ملحه ورائحة الشاي تفوح منها، لم تعد تكلمني كثيرا وترد عليّ بأجوبة مقتضبة مختصرة، انا معها ضائعة وخائفة، لا اعرف كيف اخبرها اننا لأبُد ان نخلي الشقة، هذا بالإضافة الى انها صدمتني بتركها للعيادة والجلوس بجواري كزميلة عاطلة عن العمل، لم تكن تكترث للنكبة الاقتصادية التي سنواجهها بل كانت تنظر الي بابتسامة، امي بدأت تتغير ويبدو انها تسلمني زمام المسؤولية بكل هدوء... خلصني مؤيد من السيارة واكملت معه الاجراءات اللازمة واستلمت نقودي التي أعدتُ جزءا كبيرا منها الى الشركة هذا بالإضافة الى أني احتفظت بنقود يوسف على جهة بغية اعادتها بطريقة تشفي غليلي...

إياس لم يظهر بعد، الشكوك راحت تلعب بي بشغف واصبحتُ خمسة عشر كرة بلياردو متفرقة في طاولة التفكير، اشتاق اليه بشدة واتذكر شفاهه وهي تذوب في بركاني، أكثر ما يخيفني هو ان إياس قد تزوج وتركني... اضغط على اعصاب

Telegram: electronic_library

عيني بشدة واغمضها فتنكمش كأنها ترفض بوحشية اي فكرة تصويرية عن هذا الموضوع، إياس لي انا وحدي، انه ليس نصفي الاخر بالمرة، ما هو الا انا، اننا روح واحدة عُبّئت في جسدين... انه متطابق تماما مع كل سنتمتر مني جسديا ونفسيا وانه مختلف تماما مع كل إنش من تفكيري، اختلافنا مسوغ تطابقنا، فاختلاف التفكير بحد ذاته تطابق، حيث ان قطبي المغناطيس ينجذبان عندما يخالف احدهما الاخر، فيزياء أم كيمياء لم أعد أعرف ، أيعقل ان يمس إياس بشرة امرأة غيري وتُعجن مساماته مع مساماتها! ويمرر انامله على خديها او يباعد خصلات شعرها عن وجهها، حتما لا إياس مريض بي ويعاني من «وسواس فزارة» وذلك نوع من الفايروسات الذي يصيب العينين والبشرة فلا ترى عيناه سواي ولا تتقبل بشرته سوى بشرتي، بل ان من اعراض مرضه ان عينيه اذا ما رأت عينيّ تعلُقان بهما... اعلم ان اهله يضغطون عليه من أجل تزويجيه، أمه تريد ان ترى احفادها حالها حال معظم الامهات العراقيات، لا يأبهنَ ان يتزوج ابنهم بمن يحب، لكنهنّ يأبهن بأن يرينَ احفادهن، لا يهم من يتزوج ما دامت من الطائفة ذاتها، وترتدي الحجاب وتجيد غسل الأواني ومسح الاخشاب والاستيقاظ باكرا من أجل وجبة الفطور، من المهم جدا الا تكون ذكية حتى لا تتسلط، والاهم من هذا كله الا يكون على علاقة حب معها، لان الفتاة التي تحب لا يتقدم احد لخطبتها، ففي الغالب لا ام تقبل ان تزوج ابنها لفتاة كان يكلمها ليلا والشيطان ساهر معهما حتى لو كانت هذه الام تحب زوجها قبل الزواج ... قالها إياس لي مرارا، ان اهله يرفضون رفضا قاطعا ان يتزوج فتاة مثلي على النقيض الاخر منه، فتاة تسرح شعرها وتعدل افكارها بالكتب

Telegram: electronic_library

والروايات والمطالعة، فتاة من طائفة اخرى لا تجيد تمشيط طقوس طائفته، حتى لو لم أكن انا التي اخترت طائفتي بل وجدت نفسي احملها كارثٍ ديني اجباري... انا لم اختر شيئا يا إياس... لم اختر أبويّ، لم اختر اسمي، لم اختر بيتي، لم اختر طائفتي، لم اختر ديني لم اختر دراستي، لم اختر عملي، لم اختر بلدي... والاهم من هذا كله لم اخترك حتى... قلبي جذبني اليك... فلماذا تحملني ذنب اختيارات لم أُسأل عنها منذ البداية؟ ولماذا انت ضعيف بما يكفي لأن تكون خاضعا لسذاجة تفكير اهلك؟ لا افهم كيف لرجلٍ بلغ الثامنة عشرة يخضع لتعاليم وأوامر اهله ولا يستطيع ان يأخذ قرارا لوحده، يخطئ ويصيب فتزداد ثقته بنفسه... لا يمكن ان يعيش الانسان مدى الحياة تحت رحمة خيارات الاخرين ولا يكون سيد نفسه.

لذا انا خائفةٌ من غيابك الارهابي هذا، وفزعةٌ ان تنضج اشواقي وتنسكب على انتظاري، فأفقد تعقلي واتزاني وخطط التهدئة التي توصيني بها، أتذكر تلك المحادثة في صباح احدى الجمع حيث يحج العراقيون الى المتنبي؟ اخبرتني انك تتدافع بين الحجاج لحضور عرضٍ مسرحي بين اصدقائك، دعيتُ نفسي لرفقتك فرفضت، اصررت لأني أعاني ارهاق الغياب لكنك رفضت مرة اخرى واعتذرت قائلا إنك ستعود بعد قليل، كنتُ اضع يدي على وجهي واتحايل على نفسي واحاول ان اختبئ من برودة اجوبتك، إياس، قلبي ناطحة سحاب تحترق من طابقها الاول حتى اخر طابق غاف بحضن الغيوم، لا يمكن ان انتظر أكثر ولا يمكن ان اصادق على قراراتك الجائرة بزجي بعيدا، انا افهمك، واعلم انك متورط بحبي وانا متدهورة بك، لسنا لبعضنا ولسنا ننفك من بعضنا، اشعر ان

Telegram: electronic_library

الله سيعاقبني ثلاث مرات، مرة لأنني أحببتك ومرة لأنك أحببتني ومرة لأننا لم نتوقف، ، قرأت رسالتك الاخيرة وانت تخبرني «عودي للنوم مازال الصباح باكرا» وقتها يا إياس فقط، شعرتُ ان العمارة انهارت وانهالت نيرانها على من حولها، ارتديت ملابسي على عجل، استغنيت عن سيارتي واستعنتُ بسيارة تاكسي لأني لا اعرف كيف اصل الى شارع المتنبي، في التاكسي تذكرتُ وجهك وتقاسيمه وانا انظر الى المحلات والشوارع وهي تتطاير أمامي كصور استعراضية سريعة يبعثرها الهواء، اشعر بالتوتر، أستعنتُ بعطر أمي الكلاسيكي Temps" from Nina RICCI "هذا العطر الذي أُنتج بعد الحرب العالمية الثانية حاملا رسالة السلام وجناحي حمامة تطير فوق ملايين من الضحايا التي خلفتها الحرب وفوق خراب الأبنية والبنى التحتية.

هكذا هي الحياة، مستمرة بقسوتها وحنيتها، فعندما يموت أحد ما، يُبكى عليه حد الجنون وفي اليوم الثاني يواصل الباكي حياته بصورة طبيعية... وانا هكذا كنتُ قد استعنت بالعطر على أمل ان تهدل حمامة الحب فوق زجاجة الحرب المستعرة بيني وبين إياس دائما...

وصلت الى شارع المتنبي وتدافعت مع زحمة البشر الموجودين هناك وانا امسك بالأوكسجين بصعوبة وابلعه في صدري، وصلت قرب قهوة الشابندر وانا أرن عليك بكل خور وضعف، لم ترد عليّ ربما لأنك كنتَ منهمكا بمتابعة المسرحية او لأنك استأت من إلحاحي، لا ألومك، قد لا تعرف كيف يصير قلب العاشق مؤمنا حد التطرف، اجبتني بعدها بكل هدوء:

Telegram: electronic_library

- نعم فزارة

- إياس، انا في شارع المتنبي، جئت اراك

- جئتِ!

- نعم، جئتُ، أينك الان؟

- انا في المركز الثقافي في قاعة سامي عبد الحميد

- الشارع مزدحم جدا، هل تستطيع ان ترافقني اليك

- إذا خرجت لن أستطيع ان ادخل المسرح مرة ثانية بسهولة لأن طابور الانتظار طويل جدا، تعالي انتِ انه اقل بالنسبة للنساء...

تضرج خداي بالدم، ها انت تستغني عني مجددا وتتركني وحدي، مع أني جئت بقلب ارنب راكض، زعلتُ منك جدا وخبأت زعلي في قلبي، لم أشأ ان اخبرك انك خذلتني مرة اخرى، لا يهم، قطعت هذه المسافة وسأكملها اليك وحدي، اكملت تدافعي وانا اسمع كم الغزل والشماتة والشتيمة من الشباب المحيطين بي، تحرشا او اعجابا فالعملة واحدة وان كان لها وجهان، اتصلت بك مجددا وانا اطلب منك ان تدلني اين القاعة، خرجت وانت تحمل هاتفك وقفت على مسافة منك واختبأت خلف مصورٍ طويل وعريض جدا كأنه حائط متنقل، كنتُ اريد ان اراقب انفعالاتك وانت تنتظرني او تبحث عن وجهي بين المارة، سجارتك المشتعلة بين اصبعيك والتفاتتك القلقة بثقا في قلبي شيئا من الهدوء، اطمأنت لنظرات عينيك السائلة عني وهي تقذف حبا زهريا هنا وهناك، بقيت تقول لي، لا اراكِ اين انتِ؟ وانا اقول لك انا امامك، اقتربت شيئا فشيئا منك وانت لا تراني ولا اعلم

Telegram: electronic_library

هل كان هذا اشارة لي أنك لا تراني حقا في حياتك او أنك لا تراني لأنك منشغل دائما بالظروف المحيطة بك وبي... وقفت امامك، بهتَّ بوجهي كما تفعل دائما كلما تراني، انزلت هاتفك ببطء ووضعته في جيبك، نظرت الي وانت تعاتبني على جمالي، مددت يدك لي وجذبتني لأقف قرب باب القاعة، تمنيت حقا ان تجذبني اليك في تلك اللحظة...

- مجنونة

- أخبرتك سابقا، انا عاشقة ولست مجنونة

- عيناك جميلتان

- جميلتان فقط؟

- كبيرتان وجذابتان

- كبيرتان وجذابتان فقط؟

- حزينتان، لكني لم أكن اريد ان اقول ذلك

- لماذا يا إياس؟ لماذا تدفعني الى الحزن والجنون والغوص باستحداث خطط طوارئ؟

- الأمر ليس هكذا بالمطلق، بل إنني ببساطة لم أشأ أن اراكِ هنا وفي هذا الزحام...

- اي زحام؟

- هؤلاء البشر، الا ترين الزحام؟

- لا ارى احدا، اراك انت فقط

اعلم ان عينيّ في هذه اللحظة كانتا صادقتين جدا وهما تقطران حبا بريئا، سكتَّ

Telegram: electronic_library

وانتَ تنظر الي بعد ان خذلك التعبير، كنت تريد ان تحتضن هذا البركان الثائر داخلي وانا احاول ان اخبيه عنك

- تعالي فزارة فلنجلس في القاعة

- لا اريد

- الا تنظرين كيف يراقبنا الناس الان؟

- لا ارى اي ناس

- فزارة، تعالي ندخل في القاعة دون اجوبة طفولية، هذه ليست وقفة نظامية

دخلنا القاعة، بدت مظلمة، باردة، مقاعدها حمراء متقاربة مع بعضها جدا، جلست الى جانبي وانت تنظر الي دون ان تترك نظرة تسقط منك، مررت اصابعك على رسغي، الان بدأت اهدأ هذه البشرة الخشنة تُسكن مخاوفي، رحت اتأمل انامك، رشيقة وسمراء، اظافرك متناسقة الشكل محدبة، شعر يديك انيق، رفعت بصري الى عينيك

- أحُبكَ...

- تصدقين، أني اشتاق اليك في كل لحظة! انا فقط سيء جدا بالتعبير، او لأنني تعلمت على الكتم والتعميم، فها انا أحبس احاسيسي تجاهك واعممها على السلوك العام معك، ليست ثمة امرأة في الكون قادرة على دحر اسواري بهذه الطريقة الودية التي فعلتها انتِ.

- كذاب.

- ربما، اكذب في عدد لا يستهان به من المواضيع، لكني صادق بأحاسيسي معك

- خذني اليك الان!

Telegram: electronic_library

- والناس؟

- لا ارى احدا

- ستبدأ المسرحية

- انها بادية منذ مدة، الم تشعر بذلك

- والعرض مستمر يا فزارة، تأكدي ان هذه المسرحية التي بيننا لن تسدل ستارتها يوما مهما حصل بيننا

.....

وصلتني صورة على التانكو... فتحت المحادثة كان يوسف قد بعث لي صورة سيارتي في كراج لا اعرف اين، ثم انه بعث لي صورة «سيلفي» له داخل سيارتي... اصراره يجعلني احك عقلي كما لو انه اصابته حساسية تعيسة.

- فزارة، لا تعرفين الشعور الذي يعتريني الان وانا اركب سيارتك، اشعر أني في احضانك

- اعلم انكِ لن تردي علي، لكني أتنفسك هنا، اتنفس عطرك الرقيق المتناثر هنا

- اتذكّر كيف جلستِ الى جانبي ذاك اليوم، متوردة الخدين، غاضبة، خائفة، تحاولين الهروب من الانفجار ومني ومن قدرك، اشعر ان في حياتك الكثير ليحكى ولا زلتِ رمزا غامضا بالنسبة لي.

- اسف انا على هذا الاقتحام، الا أني ادمنتك.

- خائف انا حتى من أماني، خائف ان لا أستطيع الخروج من احساسي المتقد معك واجبركِ للخضوع لمملكتي، لازلت اشعر بأصابعك الصغيرة وهي تحوط

Telegram: electronic_library

خصري بحثا عن امان ينجيها من مأساة الموقف.

- شعرتُ برجولتي في تلك اللحظة، انا فارس نبيل الى جوارك، وفارس هش في بُعدك

- اعلم ان انتظاركِ هو الحل الأسلم، لكني لا أحب الانتظار، اعلم ان الاجبار هو الحل الاصعب لكني أحب الاستعجال.

- لن تردي، لكنكِ لي يا فزارة ... وسترين

استفزني حديثه، كنتُ اقرأ كل ما يكتبه وقلبي يلعن الحظ الذي دلفه الي، رحت اتأمل خساراتي مع إياس وانتصاراتي معه، ربحته عاشقا مجنونا بموقف انفجاري واحد، وكنتُ وما زلت احاول ان اربح إياس رغم العديد من الانفجارات العشقية، الجنونية، الباكية، المبتسمة، الجميلة التي جمعتنا... تفرّط بي يا إياس بينما غيرك متمسك بي بخطورة، اريدك انت ومستعدة ان اوقع على اي اوراق للتنازل عن اي شيء يربطني بالكرة الارضية ومن فيها ومن عليها... أحبك انت، انا رداء مبقع بحبك لا مسحوق غسيل يزيلني.

كتبتُ رسالة تانكَوية ليوسف على أمل ان يتوقف عن ملاحقتي، ليس للغزال ذنب سوى انه ظبي رقيق! يعيش في الصحارى، في بيئة وحيدة لم يخترها وانما المناخ اعدها له بعد اختيار الانسب من وجهة نظره.

- استاذ يوسف، اراك تجهد نفسك فيما لا يجدي نفعا، اشتريت سيارتي وألف مبارك لكنك لن تشتري قلبي... لهذا ارجو ان تتوقف عن مراسلتي او محاولة الاتصال بي.

Telegram: electronic_library

- ١٧ -

الساعة الثانية عشرة تختلف برمزيتها بالنسبة للناس، بالنسبة للعسكر فأنها ترمز لساعة الصفر بعد ان كانت الساعة تقرأ ٢٣٥٩، وهي ساعة الواجبات والتنفيذ والهجوم والقتال، وايضا بالنسبة لهم هي ساعة الموت والاشلاء والضحايا، او ساعة منع التجوال العالقة في اذهان العراقيين، حيث الشوارع تحير بالعبث وحدها مع جنود نقاط التفتيش والعصابات والمسلحين، وبالنسبة للعشاق هي ساعة الأرق والسهر والتفكير والمكالمات المجانية التي باتت توفرها لهم شركات الاتصال حتى ينضجوا في الحب أكثر ويصيروا خبزا لجوعهم، والساعة الثانية عشرة ودقيقة قد تكون بداية لحياة جديدة، اما انا فقد كانت الساعة الثانية عشرة بالنسبة لي نهاية وانتقالة حزينة.

لم تدق الساعة، بل دُق الباب، كان طرقا قويا خجولا، فراشي يحتضنني كما لو انه عاشق غيور، انزلقت منه بالكاد، تدحرجت الى غرفة الجلوس كانت امي قد نفذت الى غرفتها واغلقت الباب وقفت في المنتصف، حائرة بين ان اخبرها، او ان افتح الباب، خِفت ان يكون ما وراء الباب وحش انساني يفكر باقتحامنا وسرقتنا، او تفتيش عسكري لاحترازات امنية ونكون انا وامي مبعثَ شكٍّ مهم، قلة هم من يفتحون ابوابهم بعد الساعة الثانية عشرة لأنها قد ترمز في العراق للخوف ايضا... لم نكن نملك عينا سحرية بالباب ولا اعرف لماذا لم يضعها أبواي لربما لم يكونا يريدان ان يسبقا الاحداث ويريا ما لا يُحمد عقباه. صوت نسائي رخيم اخترق طبلتي اذني،

Telegram: electronic_library

لقد كانت مريم... اصفر وجهي... وشعرت ان قلبي يركض حافيا في الشقة... اشعر ان خطبا ما وراء ابي، بدأ هذا الاحساس يضخ في دمي بكميات كبيرة... فتحتُ الباب، كانت مريم واقفة امامي شاحبة بلا ألوان، رموشها قلقة، شابكة كفيها برأفة، تنظر الي ورأسها يميل نحو الارض.

- اين أمك ؟

- نائمة، ما الخطب عزيزتي...

- تعالي معي، امي تريدك

- ما الذي حصل، هل هناك شيء... اخبريني بسرعة... اشعر ان الموضوع يتعلق بأبي...

جذبتني مريم من يدي، لقد كانت شقتهم بجوارنا، خطوتان وكنتُ في غرفة جلوسهم... ام مريم جالسة ومرتدية حجابها وتسبح دون ان تنظر اليّ... ثم انها وقفت صوبي وهي منزوعة الملامح...

- ابنتي ... ان امر الله لا اعتراض عليه

- ابي!

- توفي...

توقفت انسجة جسدي عن العمل، وحتى الدماء التي كان احساسي يضخ اليها نشفت، عطُبت اجزاء جسدي واضربت عن الحركة، امسكت مريم يدي اليمنى واحتضنت ظهري بيدها الاخرى، اطلقتُ تنهيدة بسيطة غير مصدقة ما يقال لي وانا انظر الى ام مريم ولا اراها، بهذه اللحظة بالذات، ترامت الصور في جحر مخيلتي،

Telegram: electronic_library

عندما جلبتُ لأبي سيجارا واشتريت بالبقية ثلاث علكات، وعندما دخلت بالصف الاول الابتدائي لأول مرة بعد ان تأخرت عاما في الدراسة، صورتي معه عندما حاول ان يصير مرة لطيفا معي واخذني الى حديقة الحيوانات في الزوراء وكان يخبرني عن افتتانه بالصقور، صورة له وهو يجلس في غرفة الجلوس متفاعلا مع البرامج السياسية على الفضائيات يصرخ ويشتم ويدعي على الحكومة التي ظلمت شعبها من وجهة نظره... صورة له وقد احتضنني عند الباب بعد ان عدتُ من الانفجار، صورة له وهو واقف فوق رأسي في المستشفى ويحاول ان يطمئن عليَّ بإلحاحه بالأسئلة مع الطبيب، الصورة الاخيرة له في الشرفة وهو يدخن سجائر امي الكريفن وقد غلبه الهدوء... عادت الكهربائية الى جسدي، ورحتُ ارتعش بشدة وشعرت بالبرد الشديد كأنها ليلة كانونية قارصة، احتضنت مريم وانا بقمة هدوئي اظن ان الفتور عاد الي مجددا، لقد تجمدت الدموع في عيوني ولم استطع ذرفها، شعرتُ بالحرج امامهم لأني لم ابكِ وهما يتوقعان مني سيلا من البكاء... انا لا اعرف كيف أفكر في لحظات حاسمة مصيرية، لا اعرف ما الذي يتوجب علي ان افعله، أو ان اسأله، فاحترت هل اسأل ام مريم كيف عرفت؟ او ان اذهب الى أمي وأخبرها.

- اين أبي

- في المستشفى معه ابو مريم الان، مستشفى الشيخ زايد...

خرجت من شقة ام مريم ودفعت باب شقتنا وانا اركض وما ان وطأت رجلي ارض غرفة الجلوس أبطأتُ، كيف سأخبر امي، هذا أصعب موقف قد اعيشه في حياتي، قلبي يتمزق الان، هل اصبحتُ بلا اب الان؟ ابي الغالي، كنتُ اشتاق اليك

Telegram: electronic_library

كل حياتي، والان سأشتاق اليك للأبد، أحبك كثيرا اتمنى لو تعرف ذلك، دفعت باب غرفة امي بهدوء، وقفتُ صوب رأسها، كانت كالملاك الراقد فوق غيمة ثلجية، شعرها منكوث على الوسادة بتأمل، تحتضن يديها، لربما كانت تحتضن نفسها...

- امي، امي، امي...

فتحت عينيها ونظرت الي، لم تصحُ بعد من غفوتها

- امي، ارجوكِ قومي الان...

- ما بكِ يا بنتي؟

- ابي، يا أمي ، ابي مات

دفعت الشرشف الذي كانت تتغطى به بسرعة وقامت من سريرها، هرعت لروبها ترتديه، اعتلت ملامحها الغضب والقلق والحزن معا، هزتني وهي تسألني

- ماذا يا فزارة ؟؟ ماذا؟ توفي؟!

كنت اجيبها كطفلٍ بالكاد يتكلم، لا دموع في عينيه سوى الشكوى ألما... انظر اليها بعينين باهتتين...

- نعم يا أمي توفي وهو في مستشفى الشيخ زايد الان

- كيف عرفتِ؟

- اخبرتني ام مريم الان بذلك

تركتني وركضت الى شقة ام مريم، بقيت انا في غرفتها، تلمست سريرها الدافئ... سمعتُ صراخها ونحيبها، كأنها قد فقدت عقلها، لحقتها، كانت قد بركت على الارض امام شقة ام مريم وهي تبكي وتنتحب، فتحت الشقق ابوابها

Telegram: electronic_library

وظهر سكانها ينظرون الى امي ويحاولون معرفة ما بها، احتضنتها وانا احاول ان اهدئها وادعوها للدخول الى شقتنا، لكنها رفضت وظلت تصرخ وتبكي وتنادي أبي... لم يكن أبي ليسمعها، او ان روحه الان تتفرج علينا كيف نبكيه، قامت امي فجأة وجذبتني من يدي ودخلت الى الشقة

- البسي ملابسك يا فزارة الان، بسرعة، فلنذهب الى المستشفى

- كيف نذهب الى المستشفى... أنها الساعة الثانية عشرة؟

- لا يهم سنذهب ولو على قدمينا

لبستُ جينزي وقميصا اسودَ طويلا، وكنت انصت لنحيب امي وتدافع الاغراض وسقوطها من يديها وهي تبحث في خزانتها عن شيء ترتديه ثم انها انهارت على الارض بالبكاء، جذبتها الى صدري وانا اهزها كما لو انها طفل بيدي يحاول ان ينام، تجمهر الجيران على باب غرفتها وهم يبكون معها، الا انا، لم أكن ابكي وكنت في غاية الهدوء والتوتر معا، ثم جاء صوتٌ ذكوري اسكت جميع النسوة الواقفات... لقد كان مصطفى خطيب مريم الذي طلب من امي الهدوء والذهاب معه لوحدها الى المستشفى... قامت من الارض وجذبتني معها... اعترض مصطفى ان يأخذني معه الى المستشفى حيث المرضى والموتى والاطباء والشرطة، من الافضل ان لا تتواجد انثى في مثل هكذا ظروف لكن امي لم تعر كلامه اي اهمية، اودعت الشقة في عهدة ام مريم وغلقنا باب شقتنا لأول مرة منذ سنين حيث ثلاثتنا خارج المنزل ...

في السيارة صرفت امي كل خزان دموعها وهي تصرخ بلا وعيها وتضرب رأسها من هول الموقف، لم تكن تلوم نفسها على شيء عكسي انا التي كنتُ قد غرقت

Telegram: electronic_library

في الصمت وتأنيب الضمير لأني تركته يخرج من المنزل دون ان اردعه عن ذلك...

عبرنا الشوارع التي اعرفها ورائحة الحزن تلتف بي من كل مكان، هواء الصيف يضرب وجهي خائفا أو مشفقا عليّ في مواجهة التوقيت البائس الذي انا فيه، انها الكرادة التي عشتُ فيها مع ابي، كأنها تواسيني بعزائي، توقفنا امام المستشفى ونزلنا انا وامي مسرعتين، كان مصطفى يحاول الاعتراض لأنه اراد ان ينزل معنا وننتظره بينما يصفّ سيارته، لكننا لم نكن لنطيع اي امر الان، حافظت امي على صراخها منذ الباب الرئيسي وحيث يجلس الشرطة يفتشون المارقين وحتى دخولها الى الطوارئ، لم أرَ امي يوما بهذه الحالة من الانهيار والحزن والهستيريا... هل كانت تحب ابي؟ كان الناس يردون عليها «البقاء لله، الله يصبركم، لا حولا ولا قوة الا بالله» اما انا فقد كنتُ اتمعن بالراقدين وعيونهم، والاطباء ونفورهم، الممرضات واقدامهن السلسة، رأينا ابو مريم، كان غارقا بدمعه يجلس على أريكة ألمنيوم زرقاء وفضية، طلب الطبيب من امي الاوراق التي تثبت انه زوجها حتى يكتب تقريره الطبي من اجل شهادة الوفاة، لم نجلب معنا اي اوراق، ولم نكن في تلك اللحظة لنفكر بذلك، لم يكن لدينا موتى سوى أبي الان، لقد عشنا كل حياتنا وحدنا ولا نعرف ما هي الاجراءات المتبعة لاستلام جثة ميت، رغم ان الموت والحياة يعيشان مع بعضهما في هذا البلد القاسي، فما بين مسبباته والعيش خيط واحد رفيع، لهذا حتى الموت لم يسلم من الاجراءات الروتينية التي تقتل «مأساوية اللحظة»، كما ان الطبيب يريد ان يتأكد جيدا قبل ان يسلم تقريره ان اهل الميت لن يقاضوه عشائريا، آه، انه عصر العشائر والطوائف وتغلغلها وضربها لكل مجالات الحياة... لم تكن امي تعي ما

Telegram: electronic_library

يقوله الطبيب وكان يعيد الكلام عليها مرارا، كنتُ اراقب ما يحصل وانا شاردة التفكير في الموت وسكون جثة ابي في ثلاجة المستشفى الان، تدخلت فجأة...

- هيا امي فلنعُد ونجلب الأوراق.

- لا، اريد ان ارى أباك الان.

- امي، ارجو ان تتفهمي ما يحصل، لابُد ان نعود.

كانت امي ترفض بشدة الخروج من المستشفى، اما انا فقد وجدت نفسي اتحول لرجل بموقفي، كنتُ حازمة جدا، طلبت من مصطفى ان يعيدنا الى البيت، اخذتها اجبارا وهي تصرخ في المستشفى وتمسح بقدميها الارض رافضة الخروج... هكذا كنت اشعر منذ فترة ان امي اصبحت طفلة ساذجة سلمتني القيادة، في الشقة، اودعتها في فراشها وطلبت من ام مريم بكل رجاء ان تبقى معها، اخذت كل الاوراق التي قد اسأل عليها، هذه الاوراق التي يسمونها «الاربعة الذهبية» بطاقة السكن والتموينية وشهادة الجنسية وهوية الاحوال المدنية كل هذه حتى تثبت عراقية ابي وانه ابن البلد، وكل هذا حتى اثبت ان هذا الرجل القابع الان في المستشفى انه ليس سوى أبي، أن لم يصدقوني سيبقى في الثلاجة ثم سيحال الى الطب العدلي ثم المشرحة ثم الى قبرٍ يكتب عليه مجهول الهوية، فها انا اقول لكم انه معرف الهوية وأني احمل كروموسوماته وحمضه النووي وملامحه بالإضافة الى عناده... عدتُ الى المستشفى وكانت الساعة قد قاربت ٢:٣٠ والنصف ليلا، كتب الطبيب تقريره وسبب الموت «تشمع الكبد»، بهتُّ الان، انجزتُ هذه المهمة ولا اعرف ما الذي يتوجب علي ان افعله بعدها، كيف سآخذ جثة ابي؟ انا وحيدة... وحيدة جدا في هذا العالم، ليس لي

Telegram: electronic_library

أحد واشعر ان موقف الجيران معي تعاطف منهم، ما الذي كنتُ لأفعله هنا لولا ان مصطفى خطيب مريم معي في هذه المهمة، وخزتني قسوة الحياة في هذه اللحظة وقسوة اختياراتها لي، فأنا لم اختر ان اكون وحيدة... قطع مصطفى حبل تفكيري وربما قرأ ما كان يدور في رأسي...

- فزارة لابُد ان تعودي انتِ ايضا الى المنزل الان... سأتكفل بكل شيء لا تقلقي...

- كلا لا تقلق، سأبقى هنا ونرى كيف سنخرج الجثة، وكيف ندفنها، حقيقة انا لا اعلم ما الذي عليّ ان افعله...

- اخبرتكِ ان لا تقلقي...

طرأ على ذهني ان اسأله الان عن إياس، لكن الوقت غير مناسب بتاتا، كنا على الدوام انا وإياس متواصلين في المشاعر والاحساس بالآخر، هل يشعر بوجعي الان ومدى وحدتي واحتياجي له، هل يشعر بشيء من المسؤولية يجعله يقف الى جانبي، وفاة أبي جعلتني أؤمن أكثر ان إياس ليس بالمطلق ولن يكون معي يوما في اي موقف حقيقي... اجبرني هذه المرة مصطفى ان اعود، عدت الى العمارة ودخلت اترنح في مدخلها، كانت الساعة ما يقارب الثالثة فجرا، تبدو هادئة لولا صرير الصراصر وخربشة الجرذان، اول مرة ادخل هذا المدخل بوقت متأخر كهذا، كنت بائسة ومنكسرة وحزينة وعاجزة عن التعبير عن شعوري، فتحتُ الباب ببطء، لطمني هواء بارد، هل كانت روح ابي؟ تلمست الجدران، تلمست الأريكة التي كان ينام عليها، اقتربت من شاشة التلفاز المطفأة، رسم عيونه وشفاهه ولحيته الكثيفة، وقفت في الشرفة، قلدت

Telegram: electronic_library

وقفته، في المطبخ بدت كل الاغراض متلكئة خائفة... بدت ثلاجة العشتار عطوفة جدا، شديدة البياض والانكسار وقفت قبالتها، احتضنتها وقبلتها كالمجنونة، ودفنت رأسي ببابها الصغير... ثم التفتُّ واسندت رأسي اليها وانا انفخ خصلات شعري المتطايرة على وجهي، لم استطع ان ابكي بتاتا، كنتُ احاول من الداخل بكل قوتي ان اجمع كومة الحزن والخوف هذه والفظها بمطر يسقي اراضي اوجاعي... آه، ابي هل حصل ما حصل حقا! اتذكر في احد الايام عندما كنتُ في السادس الابتدائي، تلوت بطني بشدة واجهت ألمًا يتقلب داخلي لم اجربه من قبل، كنت جالسة على القنفة ثم أني تركتها ودخلت الى الغرفة حتى انفرد بألمي وحدي دون ان اخبركم ما الذي يحصل معي، هكذا اعتدت ان اكتم ما يؤلمني، سمعتُك تسأل امي: «أمل ما هذا الدم الذي على القنفة» كانت امي غير متأكدة بشأنه «يبدو ان فزارة قد بلغت» لم أكن اعلم وقتها معنى البلوغ، هكذا نحن في البيت لم تكن هناك اي حوارات ساخنة او حساسة بيننا، كنا نكتشف بعضنا من تصرفات بعضنا، دخلت امي الى غرفتي وسألتني...

- فزارة ما بكِ؟

- بطني تؤلمني

- حبيبتي... هل تستطيعين الدخول الى الحمام والتأكد ان كان هناك دما في ملابسك...

- دم؟ من اين يأتي الدم يا امي ولماذا؟

- حبيبتي كل فتاة في سن معين تبلغ، حيث تأتيها الدورة الشهرية وهو نزف شهري طبيعي من ٣-٥ ايام... لا تقلقي ابدا، فقط أخبريني ان كان الامر هكذا...

Telegram: electronic_library

لقد بلغتُ في ذلك اليوم امام عينيك، وعرفت أني في مدة حيضي، كم خجلتُ منك وقتها وحبستُ نفسي في غرفتي آملة الا ترى دمي مفضوحا مرة اخرى...

انا اسفة يا ابي، اسفة لأني اعتنيت بأمي أكثر منك وكنت انت بحاجتي، لم استطع الاقتراب منك، بنيت سورا صلدا حولك، كنتُ احاول جاهدة ان اشعر بوجودك بحياتي وانك الى جانبي، تمنيت كثيرا ان تحضر اليّ في المدرسة وتسأل عن درجاتي، او تقلني مرة الى الكلية ويتعرف عليك زملائي، كنتُ اتمنى ان نخرج معا ونتعشى في مطعم قريب ونتحدث عن اي شيء سخيف يقرب العلاقة بيننا أكثر، كم تمنيت ان تشتري لي هدية ولو مرة واحدة في حياتك حتى افرح بها واحتفظ بها وابكي الان قربها، اتذكر أني توسلت بك كثيرا حتى تأتي معي الى معاملة شهادة الجنسية واخبرتك انك أبي ولابد ان تحضر وهذه اجراءات رسمية لا سلطة لي عليها فهي من تتسلط علي، اه، انا لا ابرر لنفسي الان، هذا ما حصل، كنت قاسيا بما يكفي لتدمير حياتنا، بالتأكيد لديك اسبابك التي دفعتك، لكنك اخطأت يا ابي، اخطأت واخطأنا نحن معك، لربما لم نعرف كيف نحتويك بما يكفي لترطيب قلبك، اخترنا الجفاء انا وامي كذلك وانزوينا في غرفنا وتركناك للوحدة في غرفة الجلوس تطالع الاخبار وتسكر في الخلسة... لقد زال وجع ضربك الان، ولم اعد اشعر بأي الم لا معنوي ولا ومادي...

Telegram: electronic_library

- ١٨ -

اقترب الفجر، واقتربت جثة ابي من شقته التي لم يخرج منها بسبب الاخلاء الاجباري وانما بسبب انتهاء المدة الزمنية لحياته فخرج الى القبر مباشرة. كان مصطفى واقاربه قد جلبوا ابي الى الشقة من أجل الوداع الاخير. هذا هو اذن الوداع الذي يتحدث عنه الجميع ولا يدركونه، ليس الوداع من قال «باي» او «مع السلامة» او «في أمان الله». كل هذه الكلمات لا تعني الوداع الحقيقي الذي اشعر به الان، أن روحا امامي تودعني بالفعل، اصبحتُ اصلد من الصلادة....

وقفتُ كخشبة يابسة امام قبره اتفرج على امي وهي تبكي بحرقة وعيناها كلهيب من الجمر تفيضان... مرّرت اصابعي على التابوت وقرأت الفاتحة في قلبي ثم خرج ابي من تابوته الى لا عودة بل الى انتظار. سنلحق به ولو بعد حين...

لم نكن نملك اقارب في بغداد سوى عمتي التي لم يحرك قلبها الوحشي اي ساكن، استغرب كثيرا كيف نسيت انه اخوها وانهما ولدا من البطن نفسه وكانا يلعبان ويأكلان معا وينامان جنبا الى جنب. أهكذا يغيّر الحب والمال النفوس؟ لكن المال لا يغيّر الا النفوس الدنيئة القابلة للتغيير. لم نقم مجلس فاتحة كما هو المعتاد في الوفيات العراقية، حيث يُغلق الشارع في العادة وتُنصب الخيم وتُمدّ سُفر الطعام ويتحدث الرجال لبعضهم عن المعارض والسيارات واحوال العمل وتثرثر النسوة عن اخر زواج واحدث خطوبة وتتساءل لماذا لم تتزوج فلانة او تحبل دون تقدير

Telegram: electronic_library

لمشاعر اهل الميت الذين يكونون في حالة موت مؤقت هم أيضا... لم أكن انوي ان افتح شقتنا الصغيرة فتصير مكانا للمجاملات الحقيرة والثرثرة والنفاق ونحن في حال يرثى لها، والاهم من هذا ليس لدينا الكثير من المعزين في الاساس ... فتحت الشقة للناس القلائل الذين قدموا الينا، اخرجت النقود التي تبقّت لي من بيع سيارتي واشتريت الكثير من القهوة الداكنة وصواني «البقلاوة» واللبن والتمر ووزعتها على روح أبي...

تحدث معي ابو مريم

- فزارة... البقاء في حياتك يا ابنتي

- حياتك الباقية عمي، شكرا لك

- انا أبوك الان، ولا تتردّدي بأي شيء تحتاجينه. فقط اتصلي بي او ادفعي الباب وادخلي فهذه شقتك ايضا...

- لا تشغل بالك عمي، اكيد سأطلب منك

- فزارة، ابوكِ خرج في الفترة الاخيرة من البيت وأخبرني انه قد آذاكما ولا يريد ان يتسبب في المزيد من المتاعب. كان يشعر ان لا فائدة منه في البيت سوى المزيد من المشاكل، وأخبرني انه جرح والدتكِ في الصميم وأنها لن تسامحه وهو لن يسامح نفسه مطلقا، شرب كثيرا، كثيرا يا بنتي وكان ينام في غرفة المولدة مع الحارس وفي الصباح يذهب الى «الشورجة» ويظل يمشي ويمشي الى ان يصير الوقت عصرا فيعود الى الكرادة ويحبس نفسه الى جوار قفص المولدة، كان يخبرني بأنه سيموت، ويوصيني ان اتكفل بكما، وهذه امانة يا ابنتي...

Telegram: electronic_library

- ارجوك، عمي انا اسفة، لم اعد أستطيع ان اسمع اي شيء اخر... دع هذا الكلام الان والحمد الله على كل ما حصل...

هربتُ الى المطبخ اعدّ القهوة واقدمها للجيران. طُرق الباب مرة اخرى... متشحةً بالسواد والذبول والسكون فتحتُ الباب ولم أكن بالتأكيد انتظر ان يكون إياس هو الطارق. في الماضي او البدايات كان إياس يظهر في كل لحظة وكل مناسبة لا اتوقعها اما الان فلم يعد يظهر بالمطلق ولم اعد اتوقعه كما كنتُ افعل وهذا ما حصل حقا عندما فتحتُ الباب، لقد كان يوسف الجبل بحلته الوسيمة، بذقنه المهمل وعينيه الزرقاوين الصادقتين، نظر الي بكل حب ومواساة، مدّ يده، صافحته وانا اندب حظي التعيس، ليت حبيبي الحقيقي يقف الان امامي، فيضمني اليه واشهق انفاسي بكل عمق، اشعر بالطمأنينة التي ضاعت مني منذ زمن بعيد، واحظى ولو ببضع دقائق من الامان الذي صار حلما ابيضَ يداعب مخيلتي. الواقف امامي شخص انا حبيبته وليس حبيبي، غائب انت يا إياس وارملة انا مثل امي... لم استطع تمالك نفسي أكثر، تهالك قلبي، تأثرت جدا يا للخذلان الذي اعانيه، تساقطت دموعي تتدافع مع بعضها، كنتُ اريد ان اقول لهذا الرجل الواقف امامي: ارحل من فضلك، ليس الان ولا في هذا التوقيت بالذات، كُف عن ملاحقتي. احمرتا عيناه وتداخلتا مع زرقة بؤبؤيه، حدثني بلهجة بصراوية

- البقاء لله، ان شاء الله آخر الاحزان ... انا روحي فداك يا فزارة لأي شيء...

- الحمد الله على كل حال...

تناول يدي بكل رقة وقبل رسغي. تداخلت شعيرات شنبه في مسامات يدي،

Telegram: electronic_library

تذكرتُ إياس مداعبا رسغي، الاحساس معه مختلف، فيه موجات سعادة لم اذقها من قبل ولن اذوقها مع اي رجل سواه مهما كان. يوسف أوسم من إياس، يوسف اشجع من إياس، يوسف مستعد ان يضحي من أجلي بكل شيء، لكن احساسي لا يتقد سوى مع إياس مثلما لا يشعل الحطب سوى الريح... دخل يوسف الى غرفة الجلوس وجلس مع ابو مريم ومصطفى وبقية الجيران، ثم انصرف بعد دقائق مسلما لأبو مريم ظرفا فيه بعض النقود والتعزية... وقد كتب لي بكل وفاء «بِسم الله الرحمن الرحيم (ولا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الاعلون ان كُنتُم مؤمنين) صدق الله العظيم

عزيزتي فزارة بعد كلام جل جلاله والتحايا الصادقة، لا أودّ ان أكون تقليدياً بتقديم التعازي وكلمات المواساة بل أتمنى ان أكون فريداً ومتميزاً بذلك... اعلمي يا عزيزتي أني جئتك بعينين يسودهما بريق الدمع حاملاً قلباً يقطر دماً من الالم وتأكدي أني على استعداد دائما لتقديم اي شيء قد يساعدك ويهون عليكِ وارجو ان لا ترددي في ذلك ...

ومع حبي وتحياتي المخلص يوسف الجبل...

سلمني الظرف ابو مريم وانا رافضة له، وأودعته مع نقوده السابقة على امل ارجاعها في القريب العاجل.

ماذا بقي من أبي؟ أشياؤه الصغرى: راديو صغير كان يسمع منه مونتي كارلو، ساعة جيب سويسرية مطلية بالذهب وممتنعة عن الشغل، قصاصات ورق فيها كلمات أغان يحبها مثل «سهار بعد سهار» وبعض من صوري القديمة وصورة لامرأة تشبهه كثيرا.

Telegram: electronic_library

هناك دُفن ابي في مقبرة الشيخ معروف حيث تجاور القبور بعضها وتواسي بعضها، ويتفتت الرفات بعضه فوق بعض، لم يعد هناك مكان سخي للموتى الجدد حتى يقبع الميت لوحده في قبره، بل أصبح نزيلا في قبر من قبله، لهذا يحفر الدفانون القبور القديمة ويجددونها بأجساد جديدة. البخور وماء الورد هي احتياجات الدخول الى المقبرة تعلمتُ ذلك ممن لديهم موتى قبلي...

قرب لافتة أبي السوداء لافتات نعي كثيرة تزداد كل يوم، رأيت لافتة وعليها صورة شاب صغير، تذكرته أنه حارس موقف السيارات في أبو نؤاس « استشهد في تحرير الرمادي».

Telegram: electronic_library

- ١٩ -

هذا هو الشارع الذي ابتلع احلامي، امنياتي، ابتلع قلبي، هنا كنتُ اقابل إياس ويبدو أني هنا كنتُ اقابل خيبتي التي ما اتضحت معالمها الا الان، هكذا يأكلنا الحب كوجبة لذيذة ثم يرمي ما تبقى منا بعيدا عن معدته الممتلئة، رماني الحب كرمزٍ للوحدة بعيدا جدا عنك وابعدني عن صحنه بعد أن قضم لذتي بين فكيه، آه يا إياس داخلي احاسيس مزدوجة، أحبك واكرهك، اشتاق إليك وأفضل هذا الابتعاد عنك، ليتك بقيت خالصا معي دون تلك الاضافات الكريهة في حياتك، دون ظروفك وميولك وعملك، أتيتني رزمة جاهزة؛ حاولت كثيرا تقشيرك وما فلحت، فهضمتك ثمرة طازجة بحلوها ومرها.

هذا هو الشارع الذي اتمنى ان القاك فيه صدفة، كما رأيتك صدفة، اركض اليك لأنها الصدفة التي ترتجيها قدماي الراقصتان، وتتمناها ذراعاي المشتاقتان، اريد ان احتضنك لأكفرَ تكفيرا حلوا عما في قلبي من لؤم ومن حب، علّي أجد احلامي التي ضاعت على كتفيك...

إياس، الحياة ليست عادلة، انها جاحدة وقبض ريح و»زي الهوا» تلك الأغنية التي كانت تحبها أمي ، تغوينا بجمالها ورقتها حتى نمارس معها بليّة الحب، لمرة واحدة، وندفع الثمن غاليا مما تبقى من عمرنا...فما الذي تبقى! هذا الشارع كان يوما ما مزدهرا بك ومخضرا باستقبالك، اراه اليوم عابسا بائسا تعيسا بخراب فرعيه وبكاء أبنيته...

Telegram: electronic_library

رحل ابي ورحلت انت دون سابق انذار، أتظن أنك لو انذرتني كنتُ سأستسلم لجرس أحمق ينبئني برحيلك، كنتُ لأقطف لسانه بعيدا عن اذنك قبل اذني، اعترف الان بهزيمتي، وبأني يتيمة بشكلٍ يرثى له، انا من بعد ابي لا أنتمي لسواك، وسواك لا اعرف اين لفّته الارض عني، اراهن لو ان اي منظمة انسانية خيرية ستراني الان لتبنتي وبكتني بكل مؤتمراتها وندواتها البالية ...

كثيرة هي الحروب التي غنت باندلاعِها على ارض العراق وابتلعت بألحان اسلحتها اهاليه، ياااااه، يا لكثرة الاقمشة السوداء التي بيعت في الاسواق وعلقت في الفروع وهبطت تغطي صدور النساء وها هو الاسود يغطيني، وما زلنا رغم كل ما جرى يزداد عددنا، الان فقط، الان اسال: الا يوجد بين هؤلاء الملايين من العراقيين الذين يتزايدون كل يوم شخص قادر على احتضاني وأن يجعلني قادرة على أن أنسى كل ما حصل لي، وان يعطب عصب الذاكرة في ذاكرتي ويزودني بشريحة حياة اخرى؟...

ركنتْ سيارة بجانبي. هذه السيارة ليست غريبة علي، تبدو ككلبٍ وفيٍّ يشمُ ملابسي، حمارها الزاهي يذكرني بما لا اريد استذكاره، انها سيارتي، ترجل منها يوسف، آه، لا، لا يعقل ان يلاحقني بلا تعب ولا ملل بكل مكان، انا الان خاوية مثل جرة في كهفٍ منسي، لا أستطيع حتى ان اقاوم وارفض قدومه، نظرت اليه بانكسار وتعب... تقدم نحوي برشاقة وغطى كتفيّ بشالٍ اسود خفيف:

- تبدين شاحبة... عيناك داكنتان، الا تنامين؟

كنتُ متعبة لدرجة انني لا أستطيع ان اجيبه بأي شيء انظر اليه مثل دمية شاحبة شائخة...

Telegram: electronic_library

- ما الذي تفعلينه هنا؟ مررتُ صدفة ورأيتك...

تباً، انها الصدفة التي كنتُ ابحث عنها مع إياس، لماذا تصير مع يوسف، تمنيتُ لو ان للقدر اذنين، لجررته منهما وصرخت فيهما حتى يفهم «انا أحب إياس وليس يوسف»... يدفع الينا الزمن من لا نُحبهم ليكونوا سندنا ويدفع عنا من نحبهم ليكونوا وجعنا...

- تعالي أعيدكِ الى البيت...

سيارتي كما هي لم يتغير فيها شيء حتى غبارها كما هو لم ينظفه يوسف بل احتفظ به، أسفل المسجل كنتُ احتفظ بأغراض إياس، نظاراته وسبحته وقبُله الخاطفة، اشعر بأنفاسه الان وهي تحيطني، يوسف يحاول ان يأخذ مكان إياس وهذا ما لا يمكن ان اسمح به...

دخلنا الى الكرادة ...

- من فضلك هل تستطيع ان تتوقف لحظة اريد ان اشتري شيئا من هذا المحل...

- اجل بالطبع، أخبريني ماذا تريدين

- أشياء نسائية. ارجو ان تتوقف...

توقف يوسف، اشرت له أني ستأخر خمس دقائق فقط، وان المحل هنا في هذا الفرع الذي دخلته، بدأت اركض، واركض وانفاسي تركض معي تهبط وتنزل باضطراب، حتى عدتُ الى الجهة الاخرى ووصلت الى ابو نواس، لوّحتُ لأحدى سيارات الاجرة، استلقيتها فورا وطلبت من السائق ان يعيدني الى البيت...

Telegram: electronic_library

آه، سوطٌ وحشي كان يجلدني بلا رحمة، بلا رأفة وانا اصرخ مثل اسير محمل بالانتصارات على غريمه. دخلت الى غرفتي اردت ان اغلق الباب لكنه الذي خلعه أبي ولم يعد مهما ان اغلقه على نفسي بعدما أصبح البيت خربة مهجورة ليس فيها سوى ثنائي نسوي بائس ...

اتصل بي يوسف عشرات المرات وأرسل الي مئات الرسائل وأخبرني انه يحاول ان يطمئن علي، خائفا ان اكون قد اختُطفت، ارسلت له رسالة يابسة أني عدتُ الى المنزل وارجو ان يتركني وشأني...

زارتني تارة عصرا برفقة احمد وقدموا التعازي وأخبراني انهما لم يسمعا شيئا عن إياس منذ ان كنا في بابل وان احمد حاول الاتصال به مرارا ولم يستطيع الوصول اليه...

أصررت على احمد ان كان يعرف عنه شيئا فليخبرني. أيعقل ان احمد لم يذهب الى مكان عمله للاطمئنان عليه؟ وبعد إلحاح...

- إياس اختطف لمدة ثلاثة ايام بعد عودتنا...

نصلٌ دخل في قلبي فأرداه قتيلا...

- حاصرتْه سيارة قرب الأمن العامة قرب المشتل وطلبت منه ان يترجل، ضربوه بأخمص المسدس على ظهره وطلبوا منه ان يغمض عينيه وينزل رأسه. اقسم لي ان السيارة الاخرى التي أتت لأخذه كانت سيارة شرطة باترول وانه قد احتجز في منطقة البلديات. بررت العصابة انها اختطفته لأنها تشك فيه بانه ارهابي داعشي يعبث بأمن بغداد، فأخبرهم: ان كنتُ كذلك لم لا تسلمونني للشرطة؟ لماذا تخطفونني؟ كما انه

Telegram: electronic_library

أخبرهم انه كان سابقا يعمل في فرقة خاصة تابعة لوزارة الدفاع بالإضافة الى كونه صحفيا حربيا من جنوب العراق! لكن هذا لم يكن مهما عندما بدأوا يساومون اهله على مبلغٍ من المال حتى اتصل بعد فترة شيخ عشيرتهم بالمختطفين وأخبرهم ان كان إياس ارهابيا فاقتلوه، وان كان من ابناء عشيرتي فأنا امهلكم حتى العصر ان تفكوا اسره والا لن يبقى أحد من افراد هذه العصابة التي يعرفها جيدا... العصابة كانت تعرف المتصل جيدا وتعرف مكانته الدينية والاجتماعية وعلى هذا الاساس أطلقوا سراح إياس ...

-اين هو الان؟ ولماذا تلفونه مغلق؟ ولمَ لا يتصل بي؟

- إياس دخل في عزلة...

- كيف عرفت؟

عرفت ذلك من اهله...

- بربكَ! انا اموت هنا لوحدي، أفكر فيه وهو يدخل في عزلة؟

- اهدئي فزارة.

- ارجو ان تأخذني اليه...

- فزارة، إياس لا يحدّث أحدا ولا يردّ على أحد...

- ماذا؟

- آسف، هذه هي الحقيقة، أظن ان حادث الاختطاف أثر عليه، وهذه تبعاته لربما يتغير بعد مدة من الزمن ويعاود الاتصال بنا للاطمئنان عليه ويعاود الاتصال بك.

Telegram: electronic_library

- كلا احمد، انت لا تفهم ما الذي تقوله...إياس لا يمكن ان يفعل بي هذا بتاتا، انه يُحبني وانا واثقة من ذلك، هناك خطأ ما، اننا واحد، إياس يعاني من انكسار، اعرف كيف يفكر كرجل، اظنه يعاتبني لأني لم احاول جاهدة ان اتصل به او ان احاول اكتساح بيت اهله، لكني اخاف واستحي من مواجهتهم، لكنه في انتظاري... يجيب ان تأخذني اليه، إياس لن يتعافى دوني...

ربتت تارة على كتفي واحتضنتني....

- تارة انتِ لا تفهمينني ايضا، إياس مهما غاب لن يتخلى عني، انه يحبني لدرجة الفقد، لقد حصل شيء ما معه، انا اعرف ذلك... انتما لا تعلمان أني انسان ميت منذ الولادة، قدمت كل شيء منذ الصغر، منذ ان رُبّيت في بيتٍ متضرج بالمشاكل وبآفة التعصب السلوكي، ابوان مشتعلان دائما، مفترقان، وجهان بائسان، وانا شمعة طافية بينهما، أحببتُ إياس لأنه عوضني عن ذلك، ولأنها الكيمياء التي نشبت بيننا، ارجو ان لا اكون قد خسرت الشيء الوحيد الذي بقي لي، لأنني وقتها فقط لا اعرف ما الذي سأفعله بنفسي... اشعر باختناق فظيع، انا لا استحق كل هذا العذاب او كل هذا الألم.

-هوني عليكِ عزيزتي...

-كيف؟ أخبراني كيف؟ كيف اطفئ نارا مستعرة في قلبي وانا لا املك قطرة ماء! ارجوك يا احمد، خذني اليه، إياس في انتظاري، انه بحاجة لأن يمسح تعبه بشعري.

- لا اعتقد انها فكرة جيدة في الوقت الحالي.

- اذن، اذهب اليه من فضلك، وأخبره بأنه لابد ان يتحدث معي، إياس لن يرضى ان أبقى وحدي خصوصا بعد وفاة أبي.

Telegram: electronic_library

التفتُّ الى تارة وانا انتحب راجية اياها ان توافقني في الرأي.

- إياس لن يخذلني يا تارة، اليس كذلك.

داعبت شعري وهي تحتضنني.

- لن يخذلك حبيبتي لن يخذلك.

همس صوتٌ في أذني، فتحت عينيّ ببطء، كان الظلام يحوط كل الزوايا والمجسمات والاشكال، الا ملامح وجهٍ قاسٍ اعرفه، واعرف طعم جلده جيده، كان وجه إياس...

- إياس حبيبي، اظن ان الساعة متأخرة جدا، كيف أتيت؟

- انسيتِ ان الباب مخلوع؟

- وكيف دخلت الى الشقة؟

- لا يهم، تعالي، تعالي، قومي مثل حورية فارة من البحر، وتعري، ودوري كراقصة باليه حزينة كما تحبين، ارقصي لوجعي، هاجم الخذلان مُدني كلها وما تبقى لي سوى حصنك ألجأ اليه...

- ظننتك تركتني...

- اشششش، حتما لا، فزارة، قدرنا واحد ودروبنا تنتهي وتلتقي بشوارعنا القديمة

- إياس، انا لا حياة لي من دونك، لماذا تركتني اواجه وفاة أبي وحدي؟

- متُّ بالتوقيت نفسه الذي توفي فيه، الا أني عُدت الان الى الحياة...هيا قومي.

Telegram: electronic_library

امسكني من يدي، وسحبني اليه، تناثر شعري مسترسلا على ظهري، يده الخشنة هبطت على خصري، انا الان قرب بوابة الحب، إن قبلني فتحتُ البوابة ودخلتُ ارقص في روحه، اقتربت شفاهه مني، برد فظيع صفع شفتي، قالب ثلج ذاب وتسلل عبر شقوق شفاهي، اول مرة أجرب قُبلة كأنها صقيع، فجأة شعرتُ بان صدره يشع برودة ايضا، ذراعاه، انامله التي تعزف على ظهري، فتحت عيني... كنتُ واقفة وسط الغرفة وطيف إياس الابيض يراقصني، شعر بأني استيقظت، تلاشى وفر من النافذة...

- لا... إياس لا ترحل... أبقى ارجوك.

سقطتُ في بقعتي، خارت قواي، لا يُمكن ان يكون هذا حُلما بنكهة الواقع، كنتُ اتفرج على نفسي من بين اجنحة المروحة التي تدور فوق رأسي وتغني وتبكي، كنا كفريق خاسر نقدم مراسيم العزاء لبعضنا بعد هذا المشهد التراجيدي الذي حصل الان...

اشعر بك، واشعر أنك الان منكسر حزين غاضب في احدى زوايا غرفتك، ولهذا جاءتني روحك لاهثة تبحث عن مأوى، نمتُ في مكاني، احاول ان اغزو عالم إياس الان انا هذه المرة، فيتراءى له طيفي، يحتضنه، يبكي له وعليه، يحاول ان يعيده الي حلوا مرا كما عرفته.

.....

مرت الايام تلتصق ببعضها، ايام متشابهة، طويلة حبلى بالانتظار والآمال الكاذبة. يبدو ان هاتف إياس شهيد يجاور قبر ابي، طلبته كثيرا دون جدوى، هاتف مغلق مثلما يغلق القبر... لقد دفن إياس علاقتنا وختمها. كنتُ اعلم ذلك

Telegram: electronic_library

منذ البداية، وارى امامي ان فرص استمراريتي معه هي فرص ميتة لكني رغم كل هذه الشكوك والصور التي امامي سمحتُ لحبي ان يولد، ارضعته حناني وصدقي وعافيتي وايامي. كنت كأم تربّي طفلا معاقا لن يصمد كثيرا، لكنها الامومة اعظم من اي احساس اخر... كتبت على الفيس بوك «لا تجزع من جرحك والا فكيف للنور ان يتسلل الى داخلك؟» وكالعادة انهالت الاعجابات من الاصدقاء والزملاء والغرباء، اشعر ان حزنا ننشره هنا في هذا العالم الافتراضي ينجح بسهولة في استقطاب الاخرين، اننا نعيش في بوتقة انكسارات متعاقبة، كل مستخدم يوظف قول جلال الدين الرومي حسب اهوائه ومشاعره وانكساراته ومواساته لنفسه، وانا أوظفه في استذكار روحك، لن اجزع من جرحي وسأنتظرك، كما أني لم اجزع من معاناتي المستمرة ومهامي الجديدة التي استلمتها بعد وفاة ابي وجنون امي. يبدو انها لم تعد تلك التي أعرفها، لم تعد تتحمل اعباء الحياة والمنزل الذي لم يكن منزلا من الاساس، لم يكن سوى ٥٠ مترا تلم اجسادنا من عري الشوارع وتشردها ويلاحقنا عليها صاحب العمارة الذي تجاهل بكاء حيطانها لسنين طوال وتصدعها اثناء المطر وتجاهل وحشة وظلمة ممراتها، تذكرها الان ، اللعنة!، تمنيت لو ان التعساء مثلنا دوما في الذاكرة لكن على قدر المحبة والمساعدة لا الخذلان...

كان عليّ ان أخبر امي اننا مهددون باستقبال صيف العراق بكامل تحررنا من الستر، نستقبله في الشارع، لم يعد الخوف من العيش في قطعة أرض المولدة الكهربائية امرا بعيدا، بات يقترب رويدا رويدا، سآخذ أريكة جدتي وثلاجة ابي العشتار، فالإنسان فانٍ والأغراض باقية مهما دارت الكرة الأرضية تشطب ايامها...

Telegram: electronic_library

- ٢٠ -

لقد ورطت نفسي في حب يائس وعليّ أن أتورط مع أمي في حبها المتأخر.

طلبت من هاتفي ان يتصل بأمي، فهي لم تعد تفتح باب غرفتها كثيرا لي، تختبئ ساعات طوالا في الغرفة، اتلصص عليها خوفا وليس بدافع الفضول، حركاتها مريبة، تتحدث مع نفسها واحيانا كأنها تحدث رجلا، تلبس قميص نوم قصيرا اسود وتصبغ اظافرها بالأحمر، تبدو مثيرة رغم انها لا تضع اي مساحيق تجميل، بشرتها دهنية وتحت عينيها سواد حفيف، شعرها يقاوم صدأ السنين، لا تأكل شيئا سوى اللبن وفتات الخبز، سجائرها «الكريفن» تتسلل من باب غرفتها لتبطش بنقاوة المكان، نحفتْ كثيرا لدرجة اني خفت عليها من المشي حتى لا تنكسر، بالكاد تحدثني كلمتين او أكثر، ردت علي بصوت مُتعب:

- فزارة

- امي، هل تسمحين ان تفتحي الباب، اريد ان اتحدث معكِ؟

- ما الأمر؟

- لابد ان نتحدث

صرخت بوجهي آمرةً: قولي بماذا تريدين ان تتحدثي

- بشأن الشقة

- تعالي...

Telegram: electronic_library

فتحت الباب، يبدو انها كانت سهرانة، بالكاد تقف على قدميها، تأملت وجهي والتعب يتناثر من رموشها وانفاسها، ابتعدتْ عن الباب وراحت صوب الفراش، جلست عاكفة ساقيها النحيلين، بانت بعض الدوالي البنفسجية فوق ركبتيها، جذبت علبة السجائر وبدأت تدخن

- ما بها الشقة؟

- جاء صاحب العمارة قبل فترة مع محاميه وحرس وأبلغوني اننا لابد ان نخلي الشقة.

- اعلم

- كيف تعلمين؟

- لأنه اتصل بي ايتها الغبية

هذه اول مرة تنعتني امي بهكذا صفة، لا اصدق ان امي فقدت عقلها وتنظر الي كمريضة في مستشفى الامراض العقلية

- لابد ان نجد حلا

- لا عليكِ، سويت الامر

- كيف؟

- سننتقل الى منزل د. محمد في الصليخ

- د. محمد؟ الرجل الذي كنتِ تعملين عنده؟

- نعم

- كيف؟

Telegram: electronic_library

– لماذا تسألين كثيرا؟ قلتُ لكِ اننا سنذهب هناك، ومثلما أجرنا هذه الشقة، سنؤجر تلك، مع خصم لأنني اعمل في عيادته

– وهل نترك الكرادة؟

– نعم

– كيف امي؟ لا أستطيع، لقد تربيت هنا، ولا أستطيع الخروج من هذه المنطقة، لا اعرف اي شيء عن الصليخ كما أني لم ازرها من قبل ولا اعرف اي شيء عن شوارعها وناسها وعاداتهم

– كفي عن هذا الهراء والدلال، ليس لدينا الكثير من الخيارات، كان أبوك يتذمر كثيرا وانتِ مثله، تشبهينه في العناد، هناك اناس يتركون بيوتهم بما فيها من اثاث ثمين ويهاجرون الى الخارج او الى العراء في المخيمات وانتِ تبكين على شقة قذرة اثاثها قذر...

– لماذا تتحدثين بهذه الطريقة؟ هذه الشقة القذرة وان لم تكن لي فهي وطن، اعتدت عليها واعتادت علي... لماذا لا نستأجر شقة في الكرادة؟ هناك شقق في الكرادة داخل وقرب ساحة كهرمانة ايضا ...

– لا، لن أبقى في هذه المنطقة المملوءة بالموت والانفجارات

– هي ليست هكذا، انها مدينة تعج بالحياة، انها عراق مصغر!

– وما الذي تعرفينه عن العراق؟

– كل ما يمكن ان اعرفه عن وطني.

– لا اعلم متى ستكبرين، وتعرفين ان خياراتنا في الحياة محدودة... وكلما كبرنا في

Telegram: electronic_library

العمر تصير محدودة أكثر، ارجو ان تكفي عن سخافات الروايات وشعارات الفيس بوك... اخرجي الان، انتهى الحديث.

خرجت من الغرفة والحمرة تشعل خدي غضبا. امي لم تعد طفلا او مراهقة لكنها في الوقت ذاته امرأة قوية محبطة، ربما فقدتُ تلك المرأة الحنونة المضحية... ارجو ان تكون هذه فترة تحول في حياتها ستعود بعدها الى طبيعتها، لماذا تتكلم معي بهذه القسوة وهذه النبرة... اشعر انها تريد ان تتمرد على كل حياتها التي عاشتها سابقا مع أبي بدءًا من تغيير المنطقة التي لم تعد تعني لها شيئا، مثلما هي قصة طفولة وحياة...

فتحتُ الفيس بوك، كان دجتل آرت قد أرسل عشرات الرسائل يريد ان يعرف عنواني

- آسفة ارت، لم يكن تلفوني معي

- فزارة ابن خالي يريد ان يعرف عنوانكِ حتى يوصل الحذاء لكِ

- شكرا ارت، لا اعرف ماذا اقول، حقا انا ممتنة لك لأنك تتذكرني وسط زحام الناس هذا

- انا اعتز بكِ جدا صديقتي، انتِ تعنين الكثير بالنسبة لي، أنت ملاك يعطيني املا في الحياة

- هذا كلام كبير.

- هذه هي الحقيقة، انا لا اعرفكِ في الحقيقة، لكن روحكِ قريبة مني جدا، تسليني في هذه الوحشة، اتفاءل عندما اعرف أنه مازال في العراق فتيات جميلات ومثقفات وراقيات مثلك.

Telegram: electronic_library

- ارجوك... أبق في الوحشة، هي خير من وحشة الوطن

- لا تقولي ذلك العراق بلد جميل لولا الدمار الامني

- لولا

- هل بدأت تفكرين بالهجرة؟

- قطعا لا... اخبرتك سابقا، لا أحب المغامرات الجديدة وأكره الصفر الذي ولدت فيه ولا اتقدم نحو الواحد...

- ماهي اخبار الشقة؟

- اوه، ارت، ارجو ان لا تسألني انا بائسة جدا، امي لا اعلم ما خطبها منذ وفاة ابي، تغيرت اصبحت امرأة اخرى لا اعرفها

- كيف؟

- تصرفاتها وطريقة تفكيرها وطلاء اظافرها الاحمرُ المقزز

- هل تنزعجين من طلاء اظافر

- لا وانما كيف تطلي اظافرها بهذا اللون الفاقع وابي لا تزال ذكرى وفاته نديّةً؟ مالذي سيقوله الناس علينا لو رآها أحد؟

- لماذا تفكرين بالناس دائما؟ ولا تفكرين بنفسك وامكِ؟ فقد يحسن الطلاء مزاجها

- لا اتصور، اعتقد ان هذه سخافة

- لا تقولي هكذا، لا نعلم في الغالب لماذا يعمد البعض لنهج تصرفات غريبة، لكن يبدو انها تريحهم، امكِ بحاجة لفترة راحة، وان كان طلاء الاظافر يريحها فلا

Telegram: electronic_library

بأس، الناس لا تشعر بما تشعر امكِ الان، ثم اننا متمسكون بموروثاتنا الاجتماعية في الغالب وأحيانا بعضها قد يكون خطأ، هل لبس الملابس السوداء يعبر في الغالب عن الحزن؟ حتما لا، الحزن في القلب يا فزارة، هدّئي من روعكِ واحتويها...

- اتمنى ذلك، لكنها نعتتني بالغبية عندما اخبرتها عن الشقة وهي لا تتفوه بهكذا الفاظ معي

- لا بأس انتِ ابنتها، ما بها الشقة؟

- لابد ان نخليها، تقول امي انها وجدت بيتا في الصليخ وتريدني أن انتقل هناك، اخاف التغيير يا ارت، لم اعد بكامل قواي النفسية حتى اخضع لتغييرات مصيرية.

- تستطيعين ان تزوري الكرادة متى شئت، ثم أني اخبرتكِ سابقا ان بيتنا في المنصور مفتوح لكِ وهو فارغ...

- شكرا لك ارت، وشكرا لكرمك

فكرت أن أحمل على موقعي أغنية»جنة جنة والله يا وطننا» ثم غيرت رأيي

التسوق واحد من المهام الجديدة التي اوكلت إليّ، مع خسارة ابي وخسارة عقل امي وخسارة السيارة وخسارة ديمومة المصروف. حسبتُ ما تبقى لنا من نقود، كل ملكيتنا انا وامي الان هي ٧٥٠ الف دينار عراقي، عليّ الاقتصاد بها قدر المستطاع حتى نبلغ اشد الايام تصحرا. اضطررت لان الغي اشتراك المولدة فلم اعد استطع ان ادفع ١٢٥ الف دينار على ٥ امبيرات لتشغيل المبردة وثلاجة العشتار، لهيب الصيف يخترق جلدي ويحمي كريات دمي، العرق مثل الدمع ينزلق

Telegram: electronic_library

من رقبتي، مطرّيًا صدري ليستقر في سرّتي كما لو انه يصب في المنبع، اشعر بغثيان وبرغبة التقيؤ لهذا تركت الطعام الذي لم افتقده منذ وفاة ابي، افترش الارض وألوذ ببقايا برودتها، تاركة العنان للنافذة ان ترحمني، اما امي فلم تكترث بالمطلق ولم تخلع قميصها الاسود القصير...

كنتُ احضر نفسي للذهاب للتسوق، ارش عطر امي الـ Temps حتى اتخيلها انها ستخرج برفقتي، يختلط عطرها بعرقي فأشعر ان روحها طاغية على حضوري. مسحتُ شيئا من هذا الحِمام الذي يضخه جسدي وتذكرت إياس قبل ان نذهب الى الحلة في بيت احمد وتارة، عندما عطلت منظومة الكهرباء الوطنية في المنطقة، واضطررنا لان نبقى في الظلام على ضوء الشمعة. كان الصيف يفتح ابوابه ببطء على مصرعنا، على تلك الكنبة المريحة الجديدة التي لا تشبه أريكة جدتي، احمد وتارة انسحبا الى الحديقة لنجلس جميعا هناك في الجو اللطيف، الا ان إياس ظل يعبث بهاتفه، يفتش في الفيس بوك لا اعلم عن ماذا ولا يهمني. نور الشاشة يلمع في بؤبؤيه وهو يتجاهلني، هل كان متعمدا، ام سارحا؟ وضعت رأسي على كتفه، ومددت ذراعه وصولا الى كتفه الاخر، تحسست العرق المتصبب من رقبته، غزيرا عذبا مغريا، دسست رأسي في قميصه، اشم رائحة جلده المنبعثة، طلب مني ان ابتعد لأنه مشغول بقضية ما...

- إياس، ما الذي يشغلك حبيبي؟

- فزارة، اتركيني قليلا، الجو حار جدا حبيبتي

- إياس، من يسرقك مني؟

Telegram: electronic_library

- دقائق واعود لك...

- إياس وإذا كان الجو حارا هل تريدني ان ابتعد عنك؟

- من فضلك فزارة، صدقي اكاد ان اختنق من الحرارة

انا كامرأة، أَرفضُ ان أُرفَضَ ولو كانت العوامل الطبيعية تتدخل في ذلك. جرحني ابعاده لي، لن اقبل الا بالنصر عليه وعلى الحرارة، مستعينة بالظلام وأدب النسوة في الاغراء، اقتربت منه مرة اخرى، قبلتُ لحمة اذنه بهدوء وناديته برفق «إياس» وانا امد يدي لهاتفه حتى اسرقه، التفت الي كأنه صحا من سبات لم يعِ عليه، عيناه في الظلام حكاية، تشبه المآذن المنورة في بغداد، تشبه قناديل جدتي في الحديقة، ناعسة وجميلة ومعبرة، أحبه، واشعر ان هذا الاحساس وظيفي يعمل داخلي بالثواني مثل وظيفة الاوعية بنقل الدم، مثل وظيفة الدماغ في التفكير، او كما ينتزع الكبد السم من الجسد، فحب إياس ينتزع الإحباط واليأس من حياتي، انه يسلمني للدنيا راقصة باليه مملوءة بالجمال والطاقة...

- ما الذي تريدينه ايتها الشقية؟ تريدين ان اقبُلك حتى يغمى عليكِ؟ حتى تشعري باللهب...

رمشت له بعيني، فيما غمازتايّ ترقصان في الظلام بفتنة. قبلهما بسخونة واحتضنني، سقطتُ عليه، مدّ يديه وأطفأ الشمعة الموضوعة على المنضدة، ذاب في ثغري واشتعل جسدانا بالنار، فأضاءا العتمة بتلاحمهما، كأننا زوج القناديل الذي كانت تعلّقه جدتي في أحد اركان الحديقة المظلمة لأنارتها، او كأننا سمكتان لامعتان تجذّفان في نهرٍ ساخن...

Telegram: electronic_library

مذاق عرقه السخي يشبه عصير التوت البري في استوائه وحمرته وعذوبته... شكرت وزارة الكهرباء على تقصيرها المحترم. لأول مرة يأتي في وقته المناسب حيث يكتسح الظلام والهدوء المكان ويعطي مجالا للحرارة ان تهبني خلاصته، ليتها لحظة مشلولة، لا تنتهي، او لحظة عنقودية، تلد للمستقبل القريب لحظة اخرى حتى أُطهى معه في فرنٍ اخر، اشد حرارة وأصغر مساحة.

اشتاقُ لإياس جدا، ليست روحي وحدها، اشعر ان عظامي تئن حنينا اليه، خلايا جسدي تفتقر اليه. اتصلت به في محاولة يائسة، هاتفه مغلق، شعرت ان عرق عيني يتساقط على الشاشة، ثم تلاطمت الدموع تبلل رموشي وتحتضنني...

ارتديتُ ملابسي وهربت من الغرفة والهاتف والعرق والذكريات الى الشارع، عبرت الممر راكضة ماسحة عيوني، مبتلعة غصتي، نظرت الى قوابيس الكهرباء، كلها مرتفعة بشموخ متحديةً تكاليف المولدة، الا قابسنا الموجوع، كأنه قد أغمض عينيه خجلا....

في سوق الناظمية، شعرت ان الجميع ينظر الي بعيون العطف والرأفة. اشكر تعاطفهم لكن في الوقت ذاته يجرحني هذا الاحساس، لم اكسر بعد وان مات ابي، بل انا ابنته وانا استمراريته وذكراه. دخلت الى اسواق ابو ليث، لم أكن اعرف ما الذي اريد شراءه حقا، لأن امي لا تأكل شيئا، اما انا فأكتفي بما يسد رمقي. بعد رحيل ابي لم نعد نتسوق كما كنا سابقا ونلتزم بإعداد الوجبات الثلاث. اقتربت من قسم الحبوب الجافة ورأيت عيدان السباكيتي التي كان أبي يحب طهيها، يضع عليها صلصة طماطم حادة وقطع جبن سائحة الى جانب « النارنج» اللذيذ... تلمست

Telegram: electronic_library

كيس السباكتي، كأنني اريد ان اتلمس اصابع أبي واقبلها، جذبت الكيس وقبلته. كانت غصتي، عندما تذكرت إياس، ما تزال في ضلوعي، لم استطع حبس دموعي، انسكبت مني، من ارتباكي، سقط الكيس من يدي، تبددت عيدان السباكتي في المحل، عم السكون في المحل والتفت من فيه اليّ. وضعت يدي على خدي، اشحت بنظري بعيدا، ومن خجلي تركتُ كل الحاجات التي اشتريتها وهربت من المحل، انفجرت بالبكاء مرة اخرى، سمعت ابو ليث يناديني لكني لم التفت بل غبت في العمارة، فتحت الباب بسرعة، سمعت امي تضحك بصوت عالٍ، استغربت، لكني تجاهلتها، دفنت رأسي في الوسادة اشرب من دموعي.

Telegram: electronic_library

- ٢١ -

منذ تلك الليلة المشحونة بالنهايات، يوم غاب ابي عن الحياة وانتهت قصته معنا وقصتنا معه، اشعر ان الفزع عندي تصدر اعلى مستوياته، الطرق على الباب يصيبني بالهلع ويعتري روحي بالتحليلات، من الطارق وما وراؤه غير وفاة ابي وطردنا من الشقة؟ وبعد ساعات من البكاء الذي احتواه النوم قمت اركض لإسكات ايقاع الطرق المستمر على الباب، فتحتُ الباب، وجدت حذاء الباليه بقماشه الساتان ولونه البصلي يجلس على سجادة الدخول، ارجعتُ يدي الى صدري وعيناي تلتمعان من الفرح، اووووه، ما هذا؟ وصلني الحذاء من المانيا... مددت يدي اليه الا ان وجهًا بعينين زرقاوين كان يختبئ بمحاذاة باب شقة ام مريم ظهر امامي، فزعت وصرخت الا انه امسك كتفي بسرعة لتهدئي...

- فزارة، اهدئي ...

- ما الذي تفعله هنا ايها المجنون؟ لماذا اخفتني ...

- اهدئي ارجوكِ، انا اسف...

- ارحل من هنا قبل ان انادي على كل سكان العمارة.

- حسنا، سأرحل ولكن دعيني اعطيكِ الأغراض التي نسيتها في محل ابو ليث

- اي أغراض؟ لم انسَ شيئا ولا اريد شيئا

نظرت الى الكيس الذي كان بيد يوسف، لبن وعلبة معجون وسباكتي، اه ... اصابع ابي في الكيس، ركضتْ خلفي الى الشقة بعد ان تركتها، تريد الاشتباك مع

Telegram: electronic_library

اصابعي، ابي يحبني ويريد اللحاق بي بكل مكان... اخذت الكيس بهدوء واعدت النظر الى عيني يوسف، عينان جميلتان، واسعتان ومعبرتان، وكانتا قد احمرتا الان من الخجل والخوف، اشعر أنه يتأسف عليّ وعلى اخافتي، لكنه يبدو ثاقبا بتحديد اهدافه ومواصلة الحصول عليها، لكني لستُ هدفا، ولن اسمح لكرته ان تسجل نقطة في شباكي.

- هل اعطاك ابو ليث الكيس؟

- لا، ذهبت لأشتري لكِ بعض الحاجات التي اعتقد انها ضرورية لك وسألته ما الذي يشتريه عادة بيت عمي ابو فزارة، فأخبرني انكِ نسيت كيس السباكتي...

- هذا صحيح...

نظرة سريعة اليه، جذبت حذاء الباليه وكيس السباكتي بيدي وحاولت ان اغلق الباب في وجهه، لكنه دفعه بكل قوة وغضب، عيناه الان تشبه بحرا يهدر في عاصفة رملية... صرخ

- فزارة !! فزارة !! كفّي الان عن هذه الحركات، هذه ليست حركات شابة مؤدبة، هل هكذا تعاملين الناس؟ تستطيعين ان تقولي لي ارحل وسأرحل وقلتُ لكِ بأني سأرحل لماذا انتِ جافة هكذا؟ منذ فترة وانا احاول الاطمئنان عليكِ فقط، لم ازعجكِ، لم اتطاول عليكِ، كنتُ اريد ان اصير لكِ رفيقا وصديقا وعونا ليس الا، لم يجذبني بكِ شيء سوى هذه البراءة فيك، هذا الضياع القابع بين ملامحك، ضياعك هذا دليلي، به اضاءت كل خرائط العالم لي... انا أحبك.

- ارحل

Telegram: electronic_library

مد يديه الى خدي وطبع قبلة صغيرة على شفاهي، استشاطت روحي غضبا، وشعرت بأني سأتقيّأ، كأنها قبلة غول مقرف، صفعته بكل ما اوتيت من قوة وغضب وتعاسة...

- اياك ان تفكر بتكرارها، ستندم صدقني...

صفقت الباب في وجهه، سمعت لحن قدمه وهو يبتعد بسرعة، لابد ان ظلام العمارة الان قد ابتلعه، معتوه، يشعر بأنه يستطيع امتلاكي فقط لأنه غني او وسيم، ثم تذكرت شيئا مهما...

- يوسف، يوسف

التفت الي متفاجئا...

- ارجو ان تعود، اريد ان اتحدث معك

- هل هذه مبادرة صلح؟

- انتظرني لحظة واحدة وسأعود

- اين تذهبين؟

- اضع الكيس والحذاء في البيت

- حسنا

هرعت الى غرفتي، فتحت الخزانة، صرير بابها يخترق طبلة اذني، اظنها ستخلع هي الاخرى الى جانب الباب الذي خلعه ابي، نفضت ملابسي المتراكمة فوق بعضها بحالة هستيريا وجدت الظرف الذي كنت أخبئ به نقود يوسف التي اهداني اياها في العزاء ومن بيع السيارة؟ تقدمت اليه بتردد ثم أني اعطيته الظرف:

Telegram: electronic_library

- ارجو ان تحتفظ بهذا الظرف

- ما به؟

- أقرأه!

تحسس الظرف فأحس انها نقوده، صرخ ممانعا الا أني كنت جاهزة لقفل اي موضوع معه

- ما هذه النقود؟

- امانتك عندي شكرا على كل شيء... مع السلامة

اغلقت الباب من جديد، خشيت ان يراني احد من سكان العمارة، فيظن أني على علاقة بيوسف، واستغل الحرية التي أتيحت لي بعد وفاة ابي، اسيء لسمعة عائلتي وانتهك بذلك خصوصيات المجتمع المحافظ، اواعد شابا في العلن قرب شقتنا، رغم أني اعلم ان عددا لا بأس به من فتياتها وشبانها يلتقون في السر مع علم وتجاهل او جهل العوائل، سأنزعج كثيرا. لو ان كان إياس هو الطارق والمُقبل لما كنتُ سأهتم بالمطلق، أظنني كنتُ سأتمادى حتى، دائما ما اتخيل أني سأفتح الباب يوما ما وارى ان إياس كان مختبئا في العتمة طويلا، ينتظرني، يهب لغلق فمي بالقوة حتى لا اصرخ ثم يطمئنني، مشهد مقتطف من احلام اليقظة ربما لن يتحقق لكنه عالق في رأسي. اغلقت الباب ولا اعرف ما الذي فعله يوسف! هل اخذ الظرف ام لا؟ لا يعنيني ذلك لكني انتصرت عليه فيما لو كنت اعتبر ذلك انتصارا، في هذا الموقف ان اصارحه بحقيقة مشاعري تجاهه، والمصارحة احيانا وان كانت موجعة الا انها مهمة فقد تغير حياة انسان

Telegram: electronic_library

بأكملها ولربما تعتبر صحوة، صحوة مصيرية في حياتنا، قد نبكي ونتألم لكنها مثل الدواء، الدواء مر في العادة لكن الشفاء في مرارته، اتمنى ان تكون هذه اخر محاولاته الفاشلة التي صدمته بها حتى يصحو من نومه في حبي ويتركني، اسمع صوت اقدامه الغاضبة مرة اخرى لكن هذه المرة دون عودة.

Telegram: electronic_library

- ٢٢ -

انزوت امي في عالمها بين الضحك الشديد والبكاء المديد، في غرفتها القريبة من الصيف مع لعنة التيار الكهربائي الوطني الذي اصابه عطب التجهيز، بعيدة عما تبقّى من برودة ارضية غرفة الجلوس وعبق ابي، اختُزل الكلام بيننا، كلما حدثتها عن ضرورة العمل اخبرتني انها تتكفل بالمصاريف ولا داعي للخوف، فقد ادخرت مبلغا جيدا لتأمين حياتنا، وانا لا اعرف متى ادخرته امي التي كانت تدفع ايجار الشقة ومصاريف كليتي وتكاليف الحياة الاخرى، بدأت شكوكي تتبلور حول وضع امي، اظنها في علاقة غرامية ممنوعة مع رجلٍ ما، هذه المحادثات المطولة التي تحبسها في الغرفة ليست مع المرآة او مع جني مسالم، تلصّصت عليها أكثر من مرة، لم اقطع الشك باليقين لكني اشك بعلاقتها، تأمين السكن الجديد! المصروف المدخر! الاسلوب العبثي الجديد كأنه تمرد على سنوات من اختيارٍ أكله الندم، مشاعري متضاربة حولها، احيانا اشعر بكرهي لها ولخيانتها لأبي! ماتزال في فترة العدّة! وغير ذلك، فلو احتضنت امي ابي في تلك الليلة التي صرخت فيها انه اغتصبها! لما كان قد اغتصبها، كانت من الممكن ان تعتبرها ليلة حب عابرة، لما خرج ابي من البيت وقتله الحزن، لكن انا اعلم انها غلطة معتقة من سنوات، غلطة ابي التي لا تبرر، لو اصغى ابي لمعاناتها وهي تخيط الظروف مثل رداءٍ مرقع لاستمرارية هذه العائلة، لو ترك ابي حماقاته الساذجة وعناده المفرط، لو انه ترك قاموس السب والشتم واغدقها بعبارات حب وان كانت كاذبة لربما كان من الممكن ان يجدا تفاهما أكثر، لكن هذه

Telegram: electronic_library

هي طبيعة العلاقات، احيانا ينسجم الاثنان او يتنافران... لهذا مثلما يجذبني نصفي السيء لكرهها يعيدني نصفي الطيب لتبرير ما تفعله، لم تحسّ امي يوما براحة، لم تشعر بالحياة التي مرت من بين قدميها مثل الماء الجاري، لم تعش ذاك الحب الذي تتحدث عنه جميع الكتب والثقافات والقصائد والأغاني والافلام والمسرحيات والمسلسلات، لم تكن سوى مشاهد دائما يحلم بدور البطولة، ربما احتواها ذاك المجهول وقدم لها ما كانت تفقده في تلك السنوات، الاستقرار والحضن المتوازن الحرارة والاهتمام، فالحب وحده لا يكفي، هكذا كانت جدتي تقول لها، وانا في حيرة معها، بتُ اشعر انها ابنتي، هل اتركها تعيش هذه القصة التي انتظرتها منذ مراهقتها؟ ام اتسلط عليها بفرض عاداتنا التي ان خرجنا عنها سنصبح بدون اخلاق ومنبوذتين؟ نحن لسنا منبوذتين لكننا في الوقت ذاته وحيدتان، في هذا الوطن الكبير لم يسأل أحد يوما علينا، ولو لم تدخل امي في هذه العلاقة لما كانت ستستطيع ان تؤمن لنا سقفا يحمينا من الطرد، مع تفشي البطالة واستجدائي فرصة عمل نعيش منها، كيف كنا سنعيش! كيف يعيش الاخرون؟ هل يفكرون مثل امي؟ مثلي! ام يموتون جوعا، وبعيدا عن هذا كله، لقد عشتُ الحب الذي تريد امي ان تكتشفه، يشبه سلاطة الفواكه التي لا يُمل منها، غني وصحي وزاهي الالوان، ان كنتُ اتمنى نعمة دائمة لي مع إياس فكيف لا اتمنى لها نعمة هانئة مع رجلٍ يستطيع ان يقدم لها اخلاصا فيما تبقى لها من سنوات عيش...، هي التي رفضت سنوات ان تتطلق من اجل ان لا ينعتونها بمطلقة وتغيب فرصتي في زواجٍ جيد ينقلني لحياة أفضل من هذه الشقة المريضة، كيف تغيرت في ليلةٍ وضحاها، هل كانت امي تخاف من كلمة مطلقة ولا تخاف من ارملة؟ ألم تعد تفكر فيما لو انها

Telegram: electronic_library

تزوجت مرة ثانية لن يخطبني أحد؛ لأن امي خائنة تزوجت بعد وفاة زوجها! هل سأتزوج! كيف اتزوج! لا اريد الزواج من رجلٍ اخر غير إياس. ترددت بالحديث مع مؤيد حول ضرورة ان يجد لي عملا، حتى لو كانت امي تطمئنني بمزاجها السيء انها أمنت اقتصادنا في الايام المقبلة، لا ثقة مطلقة في الرجال وهي التي كانت تقول «لا تعتمدي على رجل»، لكنني اعود لرجل مرة اخرى حتى في محاولات تأمين فرصة عمل، لكني في هذا المزاج السيء لا رغبة لي بمحادثات نفخية، محادثات ينفخ هو نفسها فيها ويجعل الأفيال تطير وانا انفخ معه انجازاته، اكره ذلك، ومع هذه الحرارة لا اجد نفسي سوى طريحة الفراش الذي كان ينام عليه ابي، فاقدة الوعي... واعية، احاول ان اعيش حياة ابي المتخبطة بالحديث مع الغرباء عبر الفيس بوك محادثات سخيفة مطولة وبين متابعة الاخبار، نشرات الاخبار تتحدث عن استضافة وزير في مجلس النواب وتداعياتها بالإضافة الى التقارير الاخبارية التي نقلت هستيريا الناس من الحرارة وتسجيل وفيات بسببها، اخبار اخرى عن موت اطفال رضع وصغار في مخيمات النازحين التي ملأت العراق من شماله الى جنوبه، اولئك القريبون من الكون، بلا حواجز بلا جدران بلا طوابق بلا شبابيك، ينافسون السجناء بالانتظار والبدو في التأمل، لا يفصلهم عن الشمس سوى اقمشة فوق رؤوسهم، يموت الجميع في هذا الوطن من الحروب والنزوح والانفجارات والخدمات، الصراعات الطائفية النزاعات العشائرية، لطالما آمنت ان ثقافة الموت لا تهوى فراق هذه الارض المترفة بأسبابه، كأفراد لم نعد نستغرب زياراته المتكررة غير اننا لم نستطع يوما ان نبني علاقة مقبولة به الا انه اصبح جزءًا من قناعاتنا للخلاص من هذا العذاب المتواصل...

Telegram: electronic_library

غير أني لا أتعجل الفرح، وحيدة كرسالة حب أولى كأبرص كحامل الجدري كحامل وسام للصدق كممر جبلي

.....

اقدامي متخمة بروائح الكرادة، بروائح السعي وروائح الرقص... اضع اصابعي عليها واتحسس محاولات تلقف الامل...

انه يوم الموعد، جمعة من النار والشمس، الساعة السادسة موعدنا، حيث تتلاحم اجساد الوطن وتتزاوج الحناجر لتصرخ «بالروح بالدم نفديك يا عراق»

لبست حذاء الباليه، انه حذاء خاص جدا، في العادة قوي ويقبض على الاصابع بالرقص المشهود، لا يمكن السير فيه بالشوارع لأن قاعدته ملساء وقماشه البصلي قد يتسخ بسهولة، لكنني اصررت على الذهاب به، فلا اجمل من رقصة باليه قد احظى بها يوما وبدور البطولة وان كانت بأداء سيء لكنها المنفذ الوحيد المعبّر عن عمق مأساتنا وتراجيديتنا، انا التي حلمتُ لسنوات طويلة ان اصير راقصة باليه. هنا في العراق حيث تموت الاحلام ماتت احلامي بعد ان كانت مدرسة الباليه والرقص الوحيدة في المنصور بعيدة عنا مع اجراءاتها المعقدة لقبول الطلبة، انا لا مهارة لي بالرقص سوى مهارتي المجنونة بحبه، نحن الفقراء لا نقود لنا ولا اقتناع بنا، هذا غير ان امي وابي كانا مشغولين بمشاكلهما ومعاركهما وليس بهواياتي ورغبتي التي دفنتها السنين.

اغدقتُ عنقي بعطر أمي الـ تيمبس ولفلفتُ كتفي بالعلم العراقي، شعري الحزين ينسدل عليه في محاولة التخفيف عن اوجاعه، حلمتُ عيوني بالصور، بالعراق يوم انهالت الصواريخ تثقب صدره في أحد آحاد آذار عام ٢٠٠٣، بصور

Telegram: electronic_library

الخوف والبهجة بعد سقوط النظام، بصور او انفجار، بصور اول جثث مغدورة، بصور تفجير الامامين العسكريين واطوار بهجت الشهيدة، بصور الطائفية بصور التهجير، بصور بكائنا وحيدين في البيوت بصور الخراب وقمع تظاهراتنا بصور تحول البلد الى فوضى تغلغل بعدها الارهاب ليحتل مدننا، ثم الى حروب مفتوحة يموت الجميع فيها... الى جانب صور ضياعي بين اشتباك امي وابي وانكساراتنا النفسية والاقتصادية، الى جانب حبسي في حبٍ لا يزهو.

الناس تسير معي بجموع مخيفة كأنها تبغي الحج في ساحة التحرير، سلمت على كهرمانة ولعنت الاربعين حراميّا، ضعت مع الناس وانا اهتف «خبز، حرية، عدالة اجتماعية» أو «خبز، حرية، دولة مدنية» والعرق يتصبب من رقبتي والدمع يترقرق في عيني، تحت نصب جواد سليم حيث اختلطت الانفاس وضاقت، لم يعد مستوى الرؤية واضحا بسبب تكدس الاجساد... وهناك، هناك، رأيت جسدا اعرف جيدا تصميمه، تقسميه، عرضه وارتفاعه، اعرف شاماته وتشققاته ومواطن الاغراء فيه، جسد رياضي مكتنز بالعضلات يقف فوق سطح سقيفة شرطة المرور، يحمل كاميرا كما يحمل السلاح، يضغط على زناده ليؤرشف ما يحصل الى الابد، مثلما ترسل الطلقة الانسان الى الموت الابدي، يأخذ الصور من جميع الزوايا ويحاول التركيز على قصة في صورة، ثم أدار وجهه؟ هذه الملامح التي لطالما سكنت وجهي ايضا، يوجعني قلبي من شدة ركضه! نبضه يعلن حالة الطوارئ وانا استذكر كل شيء معه في ثوانٍ، لم يرني ودون وعيٍ غطّيت وجهي بكفي، من شدة خوفي لم أستطع رؤية ما يحصل، إياس يقف امامي... فتحت يدي ونظرت اليه مرة اخرى، تبؤرت كاميرته بوجهي

Telegram: electronic_library

بعد ان أطلقت رصاصة أرشفتها لي، اتسعت عيناه واختل توازنه، أرته الكاميرا عينيّ اللتين يعرفهما وشفتيّ اللتين كان يلتهمهما.

لم اشعر يوما أني أكره إياس مثلما شعرت لحظتها، كرهته على كل الانتظار الرجيم الذي اذاقني اياه، على جبنه وتردّده وخوفه، هذا الرجل الذي يتركني بين حين وحين رغم كل الوعود التي يقطعها، رغم كل الحب الذي يكنه لي، لكن، ولا مرة ارتفع هذا الحب ليتغلب على الخوف، كل اسباب فراقنا هي اسباب سخيفة، ليس لأننا لا نحب بعضنا او لأننا غير منسجمين، كلها اسباب تخص الاخرين، تتعلق بأهله وطبيعتهم وطائفتهم ورفضهم، في هذه اللحظة بالذات وعيت على نفسي، لا اريد ان ارى إياس الذي خذلني مرارا وسأبدأ حياتي من جديد

تدافعتُ مع جموع الناس، وانا احاول ان ابتعد عن ساحة التحرير واعود الى البيت واترك الوطن لإياس يدافع عنه، إياس المتردد الجبان يدافع عنه... وصلت الى النفق وانا اعرف جيدا ان إياس سيلحقني وما ان كنتُ أفكر بذلك حتى شعرتُ بيديه تجذب رسغي ... لكنني كنت قد تشبعت في هذه اللحظة بالبرود ... التفت مرحبة به كأنه غريب ومددت يدي لمصافحته، وانا اتحسس شقوق يديه الخشنتين

- فزارة...

- إياس! يا للصدفة؟ كيف حالك؟

- بخير... وانتِ؟

Telegram: electronic_library

- بخير... شكرا لك

- ما الذي تفعله هنا؟

- شغل للوكالة...

- اه، جيد ... هذا يعني أنك لا تزال تعمل في الوكالة ولم تتركها!

- ما زلت اعمل...

- غريب! انت لست من هواة البقاء، ولا تجيد الاستمرارية، أحد افراد الفرقة العسكرية الخاصة، ثم معلم كوماندوز يجيد استقدام الموت، ثم صحفي حربي، والى ما هناك من امور تجيد تركها!

- فزارة، اعلم الى ماذا تلمحين...

- انت مخطئ، انا لا ألمح لم يعد الامر مهما، انا استغرب فقط، يقال انني كنت اعرفك في السابق.

- وحتى الان

اجبته بجدية وانا اضع وجهي قبالة وجهه

- لا إياس

- فزارة، لا اعرف ما الذي حصل لي عندما رأيتك

- وما الذي حصل لك عندما لم ترني؟

- كنتُ اموت...

- انت بكامل حيويتك إياس، تقف منتصبا فوق سطح سقيفة شرطة المرور، ولولا كامرتك الشقية هذه لما رأيتني...

Telegram: electronic_library

- كنتُ اراكِ خلسة، وكنتُ سأراك

- كفى كذبًا... ألم تمل؟

تركته وانا امشي في شارع السعدون كي اعود الى المنزل، هو لم يتركني ظل يمشي الى جواري وانا اتأمل اقدامنا المتوترة، حذائي البصلي الذي تلطخ بالتراب والنفايات، حذاؤه الرياضي الاسود الذي لا يبالي بما في الشارع من محتويات... يرتدي قبعة رياضية تكشف عن نصف عينيه...

- فزارة... لقد اختطفت وعذبُت وخرجت، كنتُ بحالة نفسية سيئة جيدة، انا اسف على كل ما حصل.

- اه حقا؟ ولماذا اختطفت؟ هل لأنك صحفي تكتب عن أمن الدولة؟

- لا، ظنوا أني ارهابي...

- يا سلام ...

- اعتقد ان الموضوع طائفي

- يا سلام...

- ما بكِ تستهزئين؟

-لا استهزئ... ما المطلوب مني الان؟

- فزارة

- نعم

- فزارة

- نعم

Telegram: electronic_library

جذبني من رسغي مرة اخرى واوقفني وهو ينظر الى عيني، خلع قبعته، هدأ حاجباه، امتدت رموشه، ترقرقت عيناه، ولمع سلسال الفضة في رقبته... مددت يدي واخرجت السلسال من قميصه، تدلت السبيكة «تفرق كثيرا ان أحبك الى الابد او الى اخر يوم في حياتي» قبل يدي، سرت كهرباء في جسدي... خفتُ ان انهار من ضعفي الان، لكنه سرعان ما قطع اللحظة الشاخصة بيننا...

- فزارة انا اسف على كل ما حصل، بعد اختطافي، كنتُ أفكر كثيرا بكِ، يوجعني جدا ان اشعر بأني اكذب عليكِ، احاول الهروب من اسئلتك التي تتعلق بمصيرنا دوما، انتِ فراشة جميلة بريئة لا اريد ايذاءها، فليحدث لي ما يحدث، لأضرب ألف مرة وآكل ألف فلقة، واموت لكن انتِ لا ذنب لك، لا اريد أن انقل لكِ انعكاسات بيئتي وحياتي وموقف اهلي من علاقتنا، لهذا ابتعدت، عللكِ تجدين فرصة أفضل... الحب تضحية.

تصاعدت الدماء الى خديّ، كيف يجرؤ دائما على التفكير بأن يتركني لأجد فرصة أفضل؟ هذا يعني انه يتركني لرجل اخر، رجل مثل يوسف او غيره، كنتُ أريد ان اصفعه الان، بكل ما أوتيت من قوة، لكن الهدوء اعتراني تزامنا مع غضبٍ مفرطٍ اوقفني، كل اسبابه سخيفة مثل سخافة ما يجري في العالم، يتركني لأننا من طائفتين مختلفتين! يتركني لان اهله لن يرحبوا بهذه العلاقة! وما معنى ان يرحبوا او لا؟ انا لا اعرف كيف يبقى قرارُ رجلٍ بالغٍ مرتبطا بأهله وقبولهم! يتنازل عن حبٍ عظيم لأنه متردد...

- فزارة...

Telegram: electronic_library

- نعم

- لكني أحبك، لا حياة لي دونك... هكذا اشعر الان، اريد ان نبقى حبيبين الى الابد، ربما تتغير حياتنا لاحقا...

انفجرت بالضحك هنا من شدة تعاستي

- إياس، انا لم اطلب منك يوما اي شيء، وأومن كثيرا ان اي حبيبين ليس شرطا ان يتزوجا، هذا المفهوم الاجتماعي السائد انت واهلك والناس تفكرون به، اما انا فلا حاجة لي بموافقة اجتماعية حتى تسمح لي بالعيش معك، انا لم أكن اريد منك يوما ما شيئا، سوى طفلة تشبهك... وبعد كل هذه الأحاديث والاحداث التي مررنا بها، يكفي ما وصلنا اليه... انا اتمنى لك راحة ابدية وانت تمنيت لي ان أجد فرصة أفضل وهذا ما اطمح اليه الان يا إياس، فرصة أفضل...

اشتعلت عيناه بالنار، اقسم الان، ان هذه الصفعة كانت اشد قوة من الصفعة التي كنتُ اريد ان اطبعها على خده، سيؤنبه ضميره ويبكي عليّ كل حياته، سيذكر انه ترك حبا عظيما، وانا لا أحد مثلي قادرا على اطعامه نكهة الحياة ولا أحد مثلي قادرا على انارة روحه... صافحته وودعته مثل غريبة قريبة ومشيت.

Telegram: electronic_library

- ٢٣ -

حوّلت غرفتي الى صندوق رثاء، كنتُ ارثي حبي لإياس بكل حزن، ادفن هذا العشق المتفشي واحاول اغلاق الصندوق، فرشت منشفة إياس على الوسادة، تتبعت طيران المروحة ونمت... بعد مدة شعرت بحرارة جسده تسكب مثل الماء الدافئ فوق جسدي، كان معي، يزيل خصلات شعري عن وجهي ويقبل انفي...

- أحبك يا فزارة، لستُ جبانا ولن اترككِ ما حييت

- أحبك إياس... انا جبانة، خائفة من هجرانكِ

- تعالي نصلي الفجر ونغسل قلوبنا بالدعاء، الله يُحب وجودنا معا في حضرته، لأنه خلقنا لبعض.

- هل ستشبك يديك على صدرك في الصلاة؟

- سأشبكها...

- سأطلق العنان ليدي...

دوّى صوت قوي في الغرفة أرعبني، واخاف إياس الذي تلاشى فورا، جسدي يرتجف من الهلع، فتحت عيني، لم يكن إياس معي وانما الباب المخلوعة سقطت على أريكة جدتي! كيف سقطت؟ لم اقوَ على القيام من فراشي، أجلت اعادتها الى وضعها الطبيعي للصباح وبقيت سهرانة، سارحة في التفكير...

Telegram: electronic_library

فتحتُ هاتفي وبقيت اتنقل بين صفحات الفيس بوك، رأيت صور تارة واحمد الجديدة، يحتفلان بحملها، واخيرا، قالب كعكة للأطفال واشرطة ملونة وشموع ملأت غرفة الجلوس، وهما يجلسان على الكنبة التي مررنا عليها انا وإياس، لا مفر من الذكريات ولا مفر من حتمية العذاب الذي سيأتي، هي ذي بداية النهاية.

.....

بعد عدة ايام فتحنا انا وامي حوارا صريحا حول حياتها واكتشفت انها على صلة مبهمة بدكتور محمد الذي كانت تعمل في عيادته، ورغم انها كانت عدائية في الحديث معي لأنها تعتقد بأني اعارض رؤياها وأقف في وجهها وحقيقة الامر كنتُ كذلك في داخلي، لا أستطيع التغلب على شعوري بأنها خائنة، اساءت لكل سني تضحياتها المتعاقبة بهذا التمرد الذي تعيشه الان الا أني كنتُ اعذرها في الوقت ذاته واحترم رغبتها فيما تفعل...

- سننتقل بداية الشهر الى البيت الجديد...

- حسمتِ الامر؟

- لا داعي للبقاء هنا، محمد يريدني ان أبقى قريبة منه

- اها ... محمد؟

- انتِ تقولين عمو محمد...

- عفوا عمو محمد...

- ابدئي بجمع اغراضك، سنخرج من هذه الشقة المريضة الى بيتٍ صحي

Telegram: electronic_library

- لا اعلم كيف سأتحمل فكرة الانتقال الى منطقة اخرى وترك الكرادة

- ستتعلمين مع الوقت وتتعلقين بها وتصبح جزءا حميميا من ذكرياتك

- اريد ان اسألك سؤالا واحدا

- تفضلي...

- هل تعتقدين ان ما تقومين به صحيح؟ أعنى ما بينك وبين ما يسمى بـ عمو محمد؟

- فزارة! لا يحق لكِ ان تسأليني، اعرف مخاوفك من الناس، لكن هؤلاء الذين تخافين منهم لا أحد قدّم وسأل عنا وعن حالنا وكيف سنعيش وان طردنا الى العراء سيحتضننا، من الان فصاعدا سنعيش كأناس واقعيين بعيدا عن الاخلاقيات التي اغدقنا بها اهلنا لنكتشف ان كل ما في الواقع هو مختلف، يجب ان تبحثي عن مصلحتك! ويجب ان تفكري بالزواج والاستقرار وتبحثي عن عمل وتعيشي حياتك وتخرجي من هذه الغرفة الكئيبة المخلوعة الباب... فزارة، يجب ان تنتصري لحياتك...

تركتُ امي في غرفتها وانا اقرص شعري الى الاعلى وأفكر بكلمتها الاخيرة وصداها، «يجب ان تنتصري لحياتك»... «يجب ان تنتصري لحياتك»... رن هاتفي كان المتصل مؤيد، اه، هذا الثقيل يتصل بي، كان التلفون بيدي وانا انظر الى اسم المتصل دون ان اجيب، ثم اتصل مرة ثانية لكني هذه المرة اجبته...

- فزارة، كيف حالك؟ اين انتِ يا فتاة؟ لماذا لا تجيبين على الاتصالات او محادثات الفيس بوك رغم انكِ تقرئينها؟

Telegram: electronic_library

- اهلا مؤيد مشغولة مع امي والتزامات الحياة وحالتي النفسية لا تسمح لي بأن أرد...

- اريد ان اراكِ، لدي فرصة عمل لكِ في شركة طيران اخرى، ما رأيك؟

- فرصة عمل؟ جيد هل تضمن مديرها؟

- انه صديقي، وليس هذا هو المهم يا فزارة، فكري جيدا يا فتاة، هناك فرصة للسفر الى الخارج. - كيف يعني؟

- اسمعي، منذ سنوات هناك فرص للسفر الى أوربا عبر تركيا بطرق غير شرعية، اليوم هناك تسهيلات كبيرة من المافيات التركية لتسفير العراقيين والسوريين بقوارب صغيرة عبر البحر.

- هههههه حتما أنك لا تقصد ان اهاجر بهذه الطريقة.

- نعم بهذه الطريقة... هناك الكثير ممن اعرفهم قد سافروا بهذا الطريق ووصلوا الى اليونان ثم الى المانيا او النمسا وطلبوا اللجوء...

- لا اريد ان اترك امي، فرصة العمل تكفيني، الم تقل لي سابقا إذا سافرتِ من سيبقى في البلد؟

- فزارة، انا لا اريدكِ ان تسافري، انا...

أظنه تردد في قول انه يحبني، لكني شعرتُ بذلك وحمدا لله انه لم يقل

- نعم مؤيد

- لابُد ان تفكري بنفسكِ من الممكن ان تأخذي امكِ وتهاجري، تبقين كم سنة هناك لتأخذي الجنسية وتعودين.

Telegram: electronic_library

- ولماذا اعرض نفسي لمثل هكذا مخاطرة ولماذا اهاجر؟

- ولماذا تبقين ان لم يكن هناك لكِ اي رابط في هذا الوطن؟

- أحب بلدي

- بربكِ كفي عن الشعارات، الم تقولي لي انك تريدين السفر وبعتِ سيارتكِ؟ اي وطن هذا الذي تتحدثين عنه، هذا الوطن الذي لا يحميك ولا أمان فيه، هذا الوطن الذي لا فرصة عمل فيه! هذا الوطن الذي يأخذ الموظف فيه راتب ٥٠٠ ألف دينار شهريا وايجار بيته الصغير ٧٥٠ ألف، هذا الوطن الذي لا توجد فيه خدمات! نظام صحي سيئ وتعليم متراجع ومفاهيم انسانية مغلوطة! طائفية وانفلات وحروب!

- المهم مؤيد، ابعث لي آلية التقديم برسالة حتى اقدم على العمل في شركة صديقك الذي آمل ان لا يتحرش بي...

- عيب، ولا تقوليها انتِ امانة برقبتي، انا مؤيد يحسبون لي ألف حساب، هل تعلمين كم سلفته حتى يفتتح هذه الشركة؟ لا داعي ان اقول لكِ انها من خيري...

- مؤيد، مؤيد ... امي تناديني، عليّ ان اقفل الخط الان، سنتحدث لاحقا...

بدأ مؤيد شريط انجازاته العظيمة لذا كان عليّ ان اهرب منه، لا أنكر ان كلامه أثر بي وبدأت أفكر بما قاله مع ما قالته امي، «يجب ان تنتصري لحياتك» اظن ان أعظم ما عليّ ان اقوم به هو ان انتقم لنفسي من إياس حتى أنسى هذا الحب واتجاوزه حتى اخرج من هذه القوقعة التي اعيش فيها.

Telegram: electronic_library

أعطاني الفيس بوك اشعارا ان هناك اصبوحة شعرية في شارع المتنبي، لم اعتد الذهاب اليه كثيرا، صور رواده كثيرة يوم الجمعة مع «استكانات» الشاي الشعبية الجميلة ومقاعد المقاهي الممتلئة بالبشر، الاف الكتب المستلقية امام انظار القراء كأنها في وضع استجمام على بحر المشتريات، ملتقى من الفنانين الذين يقرصون شعرهم الى الوراء، موسيقيون مع آلاتهم الموسيقية، صحفيون مع كاميراتهم لكنهم لا يشبهون إياس في خوفه، مجانين وغريبو الاطوار وطبيعيون ومثقفون وأناس عاديون، كنتُ اريد ان اكون بينهم ليس بنية سماع الشعر الذي لا افهمه ولا استسيغ غياب وزنه وانما للتعرف على هذا العالم الذي يبدو جميلا من الخارج، لم تعد لي ثقة مطلقة بما اراه حتى اختباره... كتبتُ في ملتقى الدعوة التي وصلتني بأني سأحضر... أعطاني القلة ممن اعرفهم اعجابا لقدومي وكنتُ متلهفة لذلك...

لم انم جيدا ليلة الخميس على الجمعة، هذه هي المرة الاولى من بعد فترة طويلة التي اعود بها لمزاولة الحياة، تمنيت لو ان سيارتي التي يحبسها يوسف الان بحوزتي، كم كنتُ سأستمتع بسماع صوت فيروز وهو ينسكب بصفاء على شوارع بغداد، شوارع ندية رغم مسحات الحزن التي ملأتها، رغم الانفجارات التي جعدتها، في الغالب ان أكثر ما يزعجني ويجعلني في حالة خجل دائم هو غياب صديق يتسكع معي دون ملل، اختبئ برفقته من عيون الناس واستغرابها، كان علي ان اقطع مسافة لا بأس بها بعد إذ نزلت من سيارة التاكسي، لهثت من سرعة المشي حتى اتخلص من عيون المتربصين المتحرشين من ابناء بلدتي الذين يركزون باستدارتي الانثوية اقتربت من تمثال الرصافي، القيت التحية ودخلت حيث طلب مني الشرطي ان

Telegram: electronic_library

اتوجه لكشك التفتيش النسوي الصغير، امرأة بدينة تجلس على الارض، تمُد احدى قدميها وتعكف الاخرى، وبيديها سندويش صغير من الجبن، طلبت مني ان انحني لها حتى تفتشني، حشرت يدها بصدري بذريعة التفتيش فأبعدتُ يديها فورا واردفت ممانعةً:

- عفوا؟

- من اين انتِ يا حلوة؟

- هل هذا السؤال من ضمن بديهيات التفتيش؟

- لا، اردت ان اعرف القمر من اين فقط.

- غير مهم، الن تفتشي حقيبتي؟

- لا، اذهبي

امرأة غريبة، على اي حال نسيتها وضعت بين الزحام...

لحن خطى جميل يتعقبني، انفاسٌ بدأت بالتعرف عليها تنشر هواءها في المحيط الذي اتمشى به، اشعر ان جبلا يحيطني، لم أكن مستاءة هذه المرة وانما هدوء انبثق في قلبي

- فزارة

- أستاذ يوسف صباح الخير

- يوسف فقط

- صباح الخير

- هل نستطيع ان نتحدث لخمس دقائق

- طيب

Telegram: electronic_library

جلسنا في احدى المقاهي، كنتُ انظر الى بركة الصفاء في عينيه، والى أصابعه النحيلة الجميلة، ملامحه المنسجمة مع بعضها تقص عقلانيتها ومسؤوليتها وشغفها معا، تتحدث بالنيابة عن هذا الرجل وتقول انه رجلٌ وقور وموزون جدا وليس متعقبا كما يبدو، لكنّ إحساسا مجنونا في قلبه يتعقبني كالمجنون

- فزارة، انا لا اريد منكِ الكثير، لماذا تهربين مني وتصدينني دائما

- لن اهرب بعد الان

تفاجئ بردي البارد الهادئ

- كيف

- كما قلتُ لك، لن اهرب بعد الان ..

- سأفعل أي شيء تريدينه

- حقا

- بالتأكيد

- أي شيء أي شيء

- جربي

- نتزوج!

صُعق من هول الصدمة، ردي الفاتر وطلبي لا يشبه بالمرة عدد صداماتنا الحدية، احمرت عيناه الزرقاوان بوسامة متدفقة، صعدت الدماء الى وجهه، أغمض عينيه حبا ورغبة وانتعاشا

- موافق.

Telegram: electronic_library

- ٢٤ -

اصابع قدميها الحمراء تتوهج امامي الان، في فترة غياب ابي كانت امي تطلي اظافرها بالزهري لكن بعد تأكيد موته اصبحت تطليها بالأحمر، امي المشبعة بالضرب سابقا تلصق لون الدم بأظافرها وتتباهى به دون خجل مع توليفة قميصها الاسود القصير وساقيها المكشوفتين النحيلتين...

- وكيف اقتنعتِ اخيرا؟

- لأنه يحبني

- هل تحبينه؟

- ليس مهما

- فعلا ليس مهما، مادام قادرا على تأمين مستقبلك

- هل هذا كل ما يهمك الان

- جُل ما يهمني، كل ما ستقولينه الان واعرفه هراء... بعد ٥ سنوات او اقل من الزواج لن تأبهي للحب بقدر ما تأبهين للنقود ومستقبل الأطفال.

- امي!

- هذه الحقيقة...

- على اي حال هو قادم الان

- اهلا وسهلا به

- هل أستطيع ان اطلب منكِ طلبا

Telegram: electronic_library

- قولي

- اتمنى ان اذهب سفرة لمرة واحدة في حياتي، أرى المطار وهبوط الطائرات واقلاعها واسمع صوت المحرك دافعا بي الى وجهة أخرى

- سفرة! لمَ لا...ستذهبين مع يوسف

- لا ... اريد الذهاب وحدي قبل الزواج، هذا هو طلبي الوحيد

- السفر يحتاج مبالغ معتبرة وانتِ تعرفين وضعنا

- احتاج لسفرة... انا اعلم انها قد تكون مكلفة، لكنكِ ادخرت مبلغا جيدا كما تزعمين

- سأسوي الامر

- ارجو ان تسويه بما يتلاءم مع انتهاء عدة أبي، يجب ان اذهب

- ولماذا يجب

- اعتقد بأني سأعود بصحة نفسية جيدة

- لا تفكري الان، دعينا نرى خطيبك المزمع قدومه

أكره طريقة تفكير امي التي اصبحت المادية، أكرهها بكل ما اوتيت من قوة، اصبحت لا تأبه لشيء سوى المال والنفوذ والاستقرار ولو على حساب مشاعري، كيف سأخبرها انني اشمئز من تقرب يوسف مني وان كنتُ أحب لهجته البصراوية؟ كيف سأخبرها أني ما زلت مسجونة في حديقة إياس وزهوره النائمة على صدري، لن تفهم مشاعري ابدا هي التي ذاقت الحب اطنانا من الصفعات الموردة والسحل المؤلم، أكره هذا الاستغلال الذي تبنيناه انا وهي الان من شدة تعاستنا...

Telegram: electronic_library

ها هو طرق الباب مرة اخرى، يشبه طرق الطبول في القبائل الافريقية التي تعلن عن موعد ذبح أسراها لأكلهم، وصلني مسج يوسف «انا على الباب» كأن امي ويوسف يأخذانني الى ساحة الذبح، سيقطعون قلبي اوصالا ويطعمون إياس منه حتى يحيوا هم وألوذ انا بما تبقى من روحي حرة ...

فتحت امي الباب ورحبت بيوسف واندمجا في عقد صفقة بيعي، تعطرت بعطرها، وجلست على أريكة جدتي، انظر الى النافذة واذوب بانعكاسات الشمس الحارقة، أؤمل روحي بأن صوت مريم العذراء الذي حملني مرة الى ساحة القتال في صحراء الرمادي حيث كان إياس وحيدا سيحملني مرة اخرى لتخليصي، ليته يأخذني الى ساحة التحرير فوق سقيفة شرطة المرور ويلحمني بظهر إياس، أقف وراءه، اضيّع وجهي في رقبته من الخلف ويداي تطوقان صدره، هكذا يؤمن المتظاهرون ان التظاهر حب، والحب يملي علينا الدفاع عن حقوقنا...

لا إياس ولا صوت إياس يلفّني الان... هذه هي اطول لحظات الوحدة واوضحها.

بعد قليل سأكون مع خطيبي الذي لا أحب، حيث تحققت الرواية التي كنتُ دائما اخاف منها، واهرب منها، ان اتزوج شخصا لا أحبه، فيدوس على اجزاء جسدي بدل ان ينعشها، ان يجفف اشلائي بدل ان يطريها... نادتني امي لأسلم على خطيبي الجديد بعد مدة، اتفقا على التكتم على الموضوع حتى تنهي امي عدة ابي، يأتي يوسف بأهله من البصرة لخطبتي رسميا، يوسف المستعجل على استملاكي خوفا من ترددي أطلب الزواج فورا دون انتظار، انا لم أكن لأمانعه في هذه المرحلة... لأنني كنت في هذه الفترة اعيش بداية الانتصار لحياتي...

Telegram: electronic_library

اشترى لي المهندس الوسيم يوسف الجبل عقدا ذهبيا غاليا لإرضائي او ربما ارضاء امي، انا التي تعلمتُ دائما على مصادقة عواطفي دون التلاعب بها لم أكن اجيد فن المجاملة بعد، ابتسمت ابتسامةً ناشفة بينما كان يريني اياه ويحاول إلباسي، ابعدته فورا ووضعته في علبته وانا اردف انه عقد جميل «شكرا لك»، شعرتُ بأن حرارتي الفاترة في استقباله وتأييد اتفاقه مع أمي قد وصلاه، فعيناي حكاية مفضوحة مهما حاولت أجادة دوري الجديد... انصرف يوسف كاتما انزعاجه...

دخلتُ انا صومعتي، الى الذكريات، الى الحب الذي كان، الى الامان الذي فقدته مثلما فقده سيدي العراق، مدني الان محتلة، شرائعي منتهكة، وقلبي الذي لي ينتقل مثل ملكية بيع الى انسانٍ اخر، تلمّست جفني وشفاهي في المرآة، شعري الطويل الذي كنت الف رقبة إياس به، وضعتُ يدي على خصري ودرتُ حول نفسي كما لو أنني كنتُ ارقص في حضرته...

تنازلت عني مثل عجوز مريض يبيع ملكه من اجل العلاج، حكمت على كم القبل التي بيننا بالإعدام، اضرمت النار بصدق معاهدات الحب التي وقعناها، كل جسورنا الان تئنّ من حرب، محراثٌ قطع وسائل الامداد، بيني وبينك نهر من الغرق والفرق والفراق...

انا لا ابكي الان، انا أنزف دمعا من دمٍ في قلبي، اذكر كيف تشاجرنا مرة والشتاء يطبق مفاصله علينا، كنتُ اهاجمك من تحت بطانيتي وتقصف انت جبهتي من تحت المطر، سألتك اين انت الان...

Telegram: electronic_library

- امشي في المطر في الكرادة...

- لماذا؟

- ألم تقابلي مجنونا قبل؟

- ألم تقابل مجنونة؟

لم أستطع الاحتفاظ بغضبي مطولا، لبست معطفي الاسود ولفلفت رأسي بـ «شماغٍ» أسود، هرعت الى سيارتي وانا اقتحم الشوارع بحثا عنك، اتوسل عنادك ان تخبرني اين انت! ما كنتُ في تلك اللحظة مترددة قط في إيذائك تكفيرا عن انفعالي، وكنتُ اتوعدك وأواعدك بيني وبين نفسي... رأيتُ قدميك المتوترتين، تبطش بإسفلت الشوارع مسرعة، صرخت فرامل سيارتي صوبك نظرت الي بعينيكِ الماكرتين... وضعت رأسك قبالة النافذة قبل ان انزلها... تعودت على فهمك دون ان تنطق وكنت تقول لي بعينيك «انتِ مجنونة»، جلست الى جانبي، ضربت ساقك اليسرى بهستيريا وانا اطلب منك ان تكف عن مضايقتي لأني لن ارحمك، وانت تضحك بخبث بينما الظلام والمطر يحيطاننا من كل مكان كأنهما يخفياننا عن عيون الناس لندفّئ برودة جسدينا ونبرد حرارة اعصابنا... احتضنتني بقوة، بادلتك ذلك بطوق ذراعي وانا اقول لك مثل الاطفال «انا أحبك... أحبك»، تستمر بالضحك وتخبرني «اضربي ساقي مرة اخرى»...

هل تريد ان اضرب ساقك مرة اخرى يا إياس؟ لأنني الان اريد حضنك الابوي حقا وأكثر من اي لحظة...

.....

Telegram: electronic_library

مرت ايام وانا انام على الوحدة وابيت على جوع إياس... عزمت امري في تنفيذ العقاب الجماعي دون اي تردد، اصدق تمثيل للعدالة يكمن في الإعدام الجماعي في لحظة...لابد ان يتحمّل الجميع ذنبَ ما وصلنا اليه

- الى تركيا

- نعم تركيا، اريد ان اعرف كم هي تكاليف الرحلة جوا

- سياحة؟

- في الحقيقة، ربما أكثر من سياحة

- هل ستعيشين هناك؟

- لقد فكرت في كلامك مؤخرا، أظنني بحاجة لتغييرٍ جذري في حياتي، لمغامرة، اريد ان اهاجر

-تهاجرين؟ هل انتِ متأكدة، دعيني آتي معكِ

- مؤيد ارجوك، انا اتكلم بصورة جدية، وانت لديك الكثير من الالتزامات في بغداد لابد من انجازها، اعتقد أنك يجب ان تفكر بالبدء بالتصفية قبل التفكير بالهجرة، وحتى تصفي اعمالك الكثيرة هنا ستحتاج الى وقت، في هذا الوقت سأكون انا قد هاجرت وسأطلعك على خطواتي...

- طيب، دعيني أرتب لكِ الموضوع مع أناس اعرفهم جيدا واثق بهم حتى ابعثكِ معهم، سيتكفلون بك من كل النواحي لحين ايصالك الى الموانئ اليونانية، وهناك اعرف اناسا اخرين يتكفلون بإيصالك الى الدولة التي تريدين.

- المانيا...

Telegram: electronic_library

- لماذا المانيا في التحديد... أظنها امتلأت بالعراقيين
- لدي معارفٌ هناك... اريد ان اعرف تكاليف الرحلة، ارجو ان تستفسر لي عن ذلك
- لا تقلقي.
- شكرا
- أوه لحظة أبشرك تم اغتيال مديرنا بعبوة لاصقة
- أذن مبارك عليك الادارة

اقفلتُ الخط وانا مملوءة بالكراهية والشوق، لأول مرة اشعر مثلما شعر الكثير من العراقيين بالكثير من الخذلان والوحدة كأنني لم يبق لي مكان هنا، لم اعد اشعر بأي انتماء، لم اعد اشعر بأي تواصل طبيعي بين عظام جسدي، بل انا أئنُّ من الانكسارات... كل الشوارع تذكرني بإياس لهذا لم تعد لي، لقد اقتحمنا الكثير من الكيلومترات معا ونحن ننثر عليها حبنا، كل وجوه الناس هنا هي وجه إياس، وكل الملابس التي علي تشكو من رائحته... ملامحه، صوره ، بقاياه، اماله المقتولة بأن نبيت في كوخٍ صغيرٍ معا، ونشرب حليب الكاكاو من الفوهة ذاتها.

كبيرٌ هو والوطن وضيق علينا، مملوء بالأوكسجين وثاني أوكسيده يخنقنا، وفير المال وبخيلٌ معنا، كريم بالحب ومجحفٌ بعطاياه البشرية لنا، مخترق هو وحضنه الأمين لم يعد لنا... وجدنا أنفسنا خارج اسوار مملكته دون ارادتنا وخارج وعينا... انطلقت قوافل العراقيين في رحلة الصيفِ تبحث عن بلدٍ أمين تغفو

Telegram: electronic_library

فيه افئدتهم بالاطمئنان... تزاحمت الحشود الجوية والبرية الى تركيا ولم تعد منافذ الحدود تسيطر على طمغات الخروج من العراق، جوازات، جوازات تهرول بأبناء الوطن بعيدا عن الوطن... آه أيها البالون الكبير الذي اسمه الوطن سأخزك بإبرة سامة.

لم يكن سماع قصص الموت رادعا مخيفا بما يكفي ليكف الناس عن ركوب البحر، ولا قصص النصب والاحتيال التي مارستها العصابات الدولية رادعا يعيد الهاربين الى بغداد، كانوا يهاجرون بحثا عن منفى وانا اهاجر بحثا عن مكان كي أنسى...

اتصل بي يوسف للمرة الاولى بعد ايام من مباركة امي هذه الخطوبة، يتقاسم صوته بالاشتياق والانكسار والعتب المبطن، لهجته البصراوية فيها الكثير من الحنين والحيرة، كان رجلا بمعنى الكلمة لا بضعفه امامي مطلقا، بل بصدقه معي، اشعر بذلك بحياد ورغم ذلك لم أستطع اقناع قلبي يوما بالتودد اليه، بل لم أستطع ان افتح مع قلبي اي اتفاقية صداقة على الاقل، كنتُ اشعر به هذا الغريب الذي لا كلام بيننا سوى النظرات على اختلافها...

لطالما كان معي يوسف في وقتٍ كنتُ في أمَس الحاجة لإنسان لكني رغم ذلك لم أستطع ان اراه واقفا امامي، عيناي لا تبصرانه، عيناي مبرمجتان في الرؤية مثل البوصلة صوب شمال إياس... احيانا كثيرة كنتُ أعذب نفسي بدروس تقوية عنيفة، فماذا لو اقترنت بحياةٍ مع إياس الذي أحبه، وبدا لي انه يشبه ابي؟! وانا اشبه امي؟! هل كنتُ لأحضر خدي له مثل شرائح التفاح الاحمر؟ هل كنتُ سألعق ارضية بيتنا

Telegram: electronic_library

المزمع اثناء السحل مثلما كان يفعل ابي؟ هل كانت ابنتي لتعاني مثلما عانيت؟ تهرول الى الخزائن وتهرع الى الاغطية ملتصقة بالفراش؟ ويدلني اليها اضطراب انفاسها من الخوف! هل كانت لتبقى صامتة معظم الوقت مثلي؟ هل ستجيد التعبير ام الكتمان المدقع؟ اظنها ستكوم الاحلام مثلما افعل انا وتنام على الخيالات الوردية؟ ستحلم بسفرة هادئة بيني وبين إياس او مصالحة وطنية تنتهي بسفرة الى أحد المتنزهات حيث الأراجيح والبالونات والاطفال؟ هل كان ليفعل بي إياس كل ما فعله ابي بأمي؟ امي التي أحبته بكل خلاياها ومساماتها واوردتها؟ بكل اخلاصها ووفائها وطاقتها!

- كيف حالكِ اليوم؟

- بخير شكرا لك

- الن تسأليني كيف حالي؟

- بلى...

- جيد جدا وغير جيد

- لماذا؟

- خائف وغير مصدق، عيناك قالتا لي ذات مرة انكِ مترددة لكني من شدة فرحي بالاقتراب منكِ لا اصدق ما حدث ولا اعرف كيف وافقتِ

- لن أجد شخصا يحبني مثلك

- وهل تحبين من يحبك

رحت في الحيرة

Telegram: electronic_library

- فزارة...

- اخجل من هذا الحديث

- لا عليكِ، هل أستطيع رؤيتك؟

- رؤيتي؟!

- ارجو ذلك، لابُد ان نتحدث...

- سأتصل بك لاحقا للحديث عن هذا الموضوع ...

- طيب

.....

رشّات من عطر امي، وحمرة حزينة ورداء اسود هي حُلة اللقاء بيوسف، حذاء بنصف كعب يتمنى الارتفاع... ركبتُ في السيارة، سيارتي... نظرت الى يوسف، قميصه الابيض ونظاراته الريبان وعطره الذي ملأ السيارة يداعب جمالي بعينيه، اشحتُ بنظري بعيدا عنه فما زال عطر إياس قابع بالمقاعد وغرفة السيارة، لا أستطيع ان التفت الى اليسار واصدق ان من يجلس الى جانبي الان رجلٌ اخر، كل هذا ما لا أستطيع تصديقه واحاول تصديقه ولا احاول...

كرهتُ يوسف في هذه اللحظة وتمنيت لو اننا نُدهس معا الان، او نُعصف في انفجار وننتشر على اجزاء الكرادة بأشلائنا لكن هذا الحظ السيء البسيط في العراق لا يتحقق الان لأني اريده... اريدُ موتا ابديا يزيحني عن بشاعة آنية ما يحدث...

جلسنا في أحد مطاعم ٦٢، شبابيك المطعم الكبيرة والشفافة تطل على الشارع، كان الفراغ اللفظي رفيقنا، لا حديث سوى للملاعق والشوكات التي تلاطمت

Telegram: electronic_library

تعزف لنا بينما مذاق الاكل يفسد ببطني، كنتُ اسمع مقتطفات من حديث يوسف وانبهاره بما حدث وانا انظر الى النافذة التي كانت تنبئني بارتعاش موجة قلبية قريبة، اشعر ان روح إياس تطوف الان في المنطقة بحثا عني...

- كنتُ اقول لكِ بأنكِ لي، ما صدقتني، انا مخطط جيد لكني لا اسمح بالتجاوز على مشاعركِ لا يهمني ان ادفع عمري كله من اجل ان اشعر بحبك، اظنكِ منجم من مشاعرٍ مكتومة، أقدر كثيرا أني رأيتك للمرة الاولى في حالة انفجار وكانت حالتك النفسية منهارة جدا وبعدها توفي أبوك، وهذا، لا شك، ترك تأثيرا كبيرا عليك، لكني ..... أحبك يا فزارة...

كنت امسك قدح الماء البارد وانظر الى الشارع والسيارات ويوسف يواصل حديثه وانا ارمقه بين فترة واخرى بنظرة فاترة تصلح ان يصفعني عليها ألف مرة ويبتعد عني، لأن امرأة قاسية مثلي لا تصلح للحب بل للهجران والنسيان فقط.

كنتُ اعلم ذلك، اشعر بإياس لأن الروح الثالثة بيننا قوية جدا، احساسي بها عالٍ... سكبتُ قدح الماء بينما إياس يمر من امامي مع مصطفى خطيب مريم وهما مندمجان بموضوعٍ عميق... هو ذا، بكتفيه العريضين، ولحيته الكثيفة، بسمرته اللامعة بلون الجنوب، بالعصب البارز على ايمن جبينه، ارتعش قلبي واوجعني، اهتز جسدي، فقدت التوازن غبت بين الوعي واللاوعي... هو بكامل محتوياته يتمشى امامي، الان في هذه اللحظة التي اجلس فيها مع يوسف...

لماذا ارسلته يا لله الى هذه البقعة بالتحديد... لتهديني ألما؟ لتهديني خوفا لأني رغم قطع علاقتي بإياس الا انني ما زلتُ اخافه جدا؟ الحقيقة اخاف ان يعرف أني

Telegram: electronic_library

اخونه حتى وان كان يوسف خطيبي، فأنا له ملك أبدى لا يشاركه فيه أحد مهما فرشت القطيعة حضورها بيننا...

وهن وشلل اصابا اطرافي، لا اقوى على الحراك، ويوسف ينظر الي بحيرة، ما الذي جرى لي، وينظر الى النافذة التي مر من خلالها إياس مسرعا دون ان يلمحه... مد يديه الى يدي للاطمئنان عليّ لكني سحبتها فورا بحدة.

- فزارة عزيزتي ... ما بكِ؟

- لا شيء مجرد دوخة بسيطة تأتيني من حينٍ الى اخر... ارجوك هل تستطيع ان تقلني؟

- هل تريدين ان تذهبي الان؟

- نعم...

نظر الى ممانعا معاتبا لا يقوى على مصارحتي، منكسرا من رغبتي في العودة الان... لكنه اعادني دون ان يتكلم معي اية كلمة.

Telegram: electronic_library

- ٢٥ -

يحاول ايلول ان يكون مصلحا بين الصيف والشتاء، ان يكون منصفا في درجات الحرارة وقاضيا اسمه الاعتدال، وعلى الرغم من عناد الشمس وتسللها في الصباح والظهر الا ان القمر يطلعُ هادئا في الليل وهو يضيء بغداد بكل ما أوتي من انارة...

مضت اربعة اشهر على وفاة أبي واربعة اشهر متوازية على نية إياس بإنهاء هذه المغامرة العنيفة... انتقلنا الى الصليخ... مازالت امي مترددة بإعطاء الشكل النهائي لعلاقتها بالدكتور محمد، يبدو ان الرجل يحبها ويريد الارتباط معللًا ذلك ان علاقته بزوجته علاقة فاترة باردة وان ما يجمعهما هو الاطفال فهو لا يتخلى عن ام اطفاله ولكن لا يمنعه ذلك من ان يبحث عن فسحة حب مع امي المعنفة سابقا، اعرف ان امي خائفة من تكرار التجربة الاولى مع شخص ذي شهادة علمية رفيعة المستوى لكن من سيضمن لها ان شهادته علمته كيف يعامل النساء! لكنها في الوقت نفسه لا تمانع ان تعيش فرصة ثانية مما تبقى لها من العمر، لم تعد امي تبالي كثيرا للناس وما يقولونه بل اصبحت امرأة قوية متمردة... اعلم انها ستحسم الامر خلال ايام بالزواج منه والا لما قبلت ان نتحول الى الصليخ...

يوسف يتردد علينا بين فترة وفترة بعيدة في محاولات يائسة للاطمئنان عليّ مستغربا كيف سنتزوج وانا لا أزال اتعامل معه على اساس انه ذاك الغريب الذي احتضنته مرة بعد الانفجار من شدة الخوف ثم دفعته بعيدا بعد ان أيقنت انه قادر على احتوائي... ربما كنتُ انانية، فقد علق بي وانا اهرب روحي منه...

Telegram: electronic_library

أخبرني مرة ان أقوى مخاوفه هي اهله الذين سيأتون لخطبتي رسميا وتزويجنا بعد انتهاء عدة امي ثم يعودون الى البصرة، كانت مخاوفه هي مخاوفي... كيف سأواجه اهله بكذبي واعرضهم لصدمة خطتي! لا يستحقون ذلك... ولا حتى يوسف المؤمن بي يستحق ذلك، هو يحبني وانا اؤذيه بتصرفاتي، كم تمنيت في لحظاتٍ كثيرة لو أنني قادرة ان ابادله هذا الشعور لكني لم أستطع... لم أستطع ولا مرة ان أبادله نظرة واحدة فيها حبٌ خفيف وقلبٌ شفيف، كنتُ غامضة دائما وصامتة معظم الوقت وكان هو صابرا لدرجة انه يجعلني اشعر بأني مجرمة... فجرعة حب في جسدٍ غير مناسب قاتلة... كل هؤلاء لم يمنعوني من الانتصار لحياتي...

.....

كنتُ اشاهد مقاطع الفيديو التي يتناقلها الناس على الفيس بوك، عن الهرب من تركيا الى اليونان عبر قوارب صغيرة يركب بها الموت الى جانب اللاجئين وهم يصرخون بشدة عندما يبدأ القارب بالغرق، اصوات الاطفال في رأسي، وصورهم لحظة وصولهم الجزر اليونانية مع خفر السواحل ممدين في عيني... اننا نهرب من الموت على اليابسة الى الموت في البحر... وصلنا اقصى درجات الهستيريا واليأس لنضع اجسادنا المنهكة من الحروب والازمات والمطاردات اليومية لفضاء البحر... حيث الماء هو المنظر الوحيد وهو الخلاص الوحيد وهو العدو والصديق الوحيد...

كنتُ خائفة من اندفاعي لدرجة الا اخاف مما انا مقدمة عليه، كلما كنتُ انظر الى ما يربطني بالوطن لا ارى شيئا سوى عراقيتي المكتنزة، لهجتي، طريقة تفكيري، حزني المشترك مع الاخرين، سعادتي المقترنة بانتصارات عراقية، ملامحي المعجونة

Telegram: electronic_library

بجو العراق وشمسه وبيئته، الأغاني التي يرددها الجميع والاطباق التي يطبخها الجميع... يربطني بالعراق كل ما افعله ببيتي ويفعله عراقي اخر ببيته لأنها طريقة حياة اتفقنا عليها جميعا دون ان نعرف ولو بتوقيتات واحداث مختلفة... سأجمع هذا الوطن في حقيبة واهربّه معي الى وطن اخر ينسيني ما فوضته من امري...

كان دجتل ارت قد نشر احدى لوحاته السريالية التي لا افهم منها شيئا وينتظرني مثل اغلب الرسامين ان أساله عنها ليجيبني، دجتل ارت كان متعاونا في افهامي الرسائل التي خلف لوحاته فيما يصمت فنانون اخرون عن شرح لوحاتهم لانهم يعتبرون ان ما يقدمونه فنا ساميا غير مخصص للعقول البسيطة مثلنا ، كانت لوحة دجتل ارت غير واضحة لكنها احيانا توحي ان هناك نصف وجه لامرأة بملامح ثابتة لولا انها معبأة بضربات الألوان... لم يقر بذلك، انه وجه امرأة حقا، لكنه قال ان هذه الألوان هي تقلبات الحال والمزاج والوقت ورغم ذلك هذا الوجه يرفض التغيير او ان ينصاع للمتغيرات التي يخضع لها،، فلكم سيقاوم؟

- اعتقد اننا سنلتقي قريبا؟

- نلتقي؟

- نعم، انا قادمة الى المانيا؟

- حقا؟ كيف ... لا اصدق؟

- سأهاجر مثل كل المهاجرين، اعتقد ان هذه الفرصة لن تتكرر واريد ان استغلها...

- فزارة... البحر مخيف، والطريق طويل مع من ستأتين؟

Telegram: electronic_library

- وحدي؟

- مستحيل؟ انتِ مجنونة!

- لا لستُ كذلك، لقد كنتُ معارضة جدا لفكرة الهجرة، لكني مجنونة ان كنتُ سأبقى هنا أكثر، لم يعد لي شيء هنا، امي ستتزوج وابي توفي وو....

كنتُ اريد ان اقول له ان إياس قد رحل...

- خطرٌ عليكِ... ارجو ان تعيدي التفكير في ذلك... لكني سأفرح جدا ان أتيتِ ... لطالما تمنيت اللقاء بك...

- سأفرح انا ايضا ان التقي بك، علك ترسم ملامحي بعد الهجرة، وملامحي لحظة الاشتياق

- سأرسمك، وارسم العبق الساحر الذي تخلفه روحك ويأتيني عبر الاقمار الصناعية...

- اعترف لك بأنها مغامرة، لكني انتظرها

- لا تقلقي فزارة... ارجو ان تتأكدي من وضعك قبل المجيء، أخبريني يوم تخرجين من العراق وسأنتظرك في اليونان، لن ادعكِ وحدك، سآتي لآخذك الى المانيا

- حقا؟ تستطيع؟

- اجل بالتأكيد، انا نصف اوربي الان بعد ان قضيتُ نصف عمري بالتحديد هنا، وسآخذك لأجمل الأماكن في أوربا وبلدانها، فيينا وباريس وبروكسيل وروما... اعتبريها اجازة ترويح عن سنوات الاضطراب التي عشتها...

- اريدُ تنقلات جميلة بحجم النسيان الذي ابتغيه حتى اعود الى الحياة

Telegram: electronic_library

- انتِ مملوءة بالحياة عزيزتي، اعدكِ بأنك ستحبين أوربا جدا، فهي تشبهك، هادئة وساحرة الجمال، الفرق الوحيد بينكما انكِ تسبحين بشبابك وهي عجوزٌ لا تشيخ...

- متشوقة

نادتني امي طالبةً ان اعد لها شايا واهيئ غرفة الجلوس لأن دكتور محمد سيحضر لزيارتنا ليبارك لنا على الانتقال...

بيت الصليخ صغير وجميل، بالقرب من الاسواق الشعبية، ينقل لنا اصوات الصبية المتناغمين في لعبٍ بالشارع... كانت الحياة تدب هنا رغم غربتي عنها... حديقة صغيرة جدا ٢ في ٢ تتشابك بها شتلات الخضار معا، وثيل يبسط روحه لتدليك قدمي... مطبخ صغير وغرفة جلوس جميلة الى جانبها غرفة احتلتها امي، ارضيتها اللامعة بلون التراب من السيراميك الناعم... اما انا فقد هُمشت في الغرفة الوحيدة في الطابق العلوي وحيدة في عزلة. لم استغرب ذلك فقد اصبحت هذه الصفة لصيقة حظوظي... نثرت «الوصلة» دموعها على الارض لتلملم بقايا التراب، وكنت احرك الماسحة هنا وهناك فارشةً النظافة وروائح الديتول الزكية... تنظر الي امي بتحدٍ ومحبة

- متى تتزوجين؟

- عندما تتزوجين

- عن قريب...

- ما رأيك ان نتزوج في يومٍ واحد؟ الام والبنت معا، اتخيله عنوانا شيقا للجرائد

Telegram: electronic_library

- تستهزئين؟

- ابدا امي... هل لي بسؤال؟

- اسألي

- كنتُ قد اخبرتني انكِ ادخرت مبلغا جيدا، انا اعلم اننا نمر بظرف اقتصادي سيء، ماكنتُ سأسألك عن ذلك لو لا أنك لمحتِ لي... واخبرتكِ أني بحاجة لسفرة لتحسين مزاجي...

-لا تقلقي ستذهبين...

كنتُ اعصر الوصلة واغير مياهها بينما امي تقول لي ستذهبين. اعتلت الابتسامة شفتي وتدحرجت صورة إياس الى مخيلتي.

- متى؟

- متى شئتِ

اكملتُ تنظيفي بسرعة، وهرعت الى الغرفة المجاورة للشمس الحارة جدا، شيء من جهنم يعيش معي ويخفف عني عذابي في الاخرة لأنني ادفعه هنا مثل آلاف العالقين، اتصلتُ بمؤيد:

- هل استطعت تأمين رحلتي عبر البحر

- لا تقلقي فزارة اخبرتكِ سابقا ان لي معارف هناك سيتكفلون بكِ بالكامل حتى تصلي الى اليونان ومن اليونان سأتصل بأناس اخرين

- لا تقلق... لدي اقارب في أوربا سيأخذونني من اليونان

- حقا؟ من قال انهم يستطيعون؟

Telegram: electronic_library

- اثق بهم... ما هو المبلغ الذي احتاجه؟

- ليس كثيرا، الفا دولار تفي بالغرض... توصلك الى أوربا لاجئة؛ لا تخافي لن ادعكِ يا فزارة اعرف بأنك تمرين بظرف صعب... انا مؤيد، اعتمدي علي، لدي الكثير من المعارف في كل مكان، لن تحتاجي ان تدفعي بطاقة الطيران، فقد اهداني صديقي صاحب شركة حجوزات قبل فترة واحدة بعد إذ اسديت له خدمة مهمة وهي لكِ

- شكرا مؤيد، انا سأدفع

- لا تقلقي، ادفعيها عندما تصلين الى المانيا

- شكرا لك...

.....

قدم اهل يوسف الى بغداد. يجلسون الان مع امي... يحملون البصرة وروحها في ألسنتهم، يفتحون افواههم بكرم عندما يقولون: «آنه»، يضحكون معها ويسترسلون في الحديث دليلًا على التراضي، كانت الكؤوس ترتجف مثلي على الصينية وفائض عصيرها يسكب دموعه من لثامها مثلما اسكب دموعي في قلبي بصمت، واتمنى بتعاسة لو ان هذه الابتسامة الفرحة الخائفة لإياس لا يوسف... نظرت اليّ ام يوسف بارتياح كبير وهي تأخذ العصير مني ثم طلبت مني ان اجلس الى جانبها... مسدت شعري ورمقتني بنظرة فاحصة من اسفل قدمي حتى رأسي، كانت تتخيل صورتي الى جانب ابنها ذي العينين الزرقاوين... اردفت

Telegram: electronic_library

- تليقان ببعض

يوسف ينظر الى الجميع، يبعث إليهم رسائل مبطنة صامتة «الم اقل لكم لهذا السبب كنتُ اتابعها واتتبعها وانتظرها واكافح من اجل الفوز بها»... هربت من ذراع ام يوسف البدينة التي كانت تجري اليها وقميصها المبلل بالعرق يطبع نداه على بشرتي... كنتُ اهرب من هذا الواقع الذي سقطتُ في شباكه مثل ضحية العنكبوت لكن سفر الخروج في جيبي...

كنت اهرب من البحر الهائج في عيون يوسف الى بحرٍ قاسٍ ينتظرني في تركيا...

كنتُ اهرب من خيانتي وخذلاني، لم أكن انوي يوما ما ان الحق الاذى بأحد لو لا أني وجدت الحياة تدفعني لأن اصير كذلك... لمتُ امي كثيرا على تلك الطيبة التي قلدتني اخلاقا عاليا عندما كنتُ صغيرة وتركتني اواجه الحياة وقسوتها بهذه الاخلاق التي لا تتلاءم وتغيراتها، هكذا الاهل يربوننا جيدا ويصدموننا عندما نكبر... بأن أكثر ما تعلمناه لا يُطبق فالحقد والخيانات والعنف والاستغلال تملأ الهواء الذي يحيطنا.

اخبرتهم امي ان يعذروني لأني خجولة، رنّ يوسف على هاتفي الا أني لم أجبه، كانت امي قد اتفقت معهم على الزواج بطلب من يوسف ان يكون سريعا، الاسبوع المقبل، وأخبر امي انه بدأ بتجهيز بيت قريب من بيتنا حتى لا ابتعد عن امي كثيرا وفي قرارة نفسي كنتُ اعلم بأنني سأبتعد كثيرا...

فتحتُ هاتفي، قلبتُ بالصور التي احتفظ بها سرا في احدى برامج تعديل الصور، صورتي مع إياس، صورة قريبة لوجهينا، رأسي يميل على رأسه ننظر كلانا الى الكاميرا الامامية ونبتسم تعبيرا عن سعادتنا واغاظة للناس الذين قد يحسدوننا

Telegram: electronic_library

على حبنا، أسفت لأنهم لم يصلوا مرحلة الحسد لأن الحب الذي كان انتهى وفسد، نظرت الى لحيته الكثيفة وسوادها، عينيه اللتين تراقبانني واسنانه القوية، قبلتُ الصورة وبكيت، «ابدا... ابدا يا إياس، لن اسمح لرجلٍ اخر ان يمسني سواك، كل ما في الامر انني سأنتقم منك وانتصر لحياتي «نظرت الى عيني، كم كنتُ في هذه اللحظة اشعر بسعادة عارمة وبأن قلبي مثل البالون انتفخ بالحب وصار رحباً، هذه الابتسامة الصادقة في عيني لا تستحق هذا الخذلان التافه الذي غطاني به... كنا قد لعبنا سويا هنا مثل الاطفال! تركنا مغامراتنا العاطفية وساعات الذوبان في بعضنا وتنفسنا برئتي بعضنا الى براءة وعمر يماثل العشرة سنوات في تصرفاتنا... شبكتُ اصابعه، ذهبنا الى المول واحتللنا الطابق الثالث للألعاب، كنتُ سيئة جدا بالتفاهم مع الفوز لكني سهلة بالانتصار على إياس الذي يترك لي مكانه مضحيا بكل النقاط لصالحي، اشحن لعبة سيارات السباق الالكترونية ولا ألعب، واصرخ:

- إياس، إياس، العب بدلا عني

- لماذا شحنتِها اذن؟

- ارجوك، أحب هذه اللعبة

- العبيها اذن...

- انت ... أنت

يمد قدمه برشاقة ويكبس لدفع السيارة الالكترونية بالشاشة ويقودها يمينا وشمالا وانا اتابعه بشغف كأنني العب بدلا عنه، كان شاطرا متغلبا على جميع السيارات التي واجهته، إياس يجيد الهرب فأجاده معي.

Telegram: electronic_library

جلسنا لأكل الايس كريم، كنتُ قبالته، اضع قدمي فوق قدمه من تحت المنضدة، أقرب وجهي من وجهه، لولا احاطة الناس بنا، الجو بارد جدا وشفاهي تترجف من برودة الايس كريم، انفاس إياس دافئة تندفع بوجهي لاحتوائي ... كل هذا الحب يا إياس، كله، حملتني اياه الان وانا لا قدرة لي على حمله، لا اظنني سأبحر به الى اليونان، سأغرق به وابعثر ذكرياتي، اهبها للبحر واحكيها لأخر شخص قد اراه قبل الموت، فالكبت قارص مثلما البرد، والفراق ساخن مثلما الحر وحدك عذاب جهنم ...

.....

Telegram: electronic_library

- ٢٦ -

هنيئا لمن يفهم الأسباب الخفية للأشياء، أعتقد أني لست منهم.

حجزت تذكرتي بعلم امي، وحجزت قاربي دون علمها، كانت امي تثق بي بصورة مطلقة ربما لأنها فسحت لي المجال الكافي من الحرية ولم اخذها، لم تكن تمانع سفري وحيدة او ان اخرج برفقة الاصدقاء القلائل الذين تعرفت عليهم في حياتي، بل كنتُ اغلب الوقت امام عينيها في البيت، لولا أني كنتُ اسرق شيئا من بهجة الحياة بين يدي إياس، ليس لي اصدقاءٌ سواه ولا انسجم بالحديث مع احدٍ غيره، حتى تارة واحمد تعرفتُ عليهما من اجله وحتى مريم جارتي تحدثت اليها بحميمية أكثر عندما جاءت لي بنبأ حب إياس، إياس كان عالمي الوحيد في كرة صغيرة اضعها في قلبي، ولربما كانت الطريقة التي نشأتُ بها جزءا من قولبتي على التعلق المفرط، مشاهد العنف المكرر وصدى التأثيرات الصوتية لضرب امي والتقشف الذي عشناه لسنوات طويلة وهروبي المستمر الى الفراش تحت الغطاء؛ كله ادى الى وحدتي التي كان من الصعب اختراقها الا بصدمة عاطفية تثيرها عينان جميلتان مثل عيني إياس يوم ارتطم بي عند باب العمارة وضربني بحلاوة جسده الذي اذاب اثاره على مسامات بشرتي...

كان علي ان اقطع طريقي الى محلات شراء بدلات الزفاف لأُكمل مشوارا صغيرا مهما... محطتي : شارع الرشيد حيث تباع البدلات العسكرية، يبلغ عمر الشارع العجوز الان ٩٩ سنة ويحمل الكثير من الذكريات والآهات والغصات

Telegram: electronic_library

مثلي، عواميده الجميلة المصفوفة تحكي تاريخا حديثا لمدينة جميلة اسمها بغداد... محالّ بيع الملابس العسكرية يجاور واحدها الاخر، تقدم للجندي او الضابط او المزور صورته العسكرية على هيئة بدلات او رتب او قبعات او خوذ او احذية قادرة على تحمل الصحارى وضياعها... فضلا عن الدروع التي تحمي صدور الجنود واسرارهم ، في هذه اللحظة بالذات وانا انظر الى الدرع وأتحسس مادته بيدي واضغط على قطعة الحديد فيه لم أكن اتمنى ان ألبسه رغم أني تمنيت ذلك في السابق للحفاظ على إياس في قلبي الى الابد، الان اريد طلقة واحدة تخترق صدري وتستقر في قلبي لتقتلني معه، او لو كنتُ في وقتٍ سابق قد زرت هذه المحلات لكنتُ اشتريت له درعا ميالا للون الأزرق تيمنا بلون السماء والبحر حتى يحفظني في قلبه ، ربما نزع إياس درعه دون ان يدري واصبتُ انا برصاصة موت في قلبي... الالوان هنا تتراوح بين الصحراوي والزيتوني والاسود ...صاحب المحل ينظر الى باستغراب، ما الذي تفعله آنسة رقيقة في محلٍ يعنى بالحروب وبشاعتها ودمائها... ربما ظنني احدى الضابطات الناعمات المدللات ألبس البدلة لأنها زي رسمي لا لحاجة ميدانية واجلس في المقر الرئيسي،... طلبت منه أن يعطيني الشعارات العسكرية التي توضع في العادة على «اكمام» البدلة العسكرية، أعطاني مجموعة من الشعارات الخاصة بالوحدات، اخترت الشعار الذي كنتُ اراه على بدلة إياس يوم كان معلم كوماندوز... اخذت الشعار وعدتُ الى الكرادة ابحث عن فستان زفافي.

....

Telegram: electronic_library

وصلت الى محل بيع فساتين الزفاف، اخرجت عطر امي التيمبس وضعتُ شيئا منه على عنقي بحثا عن الطمأنينة، فتحت الباب وانا احاول ان أخفي السواد تحت عيوني وتعاستي وكم الحزن الذي اخفيته وانا ابحث عن إياس بين البدلات وبين الدروع العسكرية والصحفية...

- تفضلي... كيف اساعدك

- اريد بدلة زفاف

- كيف تريدين موديلها؟ وصلتنا موديلات حديثة تول كوميل

- لا، اريد بدلة بسيطة بأكمام

- اكمام؟ لماذا... أوه اظن ان الاختيار سيصير أصعب، هناك الكثير من البدلات الجميلات بدون اكمام.

- اريدها بأكمام من فضلك...

- تعالي معي

ظلت المرأة تقلب الموديلات مثل قطع الدومينو، كنتُ شاردة الذهن وانا اتفرج عليهن دون أن اتفرج، كان هناك موديل غريب... بدلة قصيرة منفوشة بأكمام طويلة من التول الناعم... ستصير لوحة في شارع...

- من فضلك ... اريد هذه

- هذه؟ عندك ذوق، انها جميلة جدا وهي احدى موديلاتنا الجديدة... ما هو قياسك؟

- ٣٨

- ارجو ان تدخلي الى غرفة القياس سأجلبها لك...

Telegram: electronic_library

كانت غرفة القياس كبيرة يفترشها السجاد الاحمر ومقسمة الى عددٍ من الردهات، وصوت الموسيقى الهادئة المريحة يسبح فوق سعادة الفتيات اللاتي سيتزوجن قريبا مثلي، دخلت ردهة القياس، ناولتني المرأة البدلة، كانت المرآة امامي كبيرة، خلعت حذائي وتجردت من ملابسي، نظرت الى جسدي وانا احضن الفستان بيدي اليسرى، وحده الحب من يحي اشتعاله، ودون الحب لا قوة في العالم تستطيع تحريك المشاعر الجياشة داخله، اغمضت عيني والموسيقى تمر الى رئتي عبر قصبتي الهوائية، كنتُ ابتلعها واسلم عقلي ايعازا بالاندماج مع حالة عزاء ومواساة مددت كفي لتتطابق مع يدي في المرآة كأنني امد يدي لإياس، شعرت بروحه تطوقني الان، تبعد شعري عن عنقي وتطبع قبلة صغيرة، يطوقني الان من كل مكان، ويلهمني بالحب، الكثير من الحب فتحت عيني علها حقيقة، وجدتُ يدي لا تزال ممدودة الى المرآة والدموع تنهمر بهدوء من عيني... جربت الفستان، كنتُ هي، هي التي ابحث عنها، عروس بلا عريس....

- عفوا لدي شعارات عسكرية هل تستطيعين مساعدتي بلصقها؟

- كيف؟ ستفسد الفستان... لا اعتقد انها فكرة جيدة

- من فضلك، أنا اراها فكرة جيدة، ثم ان زوجي عسكري سابق وصحفي حربي

- حاضر، اين تريدين ان اضعها؟

- ضعيها على الكم الايسر لكن لا تخيطيها، الصقيها فقط.

- حسنا.

....

Telegram: electronic_library

موعد طائرتي هو ٣٠ ايلول ٢٠١٥ الساعة الرابعة عصرا الى اسطنبول وهو اليوم نفسه لموعد زفافي المزمع عقده... حضرتُ حقيبة صغيرة، حاولتُ ان لا احمل بها الكثير من الذكريات، بعض الادوات والملابس الضرورية جدا وصورة لي مع ابي وامي وجدتي وانا في مطبخ بيتنا القديم في العرصات ابدو في الصورة كما لو أني كنت آكل، حافية القدمين شاهرة ملعقتي بوجه المتفرج وصحني امامي... فاتحة فاهي كما لو أني اتحدى احدا واهلي يحيطونني، نظرت الى الصورة بكل حب... هذه هي الصورة الوحيدة عن اهلٍ كنتُ اعرفهم، لم يبقَ منهم سوى رائحتهم ورائحة إياس على جسدي...

- حبيبتي... انتظركِ بفارغ الصبر... لا اصدق اننا سنعيش في بيتنا معا، والحلم يتحول حقيقة

- لا تصدق؟

- لا أستطيع ان اصدق من شدة فرحي

- حسنا، سأتأخر قليلا بالتبديل، نلتقي عند الساعة الثالثة ظهرا

- سأنتظرك فزارة، انتظرك بفارغ الصبر

- انتظرني...

- هل انتِ متأكدة بأنكِ لا تريدين الذهاب الى صالون تجميل

- لستُ بحاجة لصالون

- وانا اتفق معكِ، أحبك انتِ كما انتِ ببساطتك وعذوبتك

- مع السلامة

اغلقت الخط فورا، وكنتُ أعني ذلك، امنية السلامة الابدية ليوسف...

Telegram: electronic_library

ارتديت فستاني وجوارب بيضاء شفافة خفيفة، اسدلتُ شعري الطويل على ظهري، سمحتُ للكحل بمواساتي بتكثيف مضاعف مع المسكارة، حُمرة زهرية فاتحة...

أقلد البجعة البيضاء الان بتفاصيلها، وملامحها ورداءها وبحثها عن رأسٍ اخر تستند إليه لترسم قلبا عائما في الجو متصلا من الجبين الى الذقن... جلست على أريكة جدتي المهربة الى بيتنا الجديد وانا البس حذاء الباليه البصلي القوي، يضغط على اصابعي بقوة... فتحت امي الباب

- يا للروعة... لكن لا زال الوقتُ باكرا لماذا ارتديتِ ملابسك من الان؟

- أفضل

عقدت حاجبيها واردفت مستغربة

- تبدين في غاية الجمال حبيبتي..... ما هذه الشعارات التي على الكم الايسر؟ ما هذا الفستان؟ من خربه هكذا؟ ولما لا تخلعينها...

* وضعت امي يدها على الشعارات تحاول ان تخلعها، صرخت بسرعة

- لا

- ما بكِ؟

- هذه مفاجأة ليوسف، لقد كان عسكريا في السابق

- لم أكن اعرف ذلك، انه مهندس

- لا لا، كان كذلك قبل دخوله الهندسة بعد تخرجه من السادس الاعدادي لكنه ترك العسكرية وعاد الى مقاعد الهندسة

Telegram: electronic_library

- انها فكرة جميلة لكنها غريبة جدا على عروس... لا اعتقد انها مناسبة

- نعم

- لا اصدق انكِ كبرتِ واصبحتِ عروسا

- للأسف لا عمر يحتفظ بأيامه

- فعلا

اقتربت مني امي... وضعت يديها على كتفي واحتضنتني

- أحبك، اعلم أنك حساسة ولستِ على قناعة تامة بهذا الزواج، اشعر بهذا جيدا، لكن كوني على ثقة ان هذه هي الخطوة الصحيحة التي تقومين بها... لا تعيدي اخطائي وتخسري حياتكِ وحياة ابنتكِ او ابنك من اجل حبٍ يتحول لاحقا الى مشاكل.

- امي، لم يعد هذا الكلام مهما.

- لا اريدكِ ان تندمي على ما تقومين به، يوسف يُحبك جدا ولا اعتقد انه سيؤذيك يوما ما.

رفعتُ عيني ونظرت اليها وقلت لها بهدوء:

- ربما انا اؤذيه

ضحكت امي

- انتِ لا تؤذين نملة فكيف بإنسان

- الظروف تجبر الانسان احيانا

- كفي عن الفلسفة الان وأكملي ارتداء ملابسك.

Telegram: electronic_library

انتهى الامر، أنا احمل حقيبتي الصغيرة وبطاقة السفر، نزلت الدرج، كانت امي تقف قرب الدرج تسقي نباتاتها الجميلة والابريق يقُبل الخضار بخفة وقطرات ومطر...

- فزارة؟ اين تذهبين

- اضع حقيبتي قرب الباب حتى يأتي يوسف لأخذها...

- طيب

جلستُ في المطبخ انتظر امي ان تدخل الى الحمام او ان تبدأ استعدادها لزفتي او الى اي مكانٍ اخر... والحمد الله انها غابت بعد مدة ودخلت في صومعتها تتصل بدكتور محمد... فتحتُ باب المطبخ وتسللت... الساعة الان الحادية عشرة وكل من يراني في الشارع بهذا الجنون يظل مستغربا، فستان زفاف عليه شعار عسكري احمر، اوقفتُ سيارة تاكسي وطلبت منه ان يقلني الى محل عمل إياس...

لا أستطيع السيطرة على خوفي وقلبي وارتجافي، كنتُ أؤدي عملية انتحارية بحق نفسي وحقه وحق اهلي، اقسمتُ الا اعود الى احد سوى الى نفسي... حاولت ان اهرب مما سيحصل واغذي بصري باللحظات الاخيرة لشوارع بغداد، كنتُ التهمها التهاما حتى اشبع منها، كما اراها الان، شوارع قلقة خائفة لا تعرف متى ينفذ الموت عملية اخرى وسط اهلها، لافتات سوداء معلقة واخرى للانتخابات ممزقة عواميد متجاورة شوهتها الاسلاك الكهربائية، نفايات متراكمة ومبانٍ تحكي قصصا تشبه قصتي وأكثر وأكثر حزنا، وجوه اهلها وجوه حائرة لا تعرف التمرد ولا تريدُ شيئا سوى العيش المستقر، اما انا المنشقة عن ميولهم فكنتُ متمردة واريد

Telegram: electronic_library

ان انتصر لحياتي مثلما قالت امي...

وصلتُ الى مقر عمل إياس... نزلت من التاكسي وطلبت من السائق ان ينتظرني... كانت هناك مجموعة من الشباب واقفين امام باب المقر يتناقشون بصوت عال كالعادة، صمت الجميع والتفت الي... كنتُ امشي بخطواتٍ متثاقلة خائفة، ما هذه الورطة التي ورطتُ نفسي بها ولا أستطيع ان اتراجع عنها الان؟ اريد ان اختفي في هذه اللحظة وان اهرب... لكن لن اهرب... منظري غريب جدا... ربما ظن البعض بأني مجنونة... حذائي الضيق يضغط على اصابعي بشدة ويؤذيني وهذا كان سببا اخر لغضبي واحتقان خدي... سألني الحارس:

- عفوا؟ ما الذي تريدينه؟

- اريد إياس

- من انتِ؟

- انا عروسه

ظل الحارس باهتا بوجهي يحاول ان يفهم ما الذي اقوم به او ما ورائي، وكيف يتدارك الموقف ... هل يستدعي الشرطة ويخبرهم ان مختلة عقليا تقف عند الباب؟

تدخل أحد الشباب الواقفين

- كيف اساعدكِ يا انسة ...؟

- اريد إياس؟

- من انتِ؟

- انا عروسه... ارجوكم ما بكم... نادوا إياس، اليوم موعد زفافنا

Telegram: electronic_library

ضحك الحارس، ونادى بجهازه اللاسلكي: « اين إياس ... جاءته عروسٌ «دلفري»

بعد تجاذباتٍ في الحديث ومحاولة البحث عن إياس في الاقسام والضحك والاستهزاء الذي قام به الحارس والشباب يبتسمون من بعيد، ظهر إياس عند الباب...

كانت اللحظة الاولى صامتة جدا بيننا... اصيب بدهشة بالغة، واصبتُ بارتجافة صاعقة في اعصابي... ملامحه تتكسر امامي الان بين الحنين والغضب والاندهاش والعجز، لا يعرف ما الذي يفعله، ينظر الى الشباب الواقفين، الى الحارس الذي يأكل برأس هوائي الجهاز اللاسلكي وهو ينظر الينا... يعيد نظره الي حائرا ما هي ردة فعله الصحيحة...

انا لم أكن أستطيع ان اقاوم نفسي أكثر، شحنتني الايام بالشوق والحب والخذلان ومحاولات النسيان، هذه المرة الاخيرة التي سأرى فيها إياس... وسنطوي الصفحة الى الابد...

هرعت اليه وطرحتي تطير في الهواء وحذائي يكبح اصابعي فأشتدّ ألما، احتضنته بقوة، دافنة رأسي في عنقه، لم يفتح يديه لي، لم يتقعر جسده لاحتوائي، صدره مسطح جدا في وضع دفاع، ظل مذهولا، بعد ثوانٍ لانت ذراعيه طوقني بهما وهو يمسد شعري، كنا كتلتي نار تتوحدان لحرق بعضنا أكثر... رائحة جلده تغلغلت الى رئتي وفكت حصار ضعفه قليلا، هذه هي الرائحة التي اعتدتها وهذا هو الانفعال الذي عليه تعودت، اعرف ان في داخله لي بئر حب لا ينضب...

Telegram: electronic_library

ابعدني قليلا وهو يرتجف مصدوما

- فزارة

- إياس

- ما هذا؟

- ما زلتُ أحبك وسأحبك الى الابد.

- ما الذي تفعلينه يا فزارة بهذه الملابس وامام المقر، لماذا لم تتصلي بي.

- لم يعد مهما الاتصال.

- ما بكِ؟

- انا أحُبك.

- تعالي نذهب من هنا.

- لا، لن نذهب... انا أحبك جدا ولم استطع نسيانك يوما، لكنك جبان، خاضع، لا اعرف سببا واحدا وجيها لتركي... كل تبريراتك وحججك واهية، صدقني في اعماقك هناك رجل اخر تطغي عليه انت لكنك لا تدري بأنك تقتله وتشوه شكلك الخارجي بهذا القتل... انك تقمع شعور هذا الرجل الذي اختارني قلبه خطأً، انت في صراعٍ دائمٍ معه، مرة تختار ان تظهر بحلته ومرة تختار ان تطغي عليه بتصرفاتك وغيابك وهروبك، انا لن اتغير يا إياس، لم اختر موروثاتي، لم اختر اهلي وديانتي وظروفي وقناعاتي، انا اشجع منك الف مرة لأني قوية بما يكفي حتى اتصالح مع نفسي واوقع معها معاهدات استمرارية ونقدم كلنا تنازلاتٍ للآخر من اجل ان نمضي، جئت الى هذه الدنيا هكذا، وهذا ما سيصاحبني الى الابد...

Telegram: electronic_library

لم يعد مهما انك تحبني، المهم أني اعرف جيدا احساسي ولا اخجل من المجاهرة به...

- انا اسف... انا جبان حقا، كل مرة تثبتين انكِ اقوى مني.

اغرقت عيني بالدموع وشفاهي بالضحك.

- حقا؟ هذا هل كل ما لديك؟

- أحبك جدا، تستحقين رجلا اقوى مني...

- ها انتَ تسلمني لرجلٍ اخر مرة اخرى

تبدلت ملامحه الى غضب وعقد حاجبيه

- اخرسي... انتِ لي... لن اتنازل عنكِ

- ما هذا التقلب في مواقفك؟ وآرائك؟ اثبت!

جذبني من رسغي بقوة وهو ينظر الى الآخرين... كلما يصبح غاضبا يجرني من رسغي.

- سينتهي هذا الصراع قريبا.

- لم يعد مهما، انت لا تعرف عني شيئا منذ شهرين، لقد خطبت لرجلٍ قدم لي الدنيا على طبق من ذهب وانا لم أكن اريد شيئا سوى ان نطبخ دنيتنا معا ونضعها في الطبق... لكنك خذلتني ولهذا انا انتقم منك...

- خُطبتِ؟

- نعم

- وما هذا الذي تلبسينه؟

- انه فستان زفافي، اترك يدي أنك تؤلمني

Telegram: electronic_library

- انتِ مجنونة، لن يمسكِ أحد، سأقتله صدقيني...

- هههههههه جبان... لقد قتلت اثنين منذ اربعة أشهر.

- فلنذهب من هنا.

- لن نذهب الى اي مكان...

التفت الى الآخرين، كانوا يتفرجون علينا مصدومين بما يحصل، حدثتهم وانا اضحك بهستيريا

- لقد افترقنا... تخيلوا صعوبة العثور على اعماقنا وحث مشاعرنا لتنتهي بسهولة وتفاهة اسبابنا... لا يملك الانسان دائما القدرة على الحب! يتهيّأ له ان يحب... في الغالب نتخلى عن ممتلكاتنا بسهولة خوفا وخجلا من مواجهة الاخرين اننا مهووسون بحب بعضنا وبحب ارضنا دون جدوى... دون جدوى

- فزارة ارجوكِ اهدئي وتعالي نذهب الى مكانٍ اخر.

- دعني وشأني.

خلعت الشعار العسكري الملصق على كتفي ورميته بوجهه...

- تخليت عن شعارك يوما ما ومن واجبك الامني، هربت من المدن النازفة لأنك مللت الموت وتعبت من رؤيته في الازقة والشوارع، انسحبت وفضلت ان تعرف الاخبار وتتفرج عليها ككل الصحفيين دون ان تعطي رأيك حتى، خوفا على مهنيتك وعلى مشاعرك، لهذا لا استغرب تخليك عني...

جذبني مرة ثانية من رسغي وحاول ان يجرني بعيدا عن المقر، دفعت صدره الذي صار مقعرا بعد أن استسلم لحضني...

Telegram: electronic_library

- تذكر يا ٣١؟ انا اخلعك الان عني... لن اعترف بشهور تتمم نفسها بزيادة يوم اخر وتذكرني بك، كل شهوري من هذا الشهر ٣٠ يوما فقط ...

- انتِ مجنونة، لا تعرفين ما الذي تقولينه؟

- لا، لستُ مجنونة، اخبرتك سابقا انا عاشقة... جئت الى هنا اقول للك وللناس انا عروسك، فتفرق كثيرا ان أحبك الى الابد او الى اخر يوم في حياتي...

حررت نفسي من قبضة يديه وركضت الى السيارة وهو يلحقني والآخرون يصرخون «لحظة، لحظة»، تركته منهارا خائر القوى باهتا لا يعرف كيف يجيبني او يبرر لي... تركت في قلبه ذبحة ابدية ستتحول الى ندبة لكن أثرها سيبقى مهما حاول نسيانها... تعثرت قرب التاكسي لأن الحذاء أدمى اصابعي بألم لا يحتمل تمنيت في هذه اللحظة لو أني لبست حذاء الباليه... لكني فتحت الباب ودخلت فورا... ركض خلفي مدركا أن كل شيء راح وانقضى. حاول ان يفتح الباب لكنّني كنت قد اقفلته... ظل يضرب على الشباك، خفت ان يكسره

- فزارة، اهدئي، انا احبك، انزلي كي نتحدث

كنتُ انظر اليه كمن ينظر الى السفح المفتوح، بتأمل وخشوع وصمت، احبه واشعر ان قلبي يريد الفرار مني الى فمه ثم رئته ويستقر الى جانب قلبه، دبت السكينة في روحي قلت له بهدوء عقلاني جدا

- نعم إياس

- انزلي

نزلت من السيارة، أعلنت قدمي عن موتٍ محتم يقتحمها من شدة الوجع،

Telegram: electronic_library

اضطررت ان اتكأ عليه

- فزارة، تفرق كثيرا ان احبكِ الى الابد او الى اخر يوم في حياتي ... لن اتخلى عنكِ ولن تكوني لغيري، اعدكِ بذلك، انا اقوى مقاتل واذكى صحفي بحبكِ

- تعدني؟

- اعدُك

- كنتُ قد فوضت امري لنسيانك...

- فوضي امركِ لي

- اليوم موعد زفافي

- نعم فعلا، اليوم موعد زفافكِ مني، انتِ عروسي، الم تأتي هنا لتخبري الناس انكِ عروس إياس؟ دعينا نثبت لهم صحة ما تقولين، فالخبر يحتاج مصداقية مدعومة بوثائق

- مثل ماذا؟

- مثل وثيقة زواج؟

- لا تهمني، لا تهمني اعترافات المحكمة ورجال الدين والاخرين بحبنا، لا اثباتات اصدق من صدق ثوابتنا الحسية، الله يعرف ذلك حقا أكثر من كل البشر؛ لا تريد ان تتركني فقط.

- اقتنعي الان اذن بزواجٍ عربي شرقي ولنركض بعيدا عن هنا ومن ثم ابقي معي بلا ثوابت سوى ثوابتك الحسية.

- موافقة.

Telegram: electronic_library

زعقت بطارية الهاتف معلنةً انخفاضها، أفرغت محتويات الذكريات بتفاصيلها وازمنتها واماكنها وملامحها ومشاعري هنا في هذه السطور الالكترونية قبل ان تنزل ستارة الشاشة السوداء، تحسست دفتري الصغير في جيب معطفي السميك وتفقدت في جيبي الآخر ساعة الجيب لأبي بعد أن أصلحتها وأحكمت الشال حول عنقي، أشعر أن زورقا آخر يتبعنا وكأني أسمع صوت ذي العينين الزرقاوين يشق عتمة البحر ويلحقني: فزارة فزارة فزارة.

- تمت -

Telegram: electronic_library

لا يهمني ما يحدث الآن وما حدث
وأقابل ما حولي ببرود ولامبالاة وصمت
هي لعبة أتقنتها لعلها في دمي
لقد كان عددنا كبيرا في البيت وكنت أحس أني زائدة
بالنسبة لأبي أعتقد أنّا كلنا زائدون
بالنسبة لأمي كنت أعتقد أني لست المفضلة
رغم كوني وحيدة
سأرمى يوما عند باب الجامع
لذا بقيت كل ظنوني شريرة
لماذا أتيت واضحة هكذا كالألم
أخفقت في ايجاد حل لمشاكلي الكثيرة
كنت أريد أن آكل خبزتي لوحدي
وأضع يدي في يده وأمشي كالطاووس أمام الجميع
أعرف أني لا أملك الشجاعة لأني رأيت الصواب ولم أفعله
لا أريد أن أترك المائدة بعطشي وجوعي
أمامي محيط من المجاهيل كيف أبحر
حياة شاحبة هي تكرار للتكرار
أحمل كل الفصول بقلبي لك
أيها الغائب والذي لن يأتي
أفتخر بك رغم اختفائك
وأحيانا أفتخر بنفسي لأني أملك قصة حب عظيمة

ISBN 978-1-78481-116-7
9 781784 811167
DAR ALHIKMA
Publishing & Distribution
دار بابل
للطباعة والنشر والتوزيع
88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel:0116 7383 20 (0) 44 4037 7383 20 (0) 44
E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk